



الجمعية التاريخية السعودية

سلسة من الأعمال العلمية المحكمة

في التاريخ والحضارة

الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي

دراسة مقارنة

مع كل من الإقطاعين الجاهلي والأوروبي في العصور الوسطى

الدكتور / مسعود يحيى الآغا

الرياض

الإصدار الثاني

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

الجمعية التاريخية السعودية

بحـــوث تاريخيـــة

سلسلة من الأعمال العلمية

المحكمة في التاريخ والحضارة

الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي

دراسة مقارنة

مع كل من الإقطاعين الجاهلي والأوروبي

في العصور الوسطى

الدكتور/ مسعود يحيى الآغا

الريـــاض

الإصـــدار الثـــاني

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

ح الجمعية التاريخية السعودية ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الآغا ، مسعود يحيى إسعيد

الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي / مسعود يحيى اسعيد الآغا - الرياض ، ١٤٢٧هـ

٣٦٠ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك :٢-٧-٩٤٢٨-٩٩٦٠

١- الإقطاع - تاريخ ٢ - الإقطاع (فقه إسلامي) أ. العنوان

ديوي ٩٥٣ ٤٦٩١ / ١٤٢٧

رقم الإيداع : ٤٦٩١ / ١٤٢٧

ردمـــك : ٢-٧-٩٤٢٨-٩٩٦٠

البحوث ترسل باسم رئيس التحرير

العنوان : ص. ب: ٢٤٥٦ – الرياض: ١١٤٥١ – تليفاكس: ٤٦٧٤٠٨٩

المملكة العربية السعودية

الموقع على الإنترنت والبريد الألكتروني

www. Saudi historical society.com

info @ Saudi-historical-society.com

ح الجمعية التاريخية السعودية ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الآغا ، مسعود يحيى إسعيد

الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي / مسعود يحيى اسعيد

الآغا - الرياض ، ١٤٢٧هـ

٣٦٠ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك :٢-٧-٩٤٢٨-٩٩٦٠

١- الإقطاع - تاريخ ٢ - الإقطاع (فقه إسلامي) أ. العنوان

ديوي ٩٥٣ ٤٦٩١ / ١٤٢٧

رقم الإيداع : ٤٦٩١ / ١٤٢٧

ردمك : ٢-٧-٩٤٢٨-٩٩٦٠

البحوث ترسل باسم رئيس التحرير

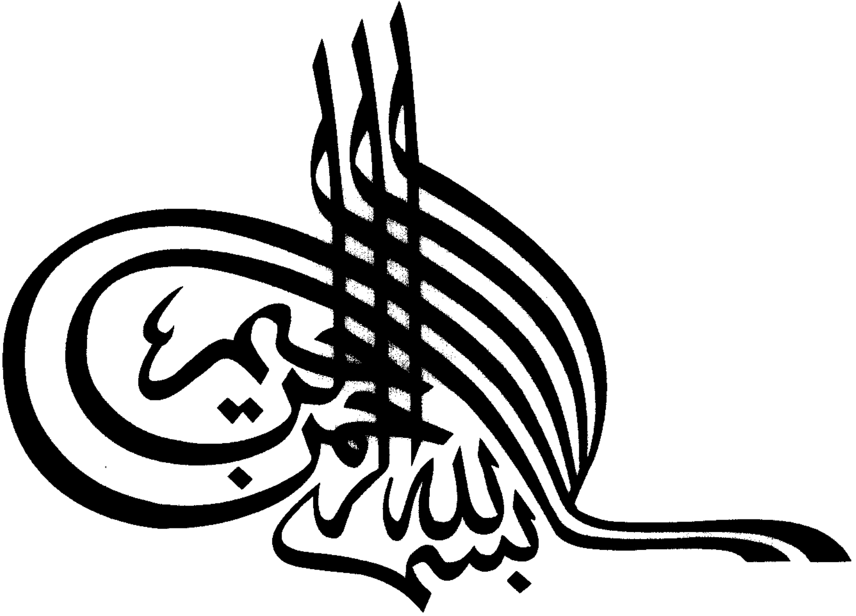
العنوان : ص. ب: ٢٤٥٦ - الرياض: ١١٤٥١ - تليفاكس: ٤٦٧٤٠٨٩

المملكة العربية السعودية

الموقع على الإنترنت والبريد الألكتروني

www. Saudi historical society.com

info @ Saudi-historical-society.com


بسم الله الرحمن الرحيم

الرئيس الفخري

للجمعية التاريخية السعودية

صاحب السمو الملكي الأمير/ سلمان بن عبدالعزيز آل سعود
أمير منطقة الرياض

أعضاء مجلس إدارة الجمعية التاريخية السعودية ١٤٢٣هـ

الاسم	الجامعة	الوظيفة
د. عبد الله بن على الزيدان	جامعة الملك سعود	رئيس مجلس الإدارة
د. ناصر بن محمد الجهيمي	دارة الملك عبدالعزيز	نائب الرئيس
د. سعيد بن عبد الله القحطاني	جامعة الملك سعود	أمين المال
د. عبد الله بن محمد المطوع	جامعة الملك سعود	أمين سر المجلس
د. عبدالله سراج منسي	جامعة الملك عبدالعزيز	عضواً
د. عدنان بن محمد الحارثي	جامعة أم القرى	عضواً
أ. د. عمر بن صالح العمري	جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية	أمين البحث العلمي
د. سعد بن حسين عثمان	جامعة الملك خالد	عضواً
أ.د. سعيد بن عمر آل عمر	جامعة الملك فيصل	عضواً

قيمة النسخة

العالم العربي :

الأفراد : ٣٥ ريالاً

المؤسسات : ٧٠ ريالاً

خارج الوطن العربي :

الأفراد : ١٥ دولار أمريكي

المؤسسات : ٢٥ دولار أمريكي

يضاف إليها أجور الشحن والبريد

ترسل القيمة بشيك مصدق باسم :-

الجمعية التاريخية السعودية - المملكة العربية السعودية—الرياض

عنوان المراسلة:-

ص.ب ٢٤٥٦ الرياض ١١٤٥١ تلفون : ٤٦٧٤٩٨٩ فاكس: ٤٦٧٤٠٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

.... لا تزال الدراسات تنبئ لنا عن جوانب عن عصر النبوة. إن عصر الرسول الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم بما يمثل من خاصة يبرهن على أنه عصر لا ينضب معينه، فهو لا يزال يكتنز كنوزه التي تمثل لنا معشر المسلمين نبراساً وطريقاً نهتدي بهما. ومن حيث المنظور التاريخي هو لا جدال الزمن الذي لا ينطبق عليه مقولة المؤرخين المتداولة بأنه الزمن الذي أشبع بحثاً.

إن العمل الذي يطيب للجمعية التاريخية السعودية تقديمه للقراء، من واجب مسؤولياته لتقديم التاريخ الإسلامي عموماً وعصر النبوة الكريمة بصفة خاصة، وفي سلسلة مطبوعاته يتوافر فيه هذه الصفة.

وبهذا يسر الجمعية التاريخية السعودية أن تقدم كتاب الدكتور مسعود يحيى الآغا الموسوم بـ "الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي، دراسة مقارنة مع كل من الإقطاعين الجاهلي والأوروبي في العصور الوسطى".

إن الدراسة، كما تعبر عنها قائمة محتوياتها تركز على جانبين مهمين. أوله: الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي مع تبيان النظم والتشريعات المحيطة بهما، وكذلك أنوع الإقطاع النبوي ﷺ وأهدافه المحققة. وهو لب الدراسة النادرة في مصادرنا التاريخية الإسلامية. ثانيه: تعرج الدراسة إلى مقارنة جوانب الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي وما أحيط به من سمات مع ما عُرف عن نظام الإقطاع في العصر الجاهلي والأوروبي الوسطي. وهذا يعطي للدراسة أهمية خاصة. فهو يبرز جوانب اختلاف الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي وتميزه عن عصر إقطاع سابق وإقطاع لاحق.

لقد منحتني الجمعية التاريخية السعودية شرف خلافة أستاذي العزيز الدكتور محمد ابن سعيد الشعفي في القيام بالمهمة التي قام بها خير قيام. وهذا هو عين التكريم الذي أرى أنني قد لا أكون جديراً بملء الفراغ الشاغر من بعده.

أسال العلي القدير أن يمنح الاستاذ الدكتور محمد الصحة والعافية وطول العمر ليتمكن من التفرغ لأعماله العديدة المؤجلة، وله مني ومن الجمعية التاريخية، رئيساً ومجلساً وأعضاءً كل الشكر والتوفيق.

والله المستعان

رئيس التحرير

أ.د. عبد الغفور بن اسماعيل روزي

محتويات البحث

محتويات البحث

الموضوع

الموضـوع

الموضوع

الموضـوع

ملخص البحث

" ملخص البحث "

يتناول هذا البحث دراسة شاملة للإقطاع الإسلامي في العصر النبوي، مع مقارنته بالإقطاعين الجاهلي، والأوربي في العصور الوسطى.

قمت بتقسيم هذا البحث إلى خمسة فصول كانت على النحو التالي:

يتضمن **الفصل الأول نظام الإقطاع في العصر الجاهلي**، مع دراسة تعريف الإقطاع والقبيلة والحمى والوضع الاجتماعي والاقتصادي، وتناولت نموذجاً لمملكة الحيرة كمثل للإقطاع الجاهلي لمقارنته مع الإقطاع النبوي.

ويتناول الفصل الثاني، الحالة الاقتصادية في بلاد الحجاز، قبيل البعثة النبوية، مع دراسة لمدينتي الرسول صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة، ويثرب (المدينة المنورة) لمعرفة الوضع الاقتصادي والاجتماعي فيهما، وأتممت الفصل بدراسة الأسس التي وضعها النبي ﷺ لبناء الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

أما الفصل الثالث فقد تم الحديث فيه **عن العوامل التي دفعت بالرسول ﷺ لتشريع نظام الإقطاع**، وتضمن نماذج للإقطاعات النبوية كالأراضي (البور والعامر) والمساكن والمياه وخلافها، وأتممته بتسجيل الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي للفرد والقبيلة والدولة.

ويتناول الفصل الرابع الإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى من حيث نشأته، أركانه وخصائصه، والعوامل التي أدت إلى انهياره، ذلك لمقارنته بالإقطاع النبوي وتوضيح الفروق بينهما.

والفصل الخامس والأخير بمثابة المقارنة بين الإقطاع النبوي وكل من الإقطاعين الجاهلي والأوروبي، مع مقارنة محاسن الإقطاع النبوي ومساوئ الإقطاعين الآخرين.

ABSTRACT

This research is a comprehensive study of Islamic Feudalism in the epoch of the Prophet (PPBUH). A comparison was made with the (Jahili) and the European Feudal system in the Middle Ages.

__The research is divided into five chapters as follows:__

Chapter one contained a review about the feudal system in the (Jahili) era. It handled the definition of feudalism، tribalism tribal zeal and the socio-economic status. An example of this type of feudalism was taken from the model of the Kingdom of (Hera)، for comparison with the feudalism of the epoch of the Prophet (PPUPH).

Chapter two contained the economic conditions in (Bilad El-Hijaz) before the advent of the Prophet Mohamed. This was accompanied with a study of Macca Macarrama and Yathrib for knowing the socio-economic situation in those two cities. The basis which the Prophet (PPBUH) set for building the Islamic State in Madina Manawara were then explored.

Chapter three considered the factors which motivated the Prophet (PPMUH) to legislate for the feudal system. It contained models of the prophetic feudal lands (fallow and cultivated)، residence، waters etc. etc.

The achievements of the prophetic feudalism for the individual، the tribeand the state are also mentioned.

Chapter four studied the European feudal system in the Middle Ages، its initiation، pivots، characteristics and the factors which led to its downfall. This was done for the purpose of comparison with the Islamic feudalism، to show the difference between them.

Chapter five which is the last chapter، contained a comparison between the Islamic feudalism and the (Jahili) and European feudal systems. The Islamic Prophetic system advantages were contrasted with disadvantages of the other two systems.

مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

" مقدمة البحث "

إن الحمد الكامل والثناء كله لله، وله الحمد في الأولى والآخرة، الحمد لله الذي يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها ويعلم ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ليكون للعالمين نذيراً أخرج به الله البشر من عبوديتهم لغير الله إلى عبوديتهم لله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان المحرفة والضالة إلى عدل الإسلام.

يتناول هذا البحث فترة من أهم فترات الحياة البشرية، ومقارنة لأوضاع سيئة سادت العالم في تلك الفترة، كانت بمثابة الجحيم الذي يعيشه الإنسان، اختلط فيها الغث بالسمين والباطل بالحق إلى أن بعث الله رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق، وبالنور الذي بدد الظلام، لقد كان العرب في جاهليتهم يعيشون قبائل متفرقة ومتناحرة، تتقاتل على منابت الكلأ، ومنابع الماء وكان النظام الاقتصادي القبلي، نظاماً عقيماً لا يأتي لأهله حتى بأقل ما يطمحون إليه في حياتهم من السعادة والاستقرار، ففي القرن السادس الميلادي (قبيل الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم) كانت البشرية تجتاز أحط أدوار تاريخها من جميع النواحي، من حيث الاعتقادات والتصورات للنظم الاجتماعية والاقتصادية، والقوانين الوضعية التي يسودها الظلم والطغيان.

ففي جزيرة العرب، كانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى خالق الكون ومدبره بيده ملكوت السموات والأرض، ولقد قال عنهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: " ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

(١) سورة لقمان: آية رقم (٢٥).

لكنهم ـ رغم ذلك ـ كانوا يشركون بالله، وكان لكل قبيلة صنم، ومن الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية فقد أصابهما ما أصاب العقيدة من خلل وظلم، ومن الناحية الأخلاقية فقد كان شرب الخمر واسع الانتشار، وكان الربا فاشياً في مجتمعهم، والزنا غير مستنكر، ووأد البنات كان سائداً لديهم والعصبية القبلية، التي كانت متحكمة في حياتهم تتمثل في نصرتهم لبعضهم على حق أو باطل (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) (٢).

وفي بلاد الروم لم يكن الحال أفضل، بل كان أسوأ من ذلك فقد أصبحت الديانة المسيحية المحرفة مزيجاً من الخرافات اليونانية والرومانية، وأصبح العدل يباع ويشترى، والخيانة والرشوة وقتل النفس متفشية بينهم وأخذ حقوق الفلاحين كما حصل مع الأفصال في نظام الإقطاع الأوربي الذي سأقوم بدراسته، هكذا كانت حالة الأمم في القرنين السادس والسابع الميلاديين فساد في الاعتقاد والتصور، انحطاط أخلاقي اجتماعي، وإقتصادي يمكن القول بأنه كان يسود العالم آنذاك الفساد الشامل في كل نواحي الحياة.

ولما أراد الله سبحانه وتعالى الخير للإنسانية أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، وأخرجهم من الظلمات إلى النور الذي يتمثل في الإسلام فجاهد ﷺ في الله حق الجهاد هو وأصحابه ﷺ أجمعين، حتى انتشر الإسلام، وعم العدل في أجزاء كبيرة في المعمورة وقد تم ذلك في فترة وجيزة.

إن دراسة التاريخ الإسلامي اليوم بشكل كامل أصبحت في منتهى الصعوبة فوضع تلك الدراسة، في كتاب واحد غير ممكن، نظراً لأنها تجمع كافة نواحي المعرفة التاريخية والجغرافية والاقتصادية والحضارية، ولذا فإن علم التاريخ أصبح كالعلوم الأخرى له تخصصات في مجالات كثيرة: منها تخصص في دراسة فترة زمنية معينه أو

(٢) يوسف خليل: حركة التجديد في الأدب العربي - القاهرة- دار الثقافة للطباعة والنشر - الطبعة الأولى (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) ص ٢١.

دراسة دولة بعينها أو دراسة ناحية خاصة كالحضارة أو الاقتصاد، أو الأحداث السياسية، أو الإقطاع، ونحن في بحثنا هذا بصدد دراسة شاملة عن الإقطاع النبوي مع مقارنة محاسنه بمساوئ الإقطاع الجاهلي، والإقطاع الأوربي في العصور الوسطى.

جاءت رسالة آخر الأنبياء محمد ﷺ بمفاهيم صادقة وواقعية وشاملة لكل سبل وطرق ومناهج الحياة تعمل على تحقيق التوازن بين أفراد المجتمع الإسلامي وبذلك يعيش المجتمع حياة متوازنة ومستقرة، وسجلت سيرته ﷺ على أنصع الصفحات وأنقاها، فكانت أعماله مرصعة بسيرة جليلة وأعمال عظيمة، وسرايا وغزوات وفتوح وقد فتح أمام صحابته كل آفاق الحياة الناجحة، ومنها: التخطيط المتعلق بإنشاء الدول واستقرار المجتمعات وإقامة الحضارات، وبناء النفوس وسيادة العدل وإقرار الحق ومحاربة كل خلل يؤدي إلى الفوضى والفساد، وأعطى لصحابته.... كل ما يملك من خطط لإيجاد حياة ناجحة للمسلمين فقام بالتخطيط لإنشاء أول دولة إسلامية يقودها ﷺ، برعاية وتأييد من الله سبحانه وتعالى، فكان القائد السياسي والعسكري والموجه والمخطط والمعلم للمسلمين في كل متطلبات حياتهم.

١ - أهمية البحث ومنهجه:

بدأت في كتابة هذا البحث لأسباب عديدة، كان من أهمها: علاقة الموضوع الرئيسي بالإقطاع النبوي، ولما لذلك من علاقة مباشرة معه ﷺ، وسبب آخر هو عدم وجود دراسات منهجية مستقلة، تتحدث عن الإقطاع النبوي بطريقة واضحة المعالم، ما عدا ما سجل منها في كتب الأحاديث والفقه وبعض كتب التاريخ، والتي كانت تتحدث عن الإقطاعات النبوية في أماكن متفرقة ومختلفة، ومن الأسباب - أيضاً - دراسة وتوضيح طريقته ﷺ في إقطاع الأفراد والقبائل، داخل جزيرة العرب وخارجها، وما عم من منافع للمسلمين بسبب تشريع ذلك النظام، وتوضيح المواد

التي كان يقطعها سواء كانت إقطاع تمليك أو إقطاع استغلال، والمواد التي جعل المسلمين فيها شركاء، وإن أقطعها فيكون إقطاع استغلال، وأيضا" لدراسة أهمية الإقطاعات النبوية في وضع المعالم الأساسية للاقتصاد الإسلامي، وأخيراً عمل دراسة مقارنة لذلك النظام الإقطاعي التشريعي النبوي الذي سنه ﷺ ، ودراسة محاسنه وما يقابل ذلك من مساوىء كان الإقطاع الجاهلي والإقطاع الأوربي في العصور الوسطى يرزح تحتها مع أيضاح نقاط الخلاف، ويكون ذلك مرجعاً للأجيال القادمة لمعرفة تلك الفوارق، ومن الأسباب الأخرى، أن هذا التشريع قد تناسته فئات كثيرة من الأمة وابتعدت عن العمل بنهجه، والسير عليه وفق ما كان عليه في العصر النبوي، وأخذ في الزوال، أو أخذ يختط طرقاً غير سليمة وهذا في غير صالح الأمة فالتناسي والبعد عن المنهج إذ أن صلاح الأمة يقتضي الالتزام والعمل بالنهج النبوي الكريم، وذلك لشحذ الهمم والتذكير بمحاسنه وإيجابياته حتى تعود الأمة إلى ذلك النهج النبوي الكريم ومن هنا أجد أن لهذا البحث أهمية خاصة.

أما عن الطريقة التي انتهجتها في دراسة هذا البحث، فقد كانت تقابلني صعوبات كثيرة، ومنها: أنني أتطرق في هذا البحث لثلاثة جوانب تاريخية واقتصادية واجتماعية ذات أبعاد مختلفة، فمن ناحية بدأت بدراسة للتاريخ الجاهلي للوصول للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والإقطاع في ذلك العصر وهذا تطلب مني العودة إلى العديد من الأصول والمراجع للوصول للهدف، أما الإقطاع النبوي فقد وجدته في بعض أمهات كتب الأحاديث والفقه والتاريخ وبعض كتب الخراج والأموال، توجد في أماكن متباعدة، وكل حسب دراسته، أما عن الإقطاع الأوربي فقد ذهبت لبعض الكتب الأجنبية المعربة، وبعض كتب مؤرخينا في العصور الوسطى، كي أستطيع الإلمام والمقارنة، وكنت أتناول بالدراسة الكتب كاملة كي أتمكن من العثور على بعض من الإقطاعات في تلك الفترات المختلفة، فكان التنقيب والبحث عن تلك المصادر والمراجع، ودراستها قد أخذ مني فترة طويلة قبل البدء في ترتيب أوراق البحث

وتنظيمها بالصورة التي وصلت إليها.

إن أول ما بدأت به هو دراسة عامة وشاملة لكتب التاريخ التي تتحدث بإسهاب عن العصر الجاهلي والعصر النبوي، ثم العصور الوسطى الأوربية وقد جمعت منها معلومات هامة، تخص البحث، فكانت تلك الحصيلة من المعلومات لتلك الفترات التاريخية المختلفة جمعت منها مادة البحث، لعمل المقارنة المطلوبة، ووضعت مخططاً لكتابة هذا البحث وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

٢ - فصول و عناصر البحث:

سوف أبدأ بالحديث بإيجاز عن فصول هذا البحث الذي يتكون من خمسة فصول: كان **الفصل الأول** تحت عنوان **نظام الإقطاع في العصر الجاهلي**، يشتمل على عدة مواضيع وأبحاث، منها دراسة للوضع الاجتماعي والاقتصادي في ذلك العصر، بدأت بتعريف المعنى العام للإقطاع، وتحدثت عن الفترة الزمنية للعصر الجاهلي، والقبيلة ووضعها اجتماعياً واقتصادياً، والطبقات التي يتكون منها المجتمع الجاهلي، ثم تحدثت عن الحمى في الجاهلية كان ذلك عن المجتمع المتنقل ثم انتقلت لأخذ نموذج مستقر، فتحدثت عن (مملكة الحيرة) نشأتها وبعض ملوكها، وعن علاقتها مع كل من الغساسنة والرومان وأثر ذلك على وضعها الاقتصادي وتأثيراته على إقطاعاتها المختلفة.

انتقلت في **الفصل الثاني** للحديث **عن الحالة الاقتصادية في بلاد الحجاز قبيل البعثة النبوية**، وبدأت بالحديث عن أهمية موقع جزيرة العرب، وبلاد الحجاز جغرافياً واقتصادياً مع دراسة الموقع والمناخ والسكان ونشاطهم، وما لهذه المنطقة من أهمية دينية واقتصادية، ثم تحدثت بشيء من التفصيل عن مدينتي الرسول ﷺ، مكة

المكرمة مهبط الوحي والمدينة المنورة دار الهجرة، ومقر ومنشأ أول دولة إسلامية، فتحدثت عن نشأة كلتا المدينتين وحالتهما الاقتصادية ونشاط سكانهما ثم انتقلت لدراسة الوضع الاقتصادي لكل من المسلمين والمشركين في بداية الدعوة، واختتمت هذا الفصل بدراسة الأسس التي وضعها النبي ﷺ لتكوين أول دولة إسلامية في المدينة المنورة.

أما الفصل الثالث فقد كان **عن الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي** بادئاً بدراسة العوامل التي دفعت بالرسول ﷺ لتشريع النظام الإقطاعي في الإسلام وذكرت أهمها: كالعامل الديني والاقتصادي والاجتماعي، والحربي، والفني ثم انتقلت لدراسة وتحليل أنواع الإقطاعات التي أقطعها ﷺ، وكانت متنوعة، وكثيرة، أهمها إقطاعاته في الأرض البور لإستصلاحها وإستثمارها، ثم أقطع أيضاً" في الأراضي العامرة، كما حصل في خيبر وبني النضير، وقد حاولت إبراز إقطاعاته ﷺ في كل من مكة وفي المدينة المنورة حيث أقطع أرضاً للأفراد والقبائل.

وعرفت الهدف العظيم الذي تحقق من هذه الإقطاعات، ثم انتقلت للحديث عن إقطاعاته ﷺ في المساكن، المراعي، المعادن، المياه، والطرق الخاصة التي كان ينتقي بها الإقطاع للمقطع والهدف من ذلك ثم تحدثت بصورة شاملة عن الأهداف التي حققها ذلك الإقطاع، وما تم جنيه من فوائد عظيمة للفرد والمجتمع والدولة.

وخصصت **الفصل الرابع للإقطاع الأوربي في العصور الوسطى** فتناولت العوامل التي ساعدت على ظهور ونشأة هذا الإقطاع في ظل مجتمع متعدد الطبقات المتناحرة وتحدثت عن أركان هذا المجتمع، وكيف كانت أحواله في ظل هيمنة ذلك النظام الظالم، ثم تحدثت عن خصائص النظام الإقطاعي الأوربي والأسباب المباشرة وغير المباشرة التي أدت إلى سقوط ذلك النظام وساعدت على اندثاره.

أما **الفصل الخامس** والأخير، فأردت أن أجمع فيه ما بين الفصول السابقة من مقارنات، ومدارسات بين الأنظمة الإقطاعية المتواجدة في فترة زمنية متقاربة، وهي النظام الإقطاعي (**الجاهلي، النبوي والأوربي**)، فشمل هذا الفصل دراسة للمقارنة بين الإقطاع النبوي والإقطاع الجاهلي، في بحث مستقل، ثم أخذت بدراسة المميزات التي يقوم عليها النظام الإقطاعي الإسلامي في العصر النبوي، وما يقابلها من مساوئ للنظام الإقطاعي الأوربي في العصور الوسطى، ومقارنة لأسباب قيام كل من النظامين، ثم الأثر الإيجابي للإقطاع النبوي على المجتمع الإسلامي، والأثر السلبي للإقطاع الأوربي على المجتمع الأوربي، وعناصره التي يتكون منها، ثم المساوئ التي انفرد بها الإقطاع الأوربي آنذاك، والتي كان يدفع ثمنها الفلاح ثم تحدثت عن الأسس التي تم بها الإقطاع في النظامين النبوي والأوربي.

٣- دراسة المصادر والمراجع:

لقد اعتمدت على العديد من المصادر والمراجع في إعداد هذا البحث غير أنني سوف أتطرق إلى أكثرها قيمة من الناحية التاريخية بشكل أساسي للإقطاع النبوي والإقطاعات الأخرى، فمن أهم تلك المصادر كتاب "**الطبقات الكبرى**" لابن سعد (ت: ٢٣٠هـ/٨٤٥م)، حيث صحب شيخة الواقدي زماناً طويلاً، فكتب له وروى عنه، وعرف بكاتب الواقدي، لقد استفاد العديد من المؤرخين من هذه الطبقات، مثل ابن عساكر في كتابه "**تاريخ دمشق**" والذهبي "**تاريخ الإسلام**"، وابن حجر في كتابه "**الإصابة في تمييز الصحابة**"، وتتألف الطبقات من ثمانية مجلدات وفهرس، ويعتبر من أهم الكتب التي سجلت السيرة النبوية، والمغازي والتي استوعبت المجلدين الأول والثاني، وسير الصحابة في باقي المجلدات، وقد سجل في المجلد الأول العديد من إقطاعات النبي ﷺ لصحابته ولوفود القبائل، فقد انفرد عن غيره من المؤرخين

بتسجيل وثائق الإقطاعات النبوية بطريقة واضحة، وبذلك زودنا بتلك الأسس عن الإقطاعات وكان ابن سعد يتوخى الدقة في معظم كتاباته.

وقبل أن أترك ابن سعد أتوجه لأحد أعظم تلامذته، وهو أحمد بن يحيى ابن جابر البلاذري (ت: ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فقد كان له مؤلفان مشهوران "**أنساب الأشراف**، **وفتوح البلدان**" فكتابه الأول ظهرت عليه بوضوح مادة ابن سعد في طبقاته الكبرى ويعتبر صورة أخرى من طبقات ابن سعد، حيث حظي الجزء الأول منه بالحديث عن حياة الرسول ﷺ في المدينة، أما كتابه "فتوح البلدان" والذي استفدت منه الكثير في بحثي هذا، فقد تميز بنقل العديد من نصوص العهود والمعاهدات والوثائق والكتب، والإقطاعات التي كان يكتبها النبي ﷺ للمعاهدين، ويقطعها للمسلمين، والتي كانت توثق بختمة "محمد رسول الله" وتدل طريقته في الكتابة على أنه ينتقي مادته بصورة متزنة، وصادقة للأحداث فقد أمدني بالعديد من إقطاعاته ﷺ، حينما تحدثت عن الفتوحات النبوية للمقاطعات والأقاليم، وقال المسعودي في كتابه "**مروج الذهب ومعادن الجوهر**"، "لا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه" (٣).

أما عن أبي الحسن علي بن الحسن المسعودي (ت: ٣٤٦هـ/٩٥٧م) فلا أنس كتابه السابق الذكر "**مروج الذهب ومعادن الجوهر**" حيث تحدث فيه عن الروم والفرس والعرب، هذا العالم المؤرخ والرحالة، الذي كان يسوق الأحداث مختصرة وبدون إسناد ويعزو ذلك إلى من نقل عنهم أمثال: الواقدي وأبي عبيد بن القاسم بن سلام، إلا أنه فيما يختص بالسيرة النبوية كان ينقل رواياته بالأسانيد، فقد تحدث عن تلك الأمم، جامعاً في مؤلفه الحقائق التاريخية والجغرافية، وقال عنه ابن النديم: "المسعودي من أهل المغرب، من ولد الصحابي المشهور عبد الله بن مسعود رضي الله عنه" (٤)

(٣) المسعودي: علي بن الحسين (ت: ٣٤٥هـ/٩٥٦م) مروج الذهب ومعادن الجوهر (أربعة أجزاء) تحقيق وتعليق: الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، الطبعة الأولى - بيروت - دار القلم: (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ١٥.

(٤) (ابن) النديم: الفهرست، تعليق: الشيخ إبراهيم رمضان - دار التوى بيروت - دار المعرفة - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص ١٨٨.

نشأ في بغداد ورحل في معظم البلدان الإسلامية، وكتب واستقصى ويمتاز باختصار المواضيع واختيارها مع دقته في رصد المعلومات.

ومن كتب السيرة التي استفدت منها "**سيرة إبن هشام**" وهو عبد الملك بن هشام ابن أيوب الحميري (ت: ٢١٣هـ/٨٢٧م) مؤرخ مشهور، وقد روى سيرته المعروفة عن إبن إسحاق بعد أن هذبها، وزاد عليها، والتي أصبحت ذات أهمية بالنسبة للمؤرخين وكتاب السيرة، لما فيها من دقة ووضوح، أما عن كتب الفقه التي استعنت بها في هذا البحث فقد كان من أهمها كتاب "**الخراج**" **لأبي يوسف**: يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت:١٨٢هـ/٧٩٧م) صاحب أبي حنيفة وتلميذه، تولى القضاء في عهد كل من المهدي والهادي وهارون الرشيد، وأصبح قاضي القضاة، وقد ألف للرشيد، "كتاب الخراج" المشهور، تحدث فيه عن الأموال والإقطاعات وخلافها (٥) وكتاب **الخراج ليحيى ابن آدم القرشي** (ت: ٢٠٣هـ/٨١٨م) ولهذا الكتاب أهمية واضحة عن الخراج.

وكتاب "**الأموال**" **لأبي عبد القاسم بن سلام** (ت: ٢٢٤هـ/٨٣٨م) ذكر فيه الكثير من أعمال الرسول ﷺ، وتنظيماته في الأمور المالية والخراج والعشور والجزية والغنائم وعن الأراضي وإقطاعها والأموال واستغلالها.

وكذلك لا أنس كتاب **الأحكام السلطانية للماوردي** (ت: ٤٥٠هـ/١٠٥٧م) وهو من أوسع الكتب التي تحدثت عن الأموال والخراج أيضاً.

ومن المصادر التاريخية والجغرافية والتي استفدت منها كتاب "**معجم البلدان**" لياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ /١٢٢٨م) والذي يحتوي على معلومات تاريخية وجغرافية واقتصادية هامة، فقد أسهب الحديث عن مدينتي الرسول ﷺ مكة المكرمة والمدينة المنورة وكذلك الحيرة، فيما قبل وبعد الإسلام، وأيضا "كتاب "**معجم ما استعجم**" **للبكري** (ت: ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) حيث تضمن هذا المعجم الكثير من البلاد

(٥) نفس المصدر السابق - ص ٢٥٢.

والمواضيع والمدن والقرى، واعتمد عليه الكثير من علماء المسلمين في تحقيق ما استعصى عليهم من بعض الأمور الخاصة بالمدن والمواقع فاستفاد منه صاحب **القاموس المحيط** - الفيروز أبادي (ت: ٨١٨هـ / ١٤١٥م) والزبيدي في **تاج العروس** وخلافهما.

كذلك كتاب " **وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى** " **للسمهودي** (ت: ٩١١هـ/١٥٠٦م) والذي أسهب فيه بالحديث عن المدينة المنورة قبل وبعد الإسلام، ولم يترك أمراً إلا وتحدث عنه فقد أمدني بمعلومات تاريخية وجغرافية واقتصادية واسعة عن تاريخ المدينة المنورة، ومعالمها السكانية والجغرافية والإدارية، ومن ذلك لاحظت الظروف المناسبة التي ساعدت على قيام وتطور الدولة الإسلامية الأولى بقيادته ﷺ .

وبعد أن تحدثت عن تلك المصادر بإيجاز واختصار أتحدث الآن عن بعض المراجع الإسلامية والعربية والأجنبية التي استفدت منها في هذا البحث ومنها كتاب "**مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة** " للعلامة الهندي محمد حميد الله الحيدر أبادي، والذي قام بجمع كل الوثائق والكتب والإقطاعات النبوية بطريقة صحيحة وسهلة وواضحة، بين دفتي مجلد واحد، جمعها ورتبها من أمهات كتب الفقه والحديث والتاريخ، فكانت ذات فوائد كبيرة، والكتاب الآخر هو "الموسوعة التاريخية لكتاب " **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** " **للعلامة العراقي جواد علي**، حيث كتب بإسهاب وتفصيل عن نشأة تاريخ العرب قبل الإسلام متحدثاً عن نشأة وتكوين بعض الدول والإمارات في ذلك الوقت، وتحدث فيه عن جميع النواحي الخاصة بالدولة والإنسان وحياته، فكل ما تريد عن تلك الفترة تجدها في هذه المجلدات، وأيضا "كتاب " **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** " تأليف أحمد إبراهيم شريف، وكتاب "**تاريخ الدولة العربية منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية**" تأليف: السيد عبد العزيز سالم، فهذان الكتابان تحدثا عن شبه

الجزيرة والدولة العربية قبل وبعد الإسلام.

وعن الإقطاع الأوربي: استفدت من مؤلفات سعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه "**أوربا في العصور الوسطى**" بجزئيه السياسي والحضاري، جوزيف يوسف في كتابه "**تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها**" فلهذين الكتابين الفضل الكبير في إستقاء المعلومات عن الإقطاع الأوربي في العصور الوسطى، أما كتاب "**الإقطاع في العصور الوسطى في غرب أوربا**" تأليف الأستاذين: ج.و.. كوبلاند، ب. فينوجرا دوف، فقد تحدث فيه المؤلفان عن النظام الإقطاعي في العصور الوسطى بكل وضوح واختصار والذي قام على ترجمته: محمد مصطفى زيادة، وكان هذا المؤلف بمثابة الدليل الواضح عن الإقطاع الأوربي في العصور الوسطى وأسباب قيامه، ومعالمه ومساوئه، وإندثاره.

هذه بعض المصادر والمراجع، وقد استعنت بالعديد حيث سأقوم برصدها في نهاية هذا البحث إن شاء الله تعالى.

الله ولي التوفيق

الفصل الأول

نظام الإقطاع في العصر الجاهلي

الفصل الأول

نظام الإقطاع في العصر الجاهلي

أولاً: الوضع الاجتماعي والاقتصادي في العصر الجاهلي.

١. تعريف الإقطاع لغوياً.

٢. القبيلة ووضعها الاجتماعي والاقتصادي.

٣. الحمى في الجاهلية.

ثانياً: الإقطاع الجاهلي في مملكة الحيرة:

١. نشأتها - موقعها - سكانها.

٢. ملوكها والوضع السياسي.

٣. علاقتها مع كل من:- الغساسنة والفرس والرومان وأثر ذلك على الوضع الاقتصادي.

٤. الوضع الاقتصادي في مملكة الحيرة.

٥. الإقطاع في مملكة الحيرة.

أولاً: الوضع الاجتماعي والاقتصادي في العصر الجاهلي:

لقد كان العرب في جاهليتهم يعيشون قبائل متفرقة متنازعة أحياناً ومترابطة في قليل من الأحيان، وكانوا يعيشون نمطين للحياة البدوية القبلية المترامية والمتباعدة هنا وهناك، على شكل قبائل متنافرة متنقلة حول منابت العشب والكلأ، ومنابع الماء ومساقط الأمطار، وكان لهم نمطهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي الخاص بهم، ومن هنا أردنا الدراسة القبلية من نواحي متفرقة ومختلفة، من تلك النواحي التي أثرت على حياتهم، ونظامهم الاقتصادي القبلي وسنتطرق للحديث عن نظام الحمى القبلي، وهو بمثابة الإقطاع الجاهلي وسوف نذكر مساوئه ومحاسنه.

ونتعرض لدراسة النمط الثاني وهو النمط القبلي المستقر في المدن والممالك وانتقينا منه إمارة (مملكة الحيرة) لدراستها من حيث:-

نشأتها، واسمها، وسكانها، وملوكها وزمنهم التاريخي مع سني حكمهم وعلاقتهم مع كل من الفرس والبيزنطيين والغساسنة والقبائل العربية الأخرى ونظمهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية موضحين بعض الإقطاعات التي امتاز بها النظام الاقتصادي الحيري.

١- تعريف الإقطاع لغوياً:

أصلها قطع وهو ماضي الفعل يقطع، وقطع الشيء تقطعه قطعاً، وقطع النهر عبره، وقَطَع رحمه، أي لا يصل رحمه، والقطعة من الشيء، الطائفة منه، والقطيع الطائفة من البقر أو الغنم، والجمع أقاطيع وإقطاع وقطعان وتقطعوا أمرهم بينهم أي تقسموه، وأقطعه قطيعة أي طائفة من الأرض، والقطعة من الشيء، الطائفة منه، وقطاع الطريق: الذين يعترضون أبناء السبيل فيقطعون بهم السبيل، والقطع طائفة من الليل وانقطع الشيء، ذهب وقته، وأقطعني إياها، أذن لي في اقتطاعها،

والإقطاع، يكون تمليكاً وغير تمليك واسم الشيء المقطع، قطعة وتعني كلمة الإقطاع لغوياً، أعطى، منح، وهب، أباح وكل لفظ من هذه الألفاظ يعطي معنى الهبة والإقطاع مأخوذ من أقطع يقطع أي أعطى قطعة وأقطعه قطيعة أي طائفة من الأرض، فالإقطاع هو ما يخص به الإمام أو السيد بعض الرعية ممن يراه أهلاً لذلك من مال أو أرض، وأكثر ما يستعمل في الأرض إما بأن يجعل له رقبتها، وإما بأن يجعل له غلتها (١).

العصر الجاهلي:

من المعروف لغوياً أن الجهل: هو نقيض العلم، ولقد سمي العصر الجاهلي بهذا الاسم لما شاع فيه من الجهل، وهي الحالة التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه وتعالى، ورسوله ﷺ، وشرائع الدين، وما كان بهم من صفات المفاخرة والأحساب والكبر والتجبر وما إلى ذلك من صفات الجاهلية.

وما تعنيه كلمة (الجاهلية) ليس اشتقاقها من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، إنما هي مشتقة من الجهل الذي هو بمعنى السفه والغضب والحميّة، وهي تقابل كلمة (الإسلام) التي تدل على الخضوع والطاعة لله سبحانه وتعالى ونهج رسوله الكريم ﷺ، ونبذ التفاخر بالأحساب والأنساب والكبر وما إلى ذلك من صفات نهى عنها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وقيل - أيضاً - إن الجهل: هو عدم اتباع العلم، ومنه الجهل بالقراءة والكتابة، وقد قسم المؤرخون العصر الجاهلي إلى

---

(١) الرازي: الإمام محمد بن أبي بكر الرازي - مختار الصحاح - مكتبة لبنان - بيروت (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

ابن منظور: أبي الفضل جمال الدين بن منظور - لسان اللسان - تهذيب لسان العرب - الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت - (١٤١٣هـ - ١٩٩٧م) ج/٢ - ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

المصباح المنير: ج٢ ص ٨٥.

صالح العلي الصالح وأمينة الشيخ سليمان الأحمد: المعجم الصافي في اللغة العربية - الطبعة الأولى - الرياض - ص ٥٣٦.

قسمين هما: الجاهلية الأولى والجاهلية الثانية(٢).

أما الجاهلية الأولى فهي التي ولد فيها سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ويقصد بها الفترة، وقيل هي الزمن الفاصل بين رسولين ولم يحدد هؤلاء المؤرخون تلك الفترة، وهي الفترة التي لا إسلام فيها وقد اختلف في المراد بالجاهلية الأولى فقيل هي ما بين آدم ونوح وقيل ما بين نوح عليه السلام وإدريس عليه السلام وقيل ما بين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام وقيل ما بين عيسى عليه السلام ومحمد، وقال المبرد: الجاهلية الأولى هي الجاهلية الجهلاء (٣).

فالجاهلية يقصد بها الأستاذ: سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية أنها حالة اجتماعية معينه يمكن أن توجد في أي زمان وأي مكان فيكون ذلك دليلاً على الجاهلية (٤) فالبعد عن الإسلام جاهلية في أي زمان ومكان ومعرفة الإسلام نور وحق ويقين، وهذا هو المعنى العام للجاهلية، لقد ورد ذكر كلمة الجاهلية ومشتقاتها في القرآن الكريم في آيات كثيرة، في عدة سور، وبمعان متقاربة، وليس هنا مجال لذكر كل الآيات، ولكن سوف نورد بعضها على سبيل المثال: وردت كلمة تجهلون في أربع آيات في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٦).

---

(٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي - دار المعارف - القاهرة - الطبعة التاسعة عشرة (١٤١٦هـ. ١٩٩٦م) ص ٣٨ - ٣٩٠

ابن منظور: لسان اللسان - تهذيب لسان العرب - ج/١ - ص ٢١٣.

سيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية - دار النهضة العربية - بيروت (١٣٩١هـ. ١٩٧١م) ص ١٣.

(٣) الشوكاني: تفسير فتح القدير - ج/٤ - سورة الأحزاب - ص ٢٨٧.

(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن - ج/٥ - ص ٢٨٦٠ - ٢٨٦١.

(٥) سورة الأعراف - آية ١٣٨.

(٦) سورة هود - آية ٢٩.

وفي كلمة يجهلون قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾(٧).

والجاهل وردت في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(٨). أما الجاهلون، وردت في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾.(٩).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾. (١٠).

والجاهلين وردت في ست آيات نذكر منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(١١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾(١٣).

(٧) سورة الأنعام - آية ١١١.
(٨) سورة البقرة - آية ٢٧٣.
(٩) سورة الفرقان - آية ٦٣.
(١٠) سورة الزمر - آية ٦٤.
(١١) سورة ألبقره - آية ٦٧.
(١٢) سورة هود - آية ٤٦.
(١٣) سورة القصص - آية ٥٥.

وأما كلمة الجاهلية فوردت في أربع منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(١٤).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(١٥).

كما أنها أتت في قوله ﷺ في العديد من الأحاديث الشريفة نذكر منها حينما قال لأبي ذر الغفاري عندما عبَّر رجلاً بأمه قال: (إنك امرؤ فيك جاهلية) (١٦).

وقوله: (إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل) (١٧).

وقوله أيضاً: (من قاتل تحت راية عميه لغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقيل قُتِل قتلة جاهلية) (١٨).

إن المقصود بالعصر الجاهلي هو العصر القريب من الإسلام، والسابق له مباشرة بكل ما فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف من موبقات (١٩).

---

(١٤) سورة آل عمران - آية ١٥٤.

(١٥) سورة الفتح - آية ٢٦.

(١٦) مسلم: أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم - إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - ج/٣ - كتاب الأيمان - حديث رقم ١٦٦١ - ص ١٢٨٢.

(١٧) النسائي: ج/٤ - باب الصيام - حديث رقم ٤٢ - ص ١٦٤.

(١٨) أبو داود: باب الأدب - حديث رقم ١١٢.

(١٩) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي - ص ٣٩.

وقد كان أهله يجهلون الإسلام والتوحيد مع أنهم ذووا حضارة عظيمة من حيث الزراعة والصناعة، كما كان ذلك في بلاد اليمن، فالجهل إذن ليس هو الجهل بعدم العلم والمعرفة، بل الجهل هو الابتعاد عن المعرفة التي ترتبط بأواصر الإسلام الصحيح.

٢- القبيلة - ووضعها الاجتماعي والاقتصادي:

لقد عاش الناس في جزيرة العرب في العصر الجاهلي، فريقين هما:

- أهل البادية وهم أكثرية.
- وأهل الحضر وهم أقلية.

فالفريقين نجدهما جميعا" من القبائل، إلا أن هذه القبائل تحَضَّر بعضها وقطن المدن كقبيلة قريش في مكة، وكقبيلة تنوخ ومن عشائرها لخم التي استقرت في الحيرة وكونت مملكة المناذرة والتي سيتم دراستها في قسم آخر من هذا الفصل إن شاء الله، وبذلك أصبحت قريش وتنوخ من الفريق الثاني، حيث استقروا وعملوا في التجارة والزراعة والصناعة.

لقد كان الفريق الأول من قبائل البدو الذين يسكنون البادية وهم كثر كانوا يعيشون حياة الترحال الدائم حول منابت العشب وتوافر الماء ويعتمدون في تغذية ماشيتهم على ما تنبته الأرض في مواسم المطر من الكلأ والمراعي، ويعيشون على ما تنتجه أنعامهم فيأكلون لحومها ويشربون لبنها ويلبسون ما يصنعون من أصوافها وأشعارها وأوبارها وكانوا يحتقرون الحرف المهنية كالزراعة والصناعة والتجارة.

من أهم سمات المجتمع البدوي القبلي وأكثرها بروزاً، أن لدى تلك الفئة من العرب: أخلاقا" كريمة كالصدق والوفاء والنجدة، وحماية الحمى والجرأة والشجاعة

والعفاف واحترام الجار، أيضا" الكرم وما به من صفات للسخاء وإكرام الضيف، وما أن جاء الإسلام حتى تمم هذه الأخلاق وفي ذلك قال ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (٢٠)، ولهم - أيضاً - عادات ذميمة مثل: الغزو والنهب والسلب حيث كانت القبائل تغير على بعضها البعض ظلماً ولأتفه الأسباب كخلاف على ماء أو مرعى أو سباق، ومن تلك العادات العصبية القبلية والتي جعلت شعارهم دائماً: (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فالرجل مع قبيلته ضالة أم راشدة.

كان العرب في العصر الجاهلي ذوو معرفة واهتمام بعلم الأنساب إذ كان النسب هو وسيلة التعريف بالفرد في مجتمع تعددت فيه الطبقات، حيث قسموا أنفسهم إلى طبقات منها:

١- طبقة العرب الأحرار، الصرحاء: وأولئك أبناء القبيلة ويجمع بينهم الدم والنسب.

٢- طبقة الموالي: الذين انضموا إلى القبيلة من العرب الأحرار من غير أبنائها عن طريق الجوار أو الحلف أو العتق.

٣- طبقة العبيد (الأرقاء): وهم الذين أسروا في الحروب المتعددة بين القبائل والمجلوبين عن طريق الإغارة على القوافل أو الشراء بالرق.

٤- طبقة الصعاليك (الطرداء): وهم الخلعاء ويتخذون النهب وقطع الطريق نهجاً لهم (٢١).

وبقدوم الإسلام تم القضاء على هذه الطبقات وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ

---

(٢٠) الموطأ: مالك - باب حسن الخلق - حديث رقم ٨.

(٢١) مصطفى الهمشري: النظام الاقتصادي في الإسلام - الطبعة الأولى - دار العلوم - القاهرة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ص ٤٢ - ٧٠.

اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢٢) وفي قوله ﷺ: (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) (٢٣) ومن اهتمام العرب بعلم الأنساب - أيضا" - قام علماء الأنساب بترتيب قبائل العرب على مراتب أو طبقات على النحو الأتي:-

الشعب، القبيلة، العمارة، البطن، الفخذ ثم الفصيلة ومن هذا الترتيب يهمنا دراسة القبيلة من معظم نواحيها ويجب أن نتعرف على القبيلة من الناس: هم أبناء أب واحد تؤمن بوجود رابطة تجمعهم على أساس: وحدة الدم ووحدة الجماعة ووحدة النسب الذي يرجع إلى الجد الأعلى، وأساس كيانها السياسي الوحدة العصبية والمنافع المتبادلة، كحماية الأرض، ودفع العدوان، والدفاع عن شيخ القبيلة.

وهي المجتمع الأكبر بالنسبة لأهل البادية، وفي ظل تلك الروابط نشأ النظام والقانون القبلي الذي ينظم العلاقة بين الفرد والجماعة على أساس التضامن بينهما في الحقوق والواجبات وهي تسير تبعاً لرأي سيدها سلماً وحرباً حيث له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لأي ديكتاتور (٢٤).

يوجد في بعض القبائل ما يسمى (بمشيخة القبيلة) وهو عبارة عن مجلس يتكون من أصحاب الرأي في القبيلة يحّدون من سيطرة شيخ القبيلة ومن أهم رجال المشيخة بعد الشيخ أو السيد يكون شاعر القبيلة وحينما تقوم المنافسة في السيادة بين أبناء القبيلة الواحدة تدعوهم إلى المصانعة بالناس من إكرام الضيف، وإظهار الشجاعة، والحلم والكرم حتى يصلوا إلى ما يريدون من الناس، ويصلون إلى شيخ القبيلة وسيدها

---

(٢٢) سورة الحجرات - آية ١٣.

(٢٣) ابن حنبل: مسند احمد بن حنبل - ج/٥ - ص ٤١١.

(٢٤) الألوسي - محمود شكري الالوسي (البغدادي) - بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٣١٤هـ.١٨٩٤م) ج/٣ - ص١٨٨.

ابن منظور: لسان اللسان - تهذيب لسان العرب - ج/٢ - ص ٣٥١ - ٣٥٢.

جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الطبعة الثانية (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) ج/١ - ص٥٠٩ احمد الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول دار الفكر العربي - القاهرة (١٤٠٥هـ.١٩٨٥م) ص ٣٧.

الذي يجب أن تتوافر فيه صفات من أبرزها : الشجاعة والجود والغيرة وسعة الثروة وسداد الرأي وكمال التجربة وكبر السن ويكون من أقوى وأعظم بطون القبيلة شرفاً ، وأكثرها عصبية وحنكة وحكمة ويقود القبيلة في حروبها ويقسم غنائمها ويعقد الصلح والمحالفات ويقيم الضيافات ويحظى بمكانة سياسية وإداريه واجتماعية في قبيلته وله السلطة الكاملة على أتباعه وأفراد قبيلته (٢٥) كما ورد ذلك في قوله سبحانه وتعالى :﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾(٢٦).

وكان لسادة ورؤساء القبائل امتيازا" خاصا" فكانوا يأخذون من الغنيمة المرباع والصفي والنشيطة والفضول وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي عبد الله بن عنمة الضبّي:

لك المرباع منها والصفايا		وحكمك والنشيطة والفضول (٢٧).

وكان الشاعر يأتي بعد شيخ القبيلة مباشرة في مكانته ، فقد كان يقوم بدور عظيم فهو حكيم القوم ومرشدهم وخطيبهم والمتحدث باسمهم ومؤرخهم فكان للسانه أيام الاقتتال بين القبائل أهميه لا تقل خطراً عن بسالة الأبطال المقاتلين في حمى المعركة وكانت خطبه الحماسية أيام السلم تؤجج نفوس سامعيه من أبناء القبيلة وكان يعرف أخبار القبيلة وأنسابها وحقوقها في الحمى والمرعى (٢٨).

(٢٥) شوقي ضيف :تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي - ص٦-٥٩.
مصطفى الهمشري :النظام الاقتصادي في الإسلام - ص ٧٣.

(٢٦) سورة الأحزاب - آية ٦٧.

(٢٧) الشيخ صفي الدين المباركفوري :الرحيق المختوم - المكتبة العصرية - الطبعة الأولى (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) ص ٢٥-٢٦.
سيد عبد العزيز سالم :تاريخ العرب في عصر الجاهلية - ص٤٥
جواد علي :ج/٥ - ص ٢٦٦ - ٢٦٧ (أخذت منه ومن كتاب أيام العرب في الجاهلية - سبق ذكره معاني الكلمات في بيت الشعر).
المرباع: ربع غنائم الحرب - ومنها الرباعة بمعنى الرئاسة أي سيد قومه.
الصفايا: ما يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة من فرس وسلاح أوجاريه
النشيطه: ما يغنمه الجند في طريقهم قبل بلوغ المواضع التي قصدوها.
الفضول: هو حق لرئيس القبيلة وهو ما عُجز عن تقسيمه لقلته فيصبح له.

(٢٨) فيليب حتى :تاريخ العرب - دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الثامنة (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) ص ١٣٩.

٣- الحمى في الجاهلية:

تعتبر الأرض في العصر الجاهلي حقاً مشاعاً لا تعود ملكيته لأحد، إلى أن أصبح الرعي، وأخذت القبائل في التنقل للبحث عن مصادر أساسيه لمعيشة أبنائها وأنعامها. فأخذت تفرض سيادتها على بعض الأراضي التي ترعاها ماشيتها، وتضرب العلامات والإشارات لتحدد حدود حماها، ومن هنا نشأ حمى الجاهلية، وهو الإقطاع الجاهلي في نفس الوقت، والآن بوسعنا أن نعرف الحمى في الجاهلية.

الحمى لغوياً:

الحمى هو المنع وهو مصدر حمى يحمي حمي فتقول: حميت المكان حماية: منعته، وأحميته: جعلته حمى لا يُقرب ولا يُجرأ عليه ويقال: حماه بحمية حماية: دفع عنه، وهذا شيء حمى: أي محظور لا يُقرب، وأحميت المكان جعلته حمى (٢٩).

كان الحمى في الجاهلية وسيلة من وسائل الاستيلاء غير المشروع على الأراضي والمراعي، فقد كان رئيس أو شيخ القبيلة يحمي الخصب من الأرض ولتثبيت ذلك يُحضر كلباً يستعويه، فحيث بلغ صوته حماه، وبذلك لا يجوز لقبيلة أخرى أن ترعى فيه.وهو التملك المتولد من حق الاستيلاء والسيطرة على الأرض بسبب الزعامة والقوة والسلطان والاغتصاب فأصبح الحمى ملكاً لسادات القبائل وزعمائها(٣٠).

في الحمى يرعى رئيس القبيلة مواشيه وحلاله بعدما يضرب عليها العلامات والإشارات مانعاً الغير من الدخول إليها، وإذا دخل ذلك الحمى أي من رجال أو قطعان قبيلة أخرى، قامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين، والتي تمتد لسنوات طويلة أحياناً.

(٢٩) الرازي: محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح - ص ٦٦.

(٣٠) الألوسي: محمود شكري: بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب ج/١ - ص ١٩٩.

جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج/٧ - ص ١٤٩.

ومن هذا التعريف الواضح يظهر لنا كيف كان في ذلك العصر يتسلط القوي على الضعيف وتضيع حقوق الأفراد وتصبح تحت رحمة شيوخهم وعندما جاء الإسلام جعل الأمر في ذلك للإمام المسلم، حيث قال ﷺ: (لا حمى إلا لله ولرسوله) (٣١).

ومن ذلك الحمى تكونت ملكيه القبائل للأرض بإصلاحها، وهذا يكلف كثيراً، فيجب توفر الأموال، والقوه لاستنباط الماء وإعمار الأرض، ومن ثم المحافظه عليها من غارات القبائل الأخرى. ومن تجمع القبائل في هذه الأرض التي أصبحت لهم وقاموا بإحيائها وحماها، تكونت القرى الصغيرة، فتجمع الناس حول الماء، وتوسعت القرى وتعددت ومن ذلك ظهرت الملكيه القروية.

وعندما تزداد عوامل الاستقرار والتجمع - كما حصل في يثرب حيث وديانها وحراتها وأرضها الخصبة، وتوفر الماء، وتجمع الناس وازدادوا وكونوا المدن التي أصبحت ذات تكامل اقتصادي، حيث زرعت أشجار النخيل والأعناب، وحفرت الآبار لري الأراضي البعيدة عن الوديان وأحيائها، وإنشاء الأسواق وبذلك يظهر إعمار المدينة، وتطورها أقتصادياً وحضارياً.

وهكذا ظهرت المدن الأساسية في جزيرة العرب مثلما حصل في يثرب ومكة حيث أصبح التجمع السكاني في المناطق الزراعية والتجارية فامتلك الناس الأراضي، والمنازل الخاصة بهم التي أقيمت عليها، والأسواق والمتاجر التي يعملون بها وهكذا سخر الإنسان جهده وماله وعقله.

وعكس ما ظهر في المدن التي ذكرنا، كان البدو يكرهون الزراعة والحرف الأخرى من التجارة والصناعة وخلافها ويرجع ذلك لأسباب من أهمها:

---

(٣١) العسقلاني: حافظ بن حجر: شرح العلامة الصنعاني صححه وعلق عليه - د/حسين بن قاسم الحسيني: سبل السلام (شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام) - الطبعة الثالثة - مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م) ج/٣ - ص ١١٦.

نشأت كراهيتهم للزراعة بسبب عدم توفر الأرض لكثير من الناس مع قلة نزول الأمطار، والأعرابي من صفاته كرهه لكل شيء لا يملكه، ولا يستطيع الوصول إليه، إلا أن سادات القبائل الذين يملكون إقطاعات كبيرة من الأراضي، وإذا ما توفر الماء والمال، زرعوا أرضهم كالحضر وأهل المدن تماماً وعملوا على تشغيل عبيدهم وأتباعهم في الزراعه، وكانوا ذوي اهتمام كبير بها لما كان فيها من مكسب ومربح، ويغذون القبيلة بما تحتاجه من المتطلبات الزراعية اللازمة للاستهلاك الشخصي، فاستفادوا بها فاهتم زعماء القبائل - أيضاً" - بالزرع والحوائط (٣٢).

وكذلك كان البدو يكرهون الزراعة لما فيها من مساوئ حيث يلزمهم أن يدفعوا لشيخ القبيلة حقوقاً لأرضهم التي استأجروها منه، وكان ذلك فوق طاقتهم، فكان رؤساء القبائل يستعملون العبيد والأجراء على كراء الأرض واستغلالها، أما هم فقد خلقوا سادة لذلك أصبح البدوي يكره الزراعة لما فيها من استعباد له.

أيضا" لم يستطع رؤساء القبائل وبعض المقربين لهم في العصر الجاهلي من أصحاب الإقطاعات من زرع مساحات واسعة بالحبوب أو الخضار والنخيل لعدم توفر المياه وقلة سقوط الأمطار.

وكره زعماء بعض القبائل الصغيره من زراعة ما يملكون من إقطاعات، لعدم توفر الحماية للمزارعين وقلة الأمن، والعبث بحقوقهم، وعدم تقديم المساعده المطلوبة لهم، وكان من الصعب ظهور مزارع كبيرة ذات إنتاج وفير تقوم بدور التصدير (٣٣).

مما سبق نلاحظ كراهية البدوي للزراعة مما أدى إلى ركودها بشكل كبير، وكما وجدنا أن لشيخ القبيلة معظم الأراضي الزراعية فنجده كذلك في المراعي فقد كانت في ذلك العصر على نوعين:

(٣٢) الحوائط: واحد الحيطان - وحَوّط كرمه تحويطاً: بنى حوله حائطاً (الرازي - محمد أبي بكر - مختار الصحاح - ص ٦٨).

(٣٣) جواد علي (المرجع السابق) - ج/٧ - ص ٩٧-١٠٠.

المراعي الخاصة:

والتي تكون ملكاً لشيخ القبيلة ، حيث يفرض سلطانه وحماه عليها ، ولا يسمح لأحد بالرعي فيها غير أتباعه وتصبح تحت حمايته ورعايته.

أما المراعي العامة:

فهي التي يرعى فيها كل أبناء القبيلة لأنها ملكها وتحت حمايتها ورعايتها ، وتبقى الأرض ملكاً للقبيلة طالما استمرت بها ، ولكن إذا ارتحلت القبيلة لمكان آخر وأتت قبيلة أخرى وقطنت بها أصبحت ملكاً للقبيلة الجديدة.

إن للمراعي في حياة البدوي الأعرابي في العصر الجاهلي أثراً كبيراً ، فعلى المراعي تتوقف حياة الماشية والتي هي عماد الثروة والمال لأهل البادية ، والأعرابي دائم التفتيش عن الماء والمراعي وحيثما يجد الكلأ تستقر به الأمور ليرعى ماشيته ، وإن السبب الأساسي لهذا الترحال والتنقل هو قلة توفر الماء في جزيرة العرب وذلك يؤدي إلى قصر موسم الرعي وجفاف الكلأ ويعرض الماشية للهلاك والموت وهذا يجعل القبائل في حالة تنقل مستمر من مكان إلى مكان فتتزاحم وتتقاتل للسيطرة على تلك المراعي (٣٤).

أيام العرب:

بعد تلك اللمحات عن تكوين القبيلة وظروفها الاجتماعية ننتقل الآن لدراسة موضوع آخر وهو الأيام والحروب التي كانت تقوم بين القبائل العربية حيث تعتبر تلك الأيام من المصادر الخصبة للتاريخ الجاهلي لما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث ولما روى فيها وعنها من نثر وشعر وهي مرآة صافية لأحوال العرب وعاداتهم وشأنهم في الحرب والسلم والاجتماع والفرقة والأسر والفداء ويظهر منها فضائلهم وشيمهم

---

(٣٤) نفس المرجع السابق - ص ٩٧-١٠٠.

كالدفاع عن الأرض والمال والعرض والوفاء بالعهد والانتصار للعشيرة والقبيلة وحماية الجار، والصبر في القتال، ولم تخل هذه الأيام والحروب من الأدوار الرئيسية التي كان يقوم بها زعماء القبائل ورؤساء العشائر ودورهم في إدارة تلك الحروب، من توجيه ورأي وإصابة لقد روي كثير عن هذه الأيام وعددها ولكننا لم نصل إلى العدد المتكامل لها، وحيث أنه لا شأن لنا هنا بعدد هذه الأيام إلا أنه يجب أن نوضح أن أكثر ما جاء ذكره وعدده عن أيام العرب هو ما جاء في كتاب الأغاني لأبي فرج الاصفهاني حيث ذكر في كتابه هذا ألفاً وسبعمائة يوم من أيام العرب (٣٥).

- كانت تلك الحروب والأيام تنشأ لأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ونفسية ومنها:

كثرة السكان، وإهانة شخص لآخر أو خلاف على الحمى بين قبيلتين، طمع القبائل القوية في القبائل الضعيفة لتأخذ ما عندها من أرض ورزق.

طمع قبائل أطراف الجزيرة في الحضر وغزوهم لما عندهم من رزق وماء ووسائل عيش رغيدة ولهذا صار لزاماً على الحضر قاطني المدن أن يبنوا الحصون والأطام كما سنلاحظ ذلك في آطام يثرب عند دراستها في الفصل الثاني إن شاء الله، والعلاقات الشخصية من زواج وطلاق وحسد وتنافس، وكانت هذه الأيام تقع في معظم الأحيان بين القبائل ذوات القربى والنسب، ونذكر هنا بعضاً من هذه الأيام:-

((يوم بعاث)) الذي وقع فيه قتال مرير بين قبيلتي الأوس والخزرج في مدينة يثرب قبيل الهجرة النبوية الشريفة لفترة بسيطة.

((ويوم الفجار)) الذي كان بين كل من قريش وبني كنانة من جانب وبين هوازن في الجانب الآخر وسميت بهذا الاسم لوقوعها في الأشهر الحرم ويذكر أن الرسول ﷺ شهد بعضها قبيل النبوة.

(٣٥) الالوسي: محمود شكري الالوسي - بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب ج/٢ - ص ٦٨.

((ويوم داحس والغبراء)) دارت هذه الحرب بين قبيلتين من أصل واحد - جدهما غطفان - هما (عبس وذبيان) وكان سببها السباق الذي جرى بين جوادين هما داحس لعبس وغبراء ذبيان وكاد داحس أن يفوز في هذا السباق فاعترضه رجل من ذبيان فسبقته الغبراء كان ذلك في القرن السادس للميلاد واشتهر في هذا اليوم عنترة ابن شداد شاعراً وفارساً.

وحرب البسوس والتي سوف نتحدث عنها ونأخذها كنموذج لتلك الأيام:

حرب البسوس:

تعتبر من الحروب الهامة في تاريخ العرب تؤخذ كنموذج لأطول وأشهر حرب في تاريخ العرب في العصر الجاهلي فقد دامت لفترة أربعين سنة، حيث نشبت في أواخر القرن الخامس الميلادي وقعت بين قبيلتي بكر وتغلب اللتين ترتبطان بصلة القرابة في جدهما وائل، أصيب كليب بالغرور بعدما انتصر في يوم خزاز (خزازي) وشرفته معد (تغلب) بإسداء التاج والطاعة والسيادة، كان لكليب حمى لا يقربه أحد، ولا يطؤه شخص، وحماه ببعض الوحوش، وابتعد الناس عن حماه هذا لا ترتع إبلهم فيه ولا يوقدون ناراً بجواره، تزوج كليب جليلة بنت مره بن شيبان أخت جسّاس بن مره، نزل سعد بن شميس الجرمي ضيفاً بالبسوس، ترك ناقته (سراب) ترعى مع نوق جساس في حمى كليب، رأى كليب سراباً فأمر جساس بإبعادها عن حماه، ورفض جساس أمر كليب، وأبلغ كليب ما جرى لزوجته جليلة أخت جساس وأخذت في منع زوجها من الذهاب لحماه حتى لا يقع المحظور بينه وبين أخيها ونهت أخاها جساس من الرعي في حمى كليب. عاد كليب لحماه ورأى سراباً فأنفذها برمح، قام جساس برمي كليب برمح من خلفه ورماه قتيلاً، وطردت جليلة من بيت القتيل، كان مهلهل شقيق كليب فاستثار قومه وألقوا على جساس بعض المطالب لإيقاف القتال وهي: إما أحياء كليب، أو تسليمهم جساساً أو هماماً لقتلهما.

ورفضت المطالب وعرضوا عليها ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر، فغضبوا وقامت الحرب، فقسمت الأيام بين بكر وتغلب، وانتهى بتدخل قيس بن شراحيل ابن مرة وقيل تدخل فيها المنذر الثالث ملك الحيرة فعقد صلحاً بين القبيلتين المتحاربتين وتوقفت الحرب بترك مهلهل البادية إلى اليمن وهكذا نشبت هذه الحروب المتعددة بسبب حمى كليب، ذلك الحمى الذي كان له أهمية كبرى في الحياة البدوية في العصر الجاهلي(٣٦).

وكان من نتائجها قتل الشيوخ، النساء، الأطفال وفقدان الضرع والزرع، فظهرت في هذه الحرب روح الجاهلية العربية العقيمة وما كانت تزخر به من عصبيه وحمية، أثارت حمية البدوي الذي التزم بهذه الحروب بأسلوب عنيد، وأنفة وكبرياء، حيث يدافع عن قبيلته محقة كانت أو مخطئة.

عند البحث عن الأسس التي يقوم عليها اقتصاد أية أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، أو قبيلة من القبائل، يجب الوقوف على الطبيعة التي يقوم عليها هذا الشعب أو هذه القبيلة، من ناحيه الأرض والمناخ، فالجو البارد تكثر أمطاره، فتحث صاحبه على العمل في أرضه وبناء اقتصاده، أما الجو الحار الجاف والرطب فتكون أمطاره قليلة، فتجف الأرض، وييبس العشب، وينقطع الطعام، فتحصل الخسائر البشرية والاقتصادية، ويهلك الزرع ويجف الضرع، وهذا ما يحصل في القبائل، وبسبب ذلك تنطلق القبائل القوية للإغارة على القبائل الضعيفة للسيطرة على منابع الماء ومنابت الكلأ، وتزداد الخسائر التي فرضتها ظروف المناخ الحار، بابتداء الغزو والنهب الذي يحصل بين القبائل بعضها البعض، فتصبح الخسائر مضاعفة حيث كانت القبائل العربية تعيش في حروب مستمرة لأبسط الأسباب وأتفه الأمور.

---

(٣٦) محمد أحمد جاد المولى بك وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم: أيام العرب في الجاهلية - المكتبة العصرية - بيروت - بدون تاريخ - ص١٤٢ - ١٥٨.

سيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية - ص٤٣-٤٣٣.

ولإكمال الوضع الاقتصادي في القبيلة العربية نقوم بدراسة حلقة اقتصادية أخرى في ذلك العصر وهي التجارة فقد لاحظنا فيما سبق من هذا الفصل أن حياة القبائل العربية كانت تعتمد على الحروب والغارات ويعتبر العربي آنذاك أن أشرف ما يمكن أن يقوم به هو الدفاع عن النفس والأخذ بالثأر لذلك فهم لا يرون في حرفة ألتجاره شرفاً لهم وكانوا يعيرون قريشاً لأنها قبيلة تعمل بالتجارة وتبتعد عن الحروب خوفاً على تجارتهم التي شغلتهم عن أمور الحرب ولعل احتقار التجارة صار طبع البدوي الذي يعيش معتمداً على سيفه ورمحه.

لقد كان احتقار العرب للتجارة شديداً وقد أزال الإسلام هذا الإحتقار والتخوف وجعل حرفة التجارة من اشرف الحرف وإذا ما التزم التاجر المسلم بتعاليم وآداب الإسلام في ممارسته لهذه الحرفة وجاء في حديث النبي ﷺ في قوله: (التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة) (٣٧) وقال عنها الألوسي بأنها أشرف أسباب المعايش وأعلاها قدراً (٣٨).

إن ما حصل بين القبائل من حروب ومنازعات أدى إلى تفشي الذل بينهم وعمهم الهوان ةكادت أيام حروبهم تقضي عليهم نظراً لطولها وكثرة خسائرها البشرية والاقتصادية حيث أن اقتصادهم كان بسيطاً (كما ذكر سابقاً) لا يتحمل تلك الحروب الضارية فنجد أن حرب الأوس والخزرج في يثرب قد امتدت لأكثر من مائة سنة حتى أوشكت أن تفنيهم كل هذه الحروب قضت على أية انطلاقة لأي نجاح اقتصادي.

مما سبق نلاحظ أن سوء توزيع الثروة في القبيلة العربية في العصر الجاهلي حيث كان سادة القبيلة وزعماؤها يملكون قطعاناً كبيرة من الماشية ولهم الأولوية في استعمال المراعي ومصادر الماء وكانت هذه القطعان تنتج كميات كبيرة من اللبن واللحم والصوف تفيض عن استعمالها... إلا أن الفائض جميعه يباع في الأسواق

(٣٧) ابن ماجه: سنن بن ماجه - باب تجارات - ج/٢ - حديث رقم ٢١٣٩.

(٣٨) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - ج/٣ - ص ٣٨٥.

القربية بالنقد أو بالمقايضة ويحرم من ذلك باقي أفراد القبيلة ، ومن هنا جاء وظهر التفريق بين الفئات التي يتكون منها المجتمع القبلي.

فوجود العبيد (وهم طبقة الغرباء الذين كانوا يعملون في رعي ماشية السادة وضعف دخلهم كذلك ظهور طبقة الصعاليك والذين يتكونون من فقراء القبيلة جعل سادة القبائل ينظرون إليهم لأنهم طبقة خطيرة يجب التخلص منها وهذا يؤدي بهم إلى عدم التورع في القيام بأعمال مشينة ضد القبيلة من نهب وسلب وقتل كي يتدبروا أمر معيشتهم فألفوا عصابات للقيام بتلك الأعمال بجوار منابع المياه والمراعي.

ورغم المهام التي كانت ملقاة على عاتق رئيس القبيلة تجاه أبناء قبيلته إلا أنه كان يعيش حياة مادية متقدمة فخيمته من أكبر الخيام وأجودها نوعا" وأفضلها أثاثا" ومتاعاً وطعامه ولباسه ذو نوعية ممتازة كذلك نصيبه وامتيازاته من الغنائم في كل غزوة تقوم بها القبيلة ، وفي ذلك النصيب يقول الشاعر: عبد الله بن عنمة الضبّي: يخاطب بسطام بن قيس (٣٩):-

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول

وقد أدى كل ذلك إلى ظهور حركة معارضة في المجتمع القبلي البدوي الرعوي برفضهم لتلك الامتيازات والتقاليد التي لا يظهر فيها العدالة والمساواة. وأدى ذلك إلى إضعاف الاقتصاد القبلي الذي يقوم على الرعي والارتحال في طلب الكلأ والماء وقد حالت البراري من تكوين مجتمعات عربية كبيرة فكانت بعثرة الأعراب لفترة طويلة من الزمن على شكل القبائل والعشائر وما كان بينها من غزوات لأسباب تم ذكرها سابقاً وأيضا" حالت البوادي والفيافي بين العرب وبين اقتصاد عربي جاهلي متقدم ومتطور.

(٣٩) بسطام بن قيس: سيد بني شيبان وهي بطن من بكر، قتل في يوم الشقيقة فقام الشاعر عبد الله بن غنمة الضبي - (أخواله بني شيبان) برثاء بسطام بقصيدة منها هذا البيت (أيام العرب في الجاهلية - ص ٣٨٥).

وصار معاشهم ضيقاً وحياتهم الاقتصادية صعبة ومتأخرة فساءت أحوالهم وغلب الفقر عليهم، فتوقف هذا الاقتصاد عن النمو والتقدم، فالاقتصاد واحد وثابت يتراوح بين تربية الإبل والماشية والكلأ والشجيرات الصغيرة، فمنها تعلف الماشية، ومنها يحتطبون لهم ويبيعون جزءاً من ذلك الحطب وبعضاً من الملح للحضر ويعودون حاملين بعض المواد الضرورية كالثياب والتمور والدقيق فهذا الاقتصاد البسيط وكل ما سبق ذكره من عوامل أدت به إلى أن يصبح اقتصاداً بدوياً مهلهلا" ضعيفاً لا يساعد على ظهور رأس مال كبير، هذه بعض سمات ومساوئ النظام الاقتصادي البدوي القبلي في العصر الجاهلي، وبعده ننتقل إلى اقتصاد جاهلي حضري عاش مع مملكة (إمارة) حضرية نشأت على حدود العراق ألا وهي مملكة الحيرة.

ثانياً: الإقطاع الجاهلي في (مملكة الحيرة)

١- (نشأتها، موقعها، سكانها):

الحيرة في اللغة العربية:

هو موضع محاط بالأسوار وهو الحمى أو الحظيرة - وقيل إنها تعني الأرض المخضّرة والمبتلة، وقيل إنها سميت الحيرة من الحوار - أي بياض بُنيانها، وسميت باسم ملوكها فقد كان يُطلق عليها أحياناً حيرة النعمان، حيرة المنذر أي حصنه ومعقله، ومن ناحية أخرى قيل إن أصل كلمة الحيرة هي سريانية وتذكر بإسم حيرتا وحيرتو (HARTA) وحيرة (HIRA) ، وحيرتو السريانية الأصل معناها المخيم أو المعسكر، وعند العرب تعني الحصن.

ويرى الأستاذ يوسف رزق الله غنيمه أن المعنى العربي والمعنى السرياني الأرامي هما من أصل سامي واحد، إذ أن المقصود بالحيرة في كلا المعنيين هو أنها: المعسكر أو الحمى أو المضرب وهذه الكلمات ألفاظ لأصل واحد في المعنى، فيرجع إذن أصل كلمة

الحيرة إلى معنى واحد فكلا الطرفين على صواب (٤٠).

يُرجع المؤرخون والأخباريون نشأة مدينة الحيرة إلى عهد الملك البابلي بختنصر (أو نبوخذ نصر الثاني) في فترة ما قبل الميلاد، ثم أصيبت بالخراب لفترة طويلة من الزمن فيما بين (٦٢٠هـ/٦٠٥ق٠م) ولما مات بختنصر، انضم أهل الحيرة إلى الأنبار، وبقيت الحيرة خراباً لفترة طويلة من الزمن.

بقيت هكذا إلى أن قدم إليها من تهامة تُبّع أسعد أو كرب بن ملكيكرب ماراً بجيوشه في إحدى غزواته صوب خرسان والأنبار وضل دليله، وتحير في أمره وقيل إنه ترك بعضاً من جنده، من تخلف أو ثقل منهم بقيادة مالك بن فهم الأزدي وأخيه عمرو، في نحو اثني عشر الفاً قائلاً لهم: حيروا أو تحيروا هذا الموضع وأقيموا فيه فسمي الحيرة وقيل في رواية أخرى إنه عندما نزل مالك بن فهم جعل هذا المكان حيراً وأقطعه قومه إقطاعات مختلفة وبذلك سميت الحيرة، والملاحظ من دراسة هذا المقطع من تسميته الحيرة أنها أقطعت لقاطنيها، حيث أقطعهم أميرهم، كي يستقروا ويعملوا ويبنوا بيوتاً لهم، ويزرعوا إقطاعاتهم... وهذا يوضح لنا هنا أن الحيرة هي الإقطاع، وأنها أقطعت لسكانها حين نشأتها.

كذلك يتضح لنا أن مالك بن فهم هو أول ملوك العرب الذين أعادوا بناءها بعد أن خَرُبت بعد موت بختنصر وكان مقره ما بين الحيرة والأنبار.

تقع مدينة الحيرة على بعد ثلاثة أميال جنوبي مدينة الكوفة، وتقع بالقرب من مدينة بابل والنجف وهي بمثابة منازل ملوك بني لخم وهم ملوك العرب من قديم

---

(٤٠) أُخذ تعريف الحيرة من المصادر الآتية:- الحموي: الإمام شهاب الدين ياقوت الحموي - معجم البلدان - تحقيق: فريد عبد الغني الجندي -دار الكتب العلمية - بيروت (١٤١٠هـ- ١٩٩٠م) ج/ ٣ - ص ١٧٠.
ابن منظور: لسان اللسان - تهذيب لسان العرب - ج/١ - ص ٣٠٩.
القزويني - أثار البلاد وأخبار العباد - دار بيروت للطباعة والنشر (١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م) ص ١٨٦.
البكري: معجم ما استعجم - ج/٢ - ص ٤٧٩.

الزمان، وتقع على طريق يجتاز جزيرة العرب وأصبحت بحكم موقعها الجغرافي مركزاً اقتصادياً هاماً للقوافل التجارية.

وأما عن سكان هذه المملكة فقد وفدت إليها في أوائل القرن الثالث للميلاد طلائع جديدة من المهاجرين من اليمن، واتخذت لها مساكن في الأماكن الخصبة غرب الفرات، وهم قبائل تنوخ، فاستقرت هذه القبائل في بداية الأمر بالخيام ثم زاد تجمعهم، وكثر نسلهم بهذه المنطقة والتي أصبحت تسمى (الحيرة) وأخذوا في زراعة أرضه، فأصبحت مخضّرة ذات سواق وترع، وازدانت سهولها بالحقول والحدائق، وغُرست فيها الأشجار المختلفة كالنخيل، وأنواع أخرى من النباتات، وأدى ذلك الاستقرار إلى تشييد المنازل والقصور.

ولقد اشتهرت الحيرة برقة هوائها، وصفاء جوها وعذوبة مائها وتعتبر من أطيب البلاد وأخصبها تربة، بها المزارع المترامية الأطراف، وأنشئت فيها الأسواق والمتاجر العظيمة، ويرجع ذلك لموقعها الهام، وقد قيل عن الحيرة: (يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة) لتلك الأسباب زاد عدد القادمين إليها، فأصبحت في فترة بسيطة مدينة متكاملة وكان يسكنها آنذاك ثلاث فئات رئيسية وهم:-

أ- تنوخ:

وهم من أوائل العرب الذين كانوا مع مالك بن فهم وأخيه عمرو، وكانوا يسكنون بيوت الشعر في أطراف الحيرة بينها وبين الأنوار غربي نهر الفرات، وتنوخ أيضا" هم قبائل عربية جنوبية قحطانية رحلت من اليمن إثر تصدع وانهيار سد مأرب ونزلت في بداية أمرها بالبحرين، ثم تحالفت مع بعضها البعض وقيل إنها قبيلة مجتمعة من عدة بطون، وقيل إنه اسم لعشر قبائل تجمعت فسموا بتنوخ (وتنوخ من التتنخ وهو المقام والاستقرار) وقد استغلت هذه القبيلة فرصة الحرب الأهلية الفارسية في أواخر عصر الدولة البارثية وهاجرت إلى الحيرة والأنبار.

بعض الأخبار، وقد اتصف بالحزم والقوة وسداد الرأي وقد كان ملكاً في زمن ملوك الطوائف أما عن سبب لقبه بالأبرش والوضاح فيرجع ذلك لبرص به فسماه العرب بالوضاح تقديراً لما له من أعمال جليلة.

وأنه أول من غزا بجيوش الحيرة على القبائل المجاورة، فقد غزا قبيلة إياد، وكان بها غلامٌ يُسمى (عدي بن نصر بن ربيعة) فأراد أسر هذا الغلام وفشل وكان لجذيمة فرقدين (وهما عبارة عن صنمين يُقال لهما الضيزيين) يستسقي بهما، فسرقتها قبيلة إياد لمساومته على ألا يغزوهم، فوافق شريطة أن يُعيدوا له الصنمين وعدي وتم له ذلك، استقر عُدي في قصر جذيمة وكان سعاءً له وأبصر رقاش أخت جذيمة فأعجب بها وأدار خطة كي يتزوجا فزاد عُدي الشراب لجذيمة ووافق على زواجها وهو أشبه بالغائب عن وعيه وتم الزواج فأنجب رقاش عمرو وشب وكبر وأعجب به جذيمة فأهداه حلي من فضة وطوق وسمي عمرو ذا الطوق.

ثم غزا جذيمة الأبرش بلاد عمرو بن السميدع والملقب بملك العرب بأرض الجزيرة والشام وهُزم عمرو وقُتل وخلفته ابنته الزباء (زنوبيا) التي عملت على الانتقام من جذيمة لقتله والدها فطلبت منه الحضور لقصرها كي تتزوجه واستشار رجال قصره فوافقوه على الذهاب إليها عدا قصير اللخمي، وذهب لها وقامت بقتله.

السلالة اللخمية (المناذرة).

قتل جذيمة التنوخي وانتقلت الإمارة إلى عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي، ابن أخت جذيمة وهو أول ملوك بني نصر، ويعد المؤسس الحقيقي للإمارة اللخمية في الحيرة وأول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب وعظموه واحترموه وإليه تنسب ملوك آل نصر، ومن صفاته أنه كان مستبداً بحكمه يغزو المغازي ويصيب الغنائم ويرجع إليه الفضل في إعمار الحيرة، وبتخطيط مع قصير اللخمي عمل على

الأخذ بثأر خاله جذيمة وقام بقتل الزباء (٤٦).

انتقل الحكم إلى امرئ القيس الأول بن عمرو بن عدي (٢٨٨ - ٣٢٨م) وأطلق عليه (ملك العرب كلهم) نظراً لعظم ملكه وقوته وسيطرته على الحكم، ثم تناوب على الحكم عدد من الحكام ليس لهم أدوار تذكر، وعاشت الحيرة فترة ضعف وركود، وبعد هذه الفتره استلم النعمان الأول بن امرئ القيس الأعور السائح (٣٩٠-٤١٨م) وهو أشهر ملوك الحيرة وصف بأنه كان صارماً في حكمه شديد النكاية بالأعداء، غزا الشام وغنم الكثير من الأموال والأتباع والرقيق واهتم بالتعمير وببناء الجيش، حيث كان يملك خمس فرق من أهمها: كتيبة دوسر تتكون من التنوخيين، ويطلق عليها مثل: أبطش من دوسر كناية عن قوتها، وكتيبة الشهباء تتكون من الفرس أما الثالثة فهي كتيبة الرهائن يقيمون على باب الملك ويُستبدلون كل عام، ثم كتيبة الصنائع: وهم خواص الملك، أما الكتيبة الخامسة فهي كتيبة الوضائع وتتكون من الفرس أيضاً، كان النعمان على علاقة طيبة مع الفرس حتى أن يزدجر بن بهرام أرسل ابنه بهرام ليعيش طرف النعمان.

في عهده انتشرت المسيحية وأباح حرية الشعائر ووافق على بناء الكنائس. وكان التقدم العمراني في عهده حيث بنى قصري الخورنق، والسدير فقد أوكل إلى مهندس روماني اسمه سنمار لبناء الخورنق، فتم ذلك في فترة طويلة وعلى نمط فريد من نوعه، لم يكن مثله لملوك ذلك العصر وقال سنمار للنعمان إني لأعلم وضع أجرة في القصر لو زالت لسقط القصر فقال النعمان: هل يعرفها أحد غيرك قال: لا فألقى به من فوق القصر فتقطعت أوصاله وفي ذلك قيل: (جزاء سنمار) وصعد النعمان يوماً على قبة الخورنق ونظر إلى البحر وعظمته والبر وجماله والبساتين وتنسيقها قائلاً لوزيره: ما رأيت أحسن من هذا البناء وما حوله من جمال للطبيعة فقال وزيره: لهذا

---

(٤٦) أحمد أمين: فجر الإسلام - ص ١٦.

عيب واحد هو أنه زائل، فقال النعمان: وما هو الشيء الباقي قال: ملك الآخرة، والوصول لذلك يتم بترك الدنيا، فترك الدنيا وتزهد مع وزيره وبذلك أطلق عليه الزاهد (٤٧).

ثم جلس على عرش الحيرة ابنه المنذر الأول بن النعمان الأول (٤١٩- ٤٦٢م) ابن هند الغسانية وقيل إنه تولى تربية بهرام بن يزدجرد بين العرب بناء على طلب ملك الفرس وبين يزدجرد بن بهرام وانتقل الحكم لفترة زاهية من فترات المناذرة وأصبح المنذر الثالث بن امرئ القيس بن ماء السماء (ذي القرنين) (٥١٢- ٥٥٤م) ولقب بذي القرنين لوجود ضفيرتين على رأسه، فقد المنذر عرشه حيث اغتصبه منه الحارث ابن عمرو بن حجر الكندي (٥٢٤ - ٥٢٨م) وعمل كسرى أنوشروان على إعادة المنذر إلى عرشه ثانية، وقد توفي في (موقعة حليمة ٥٥٤م) وكان له يومان يوم البؤس ويوم النعيم فمن مر عليه في يوم البؤس قتله....

ثم خلفه ابنه عمرو بن المنذر بن امرئ القيس بن هند (٥٥٤ - ٥٧٤م) وكان وثنياً، ولقّب بالمحرق أيضاً لأنه عندما غزا تميماً قتل عدداً منهم وألقاهم في النار، حارب العرب والروم، إرضاء لأسياده الفرس.

وبعد وفاته تولى ملك الحيرة أخوه قابوس بن المنذر بن النعمان بن امرئ القيس وكان حكمه أربع سنوات تقريباً في الفترة ما بين (٥٧٤ - ٥٧٩م) وبعد وفاته عين الفرس حاكماً فارسياً ربما لوجود خلاف بين أولاد قابوس أو بني لخم فتم تعينه لعام واحد لتهدئة الأوضاع ثم استلم الحكم المنذر بن المنذر (٥٧٩ - ٥٨٢م) شقيق عمرو وقابوس بن هند، وكان المنذر مهاب الجانب شديد السطوة، من المآخذ عليه أنه كان يأخذ من أموال الناس ما يعجبه فكرهوه وكان له عشرة من الأولاد سموا بالأشاهب لجمالهم، أرسل ولديه النعمان والأسود على أطراف الحيرة ليُنشِئَهم نشأة طيبة،

---

(٤٧) القزويني: أثار البلاد وإخبار العباد - ص ١٨٦ وما بعدها.

وعندما أحس بدنو أجله أوصى إياس بن قصيبة الطائي بأولاده، وملكه على الحيرة لعدة اشهر.

واعتلى سدة الحكم إياس النعمان بن المنذر (٥٨٣ - ٦٠٥م) كان ذميم الخلق عكس إخوانه الأشاهب أعجب به كسرى فكساه وألبسه تاجاً بستين ألفاً من الدراهم به الذهب واللؤلؤ، وتوجه ملكاً على الحيرة وشى زيد بن عدي على النعمان عند كسرى كي ينتقم من قتل النعمان لأبيه، ذاكراً لكسرى عن جمال نساء آل المنذر فطلب منه كسرى أن يرسل إليه بإحدى نسائهم ورفض النعمان وطلب كسرى النعمان للقدوم لإيوانه وأدرك النعمان خطورة ذلك فحمل ما استطاع من متاعه وسلاحه طائفاً بقبائل العرب يطلبهم المنعة من كسرى حتى نزل ببني شيبان بمنطقة ذي قار فلقي هانيء بن مسعود بن ابي ربيعة بن شيبان، وكان سيداً منيعاً فاستودعه سلاحه وماله وولده وعاد إلى كسرى فسجنه ثم قتله، لقد حارب النعمان أكثر من مرة وكان يُهزم حيناً وفي إحدى هذه المعارك أُسر أخوه فافتداه بألف بعير وفرس، كان النعمان فاتحاً أبوابه للشعراء وعلى رأسهم النابغة الذبياني وعلى صلة وثيقة به، حتى أثارت هذه العلاقة أحقاد خصومه لما حصل عليه من جوائز فكادوا له ففر إلى بني جفنه بالشام وبعد فترة عفا عنه النعمان وعاد للحيرة ثانية (٤٨).

وكلف كسرى بعد النعمان إياس بن قبيصه الطائي (٦٠٥ - ٦١٤) وكان من أشراف الحيرة وذلك يرجع إلى أن إياس كان قد قدم المساعدة عندما هرب من بهرام فأهداه فرساً وجزوراً ساعداه على الهرب وقد اختلف في مدة حكمه كما هي الحال في تلك العهود من التاريخ الجاهلي لكن الطبري روى أن مدته كانت تسع سنوات، وأهم ما وقع في فترة حكم إياس كانت واقعة ذي القار.

حينما أحس النعمان بما يكيد إليه كسرى - كما سبق ذكره وضع ما لديه من

(٤٨) سيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية -ص٢٧٧.

أمانات وسلاح لدى هانيء بن مسعود بن شيبان، وطلب كسرى من صنيعه الجديد على الحيرة إياس بن قبيصة أن يعيد تلك الودائع إلى كسرى فامتنع هانيء عن ذلك وغضب كسرى وهدد باستئصال بكر بن وائل مرسلاً إليهم النعمان بن زرعه التغلبي حيث كرهه لبني بكر لحروب سابقة بينهم فخيرهم النعمان بين الاستسلام لكسرى أو الرحيل عن ديارهم أو الحرب، وقام حنظلة بن تعلبة بإسداء النصيحة لقومه بني بكر بالخيار الأخير الا وهو الحرب، لأن في استسلامهم قتلهم وسبيهم وفي رحيلهم قتلهم عطشاً وهلاكهم من بني تميم.. فلم يبق سوى الحرب.

أرسل كسرى جيشه بقيادة كبار قادته الهامرز التستري وكان المرزبان الأعظم على رأس ألف فارس من العجم وجلابزين على رأس ألف فارس، وإياس بن قبيصه على رأس كتيبته شهاويين وكتيبة دوسر وكان يراقب إياس كل من: خالد بن يزيد الهراني في بهراء وإياد، والنعمان بن زرعة التغلبي في تغلب، والنمر بن قاسط وقيس بن مسعود بن خالد عامل كسرى على طقسوان وكلف كسرى كل القطاعات أن تكون بقيادة إياس بن قبيصة.

تسلل قيس بن مسعود عامل كسرى على طقسوان إلى معسكر هاني الطائي ونصحه بتوزيع أسلحه النعمان على قبيلته، إلا أن هانيء خاف من الهزيمة حيث لا طاقة له بكسرى وجنوده، وطلب من قومه النجاة إلى الفلاة فرفض ذلك حنظلة ابن ثعلبة وحدثت المعركة فكان الاشتباك وفي اليوم الثاني للمعركة نقص الماء عن جيوش كسرى فتراجعوا للماء فلحقهم بكر وعجل وابلى بهم بلاءً حسناً ونصحت إياد إلى بكر خوفاً من هزيمة العرب، وفي ثالث أيام المعركة نصب يزيد السكوني كميناً للفرس وتحولت قيادة بكر إلى حنظلة بدلاً من هانيء لضعف شخصيته لحظة القتال وآثر حنظلة أن يبدأ العرب القتال بالهجوم على ميسرة الفرس وقُتل الهامرز القائد الفارسي على يد برد بن حارثة البشكري وظهرت الكمائن وبدأت الاضطرابات تدخل

في صفوف الفرس وقتل القائد الفارسي الآخر جلابزين على يد حنظلة وهكذا تشتت شمل الفرس وعساكرهم وقتل زعماؤهم وانتهت المعركة بفوز ونصر عظيم للعرب وقعت في عهد أبرويز ملك الفرس، وقال الرسول ﷺ في ذكرى هذا الانتصار (اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا) (٤٩) ويعد انتصار العرب في هذا اليوم من مفاخر بني بكر يميل معظم المؤرخين إلى أن موقعة ذي قار حدثت في ٦١١م إلا أنهم اختلفوا في تحديد ذلك التاريخ فيقول الدكتور السيد عبد العزيز سالم إن حدوثها كان قريباً من ٦٠٩م حيث أن الرسول ﷺ بُعث في الأربعين من عمره، وتوفي وعمره ثلاثة وستون سنة، وكان ذلك في ٦٣٢م وبذلك يكون التاريخ الذي حدثت فيه هذه الموقعة إلى أبعد تقدير هو سنة ٦١٠م (٥٠).

ثم حكمت الحيرة بحكام ضعاف مثل ازاد بن ماهيبان بن مهرا (٦١٤-٦٣١م) ليس له أعمال تذكر في الحيرة ثم ثار عليه عرب الحيرة ثم ولوا أنفسهم المنذر بن النعمان (المغرور) (٦٣١ - ٦٣٢) ذلك حينما ضعفت الدولة الفارسية ثم عُزل المنذر وهرب إلى البحرين وأصبح أميرا لهم.

وأخيرا" جاء القائد المسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه الحيرة وصالح أهلها على مائة ألف درهم وأن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس على ألا تُهدم قصورهم... وهكذا فتحت الحيرة سلماً وصلحاً وغضب كسرى يزدجرد من ذلك فعمل على استرجاعها وتمليك قابوس بن المنذر عليها، فأغراه بالمال والملك وسار قابوس إلى الفارسية وقتل في اشتباك مع المسلمين هناك وسقطت الحيرة بأيدي المسلمين (٥١).

---

(٤٩) كنز العمال : ج/١ - حديث رقم٤- ٣١٨ - ص٣٦٦.

(٥٠) سيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق - ص ٢٩٠.

(٥١) المسعودي : مروج الذهب - ج/٢ - ص ١١٠.

٣- علاقتها مع كل من: الغساسنة والفرس والرومان وأثر ذلك على الوضع الاقتصادي.

تقع جزيرة العرب في ذلك الوقت بين أكبر إمبراطورتين وأعظم حضارتين، هما الإمبراطورية الفارسية شرقاً، والإمبراطورية الرومانية غرباً حاول أكاسرة وأباطرة هاتين الإمبراطورتين إخضاع جزيرة العرب لنفوذهم نظراً لما لها من أهمية اقتصادية واستراتيجية عالمية ولاتقاء شر غزوات القبائل العربية عليها إلا أن ذلك الإخضاع رغم ضرورته، فقد كان يتطلب الكثير من الضحايا والأموال، نظراً لقوة وصلابة الرجل العربي البدوي ومعرفته بدروب الصحراء ومساربها، قام زعماء هاتين الامبراطوريتين بالبحث عن بديل لذلك الغزو فعملوا على تكوين إمارتين لهما على حدود بلديهما تفصل بين الامبراطوريتين والقبائل العربية فاستقرت بعض القبائل البدوية وتحضرت وزرعت وشيدت المباني في كل من الحيرة وغسان، وقاموا بدورهم المطلوب من صد غزوات القبائل العربية عن حدود الإمبراطورتين وتأمين طرق التجارة الطويلة لهما، والتي تمر بمحاذاة سواحل البحر الأحمر وأرادت كل من الإمبراطورتين وضعها تحت نفوذها.

ففيما تم ذكره على صفحات سابقة لهذا الفصل، عمل الفرس على تكوين إمارة الحيرة على نهر الفرات ووضعوا عليها عمرو بن عدي أميراً منهم عليهم، كي تحميهم من المغيرين العرب ومن أطماع الإمبراطورية البيزنطية ومن غارات الغساسنة، والذين بدورهم عمل الرومان على تكوينهم ودعمهم في منطقة الشام ليقوموا بنفس الدور الذي تقوم به الحيرة لصالح الفرس، وهكذا تكونت وتأسست هاتان الأمارتان العربيتان فأصبحتا متخاصمتين حيث تقوم الحروب بينهما إرضاء لراحة الإمبراطورتين، وأصبحت الحرب تقوم بين الحيرة، وكل من الغساسنة والفرس أحياناً كل على حده وأحياناً أخرى يجتمع الغساسنة مع الرومان لمحاربة الحيرة مع

الفرس، لقد بلغ نفوذ العرب شأواً عظيماً في هاتين الإمبراطورتين حيث الخدمات الجليلة التي كانت تقدمها لهما كل من الحيرة والغساسنة.

لقد كان ملوك الحيرة عسكريين، حيث كان على رأس مملكة الحيرة ملكٌ هو القائد العسكري لمجموع قبائلها وإن وجود الملك على رأس قيادتها العسكرية، كان له شأن كبير وذلك يؤدي إلى الكثير من التنسيق ووحدة الكلمة، مما يعكس على التخطيط العسكري والحملات العسكرية المتتابعة والتي كانت تمتاز بها هذه المملكة.

لقد أخضع هذا التنظيم - العسكري - لكيانه جميع الجوانب الاقتصادية، وبما أن تربية الماشية كانت هي الأساس الذي قامت عليه حياة العرب الُرحّل، فكفلت لهم الغذاء الضروري ووسائل الحركة، وتنقلاتهم العسكرية الضرورية لغزواتهم المتتابعة وحينما تحولت هذه المملكة بجيشها من دولة مستقلة إلى حليف للإمبراطورية الفارسية تقوم بخدمتها، فقد ظهرت حاجتهم الماسة للحصول على المواد الغذائية والعلف الضروري لسد احتياجات جيشهم وأصبحت الإمبراطورية الفارسية تسلمهم ما يسمى بالأرزاق، لقد اعتمد ملوك الحيرة على قوة جيشهم الذي لم يكن من قبيلة معينة بل اعتمدوا على تكوينه من قبائل مختلفة، وجيوش مرتزقة، وكان بجيشهم قوة خاصة تجند من قبيلة لخم.

والعلاقة بين مملكة الحيرة ومملكة الغساسنة لم تكن دائماً تمتاز بالحروب بل كانت في بعض الأحيان تمتاز بالهدوء والسلام ولنا دليل على ذلك وهو أن امرأ القيس ابن عمرو ملك الحيرة كان قد توفي ودفن في بلاد الروم في حوران بالشام، كذلك كان العديد من ملوك الحيرة يتزوجون من بنات ملوك أو أبناء الغساسنة وهذا يؤدي إلى نوع من الهدوء والاستقرار، ولكن ذلك لم يكن ضرورياً للهدوء فكانت الأوامر تصدر لهما من الخارج فكانت الحروب والنزاعات تقوم باستمرار لأسباب عامة.

في زمن امرئ القيس حصل قتال بين الفرس والبيزنطيين في عهد الكسرى

سابور مع البيزنطيني جوليان المرتد، وهُزم سابور ودخل جوليان طيسفون وغنم أموالها وخزائنها، ثم استعاد سابور عرشه ثانية وقُتل جوليان بسهم مجهول، وعقدت معاهدة بين الفرس والبيزنطيين تنازل بموجبها البيزنطيون عن بعض المقاطعات فيما بين النهرين للفرس، وبعدما استقر به الأمر أراد أن ينتقم من العرب الذين ساندوا البيزنطيين في حروبهم هذه لكي ينتقموا من سابور الذي قتل منهم خلقاً كثيراً حينما استولى على الحكم وانتقم سابور وقتل الكثير من العرب ونزع أكتافهم وأطلق عليه ذو الأكتاف (٥٢).

وفي مطلع القرن الخامس الميلادي تولى حكم إمارة الحيرة: النعمان الأول ابن امرئ القيس (السائح) الأعور، فقد كان محارباً قوياً نال شهرة وحاز على منزلة في تاريخ ملوك الحيرة، لما كان عليه من حسن التدبير وضبط شؤون الملك، والحزم في الإدارة المالية، وتنظيم جيشه والبطش بأعدائه، وغزواته وفتوحاته وميله للعمران والبناء، فقد غزا الشام وأصاب أهلها وسبى وغنم الكثير منهم، وأهم ما يؤخذ عليه هو قتله لسنمار فهذا الظلم لا مبرر له، وكان له خمس كتائب عسكرية يغزو بها، غزا الشام أكثر من مرة..وكان على علاقة وطيدة مع الفرس حيث بنى قصر الخورنق إلى بهرام بن يزدجرد، وعندما مات يزدجرد، كان ابنه بهرام طرف النعمان، وأراد الفرس أن يقيموا عليهم ملكاً آخر، لأن بهرام متأدب بالآداب العربية فطلب بهرام عون النعمان لإعادته لعرش أبيه، وجهز النعمان جيشاً ووجهه إلى طيسفون عاصمة الايوان، وفعلاً أُعيد بُهرام إلى عرش أبيه بفضل النعمان، وهذا يظهر حُسن العلاقة التي كانت سائدة بين النعمان وكل من يزدجرد وولده بهرام... بل وسيطرة النعمان على أمور طيسفون وكان لهذا الهدوء في العلاقة أثر على التقدم والازدهار الاقتصادي في الحيرة (٥٣).

(٥٢) الطبري: تاريخ الطبري - ج/١ - ص ٤٠٠.

(٥٣) يوسف رزق الله غنيمه: الحيرة - المدينه والمملكة العربية - بغداد (١٣٥٦هـ - ١٩٣٦م) ص ٨٨٩.

خلف المنذر الأول أباه النعمان على العرش وكانت له منزلة رفيعة عند يزدجرد، حيث توجه للعرب وأمر له بكسوة عكست العلاقة الجيدة بين المنذر ويزدجرد بحروب بينه وبين الروم فقد شارك الفرس في معركتهم ضد الروم سنة ٤٢١م، وكانت هذه الحروب بسبب اضطهاد بهرام للمسيحيين في فارس، وانتصر البيزنطيون، بسبب غرق عدد كبير من رجال المنذر الأول في نهر الفرات لعقد صلح سنة ٤٢٢م بين الطرفين، وعندما أتى للحكم الأسود بن المنذر حتى أنه حارب الغساسنة في مواقع كان النصر فيها له وأسر فيها عدداً من ملوكهم ثم غزا بني ذبيان وبني أسد وأوقع فيهم ومن المعروف أنه كان للأسود كتيبة شديدة البأس أطلق عليها اسم (الملحاء) ألقت الرعب في قلوب الغساسنة والقبائل العربية ويقول الطبري: إنه أسر لدى الفرس لمدة عشرين سنة (٥٤).

تولى سدة الحكم بعد الأسود عدد من الأمراء اللخميين والدخلاء فكانت فترة ليست ذات بال بل ساد معظمها الهدوء النسبي سياسياً وعسكرياً وفي هذه الفترة حكم النعمان الثاني بن الأسود، وأمه من كندة وخدم الفرس عسكرياً وسياسياً ثم جرح في رأسه في معركة الخابور قرب قرقيسيا وتوفي متأثراً بجراحه سنة ٥٠٣م بعد هزيمة منكرة وخسائر فادحة وقيل إنه أمضى معظم فترة حكمه خارج الحيرة يحارب الروم في سوريا والجزيرة؟

حتى كانت فترة حكم المنذر بن امرئ القيس (ابن ماء السماء) فقد بلغت مملكة الحيرة في عهده أقصى درجات ازدهارها واتساعها، فقد كانت متفوقة عسكرياً، حيث إمكانياتها العظيمة، ونفوذها الذي حازته بين القبائل العربية، وكان في بداية عهده حليفاً مخلصاً للفرس، ورفض محاولات الإمبراطورية البيزنطية لاجتذابه إلى جانبها، ورفض فعرض عليه من الأموال والهبات لقاء موافقته لمتطلبات الفرس

---

(٥٤) الطبري: تاريخ الطبري - ج/١ - ص ٤١٧.

المتتالية وهو من الملوك المشهورين وكان شجاعاً محارباً غزا بلاد الشام والروم أكثر من مرة وكان له دورٌ بارزٌ في الامتثال الذي كان يدور بين الفرس والبيزنطيين وسبب هذا الامتثال هو أن البيزنطيين لم يوفوا بدفع الإتاوة لفارس والتي كانت نتيجة صلح عقد بينهما ٥٠٦م فعمل قُباذ على تحريض المنذر بالتحرش بممتلكات البيزنطيين في سوريا ٥١٩م، وأسر المنذر قائدين بيزنطيين وحضر وفد بيزنطي ٥٢٤م للتفاوض مع المنذر، وتم إطلاق سراحهم بشروط معينة وحاول جوستين الأول عقد حلف مع المنذر إلا أن ذلك لم يتم، حيث حارب المنذر مع فارس ٥٢٨م وتوغل ببلاد الشام وحصل على غنائم حتى وصل مدينة انطاكيه ٥٢٩م وتوغل كثيراً في الإمبراطورية البيزنطية وما إن تولى الإمبراطور البيزنطي جستنيان حتى عمل على تعيين الحارث بن جبلة ملكاً على الغساسنة وسانده حتى يقف بقوة أمام ملوك الحيرة الذين سببوا له التفكك والخراب في إمبراطوريته وقعت هدنة بين فارس وبيزنطة ٥٤٥م، إلا أن الصراع بقي مستمراً بين المنذر والحارث وأسر ابن الحارث في إحدى الغزوات مما دعاه لجمع جيش كبير وهاجم المنذر في حرب طاحنة واسر ولدين للمنذر وهرب المنذر بعد مقتل الكثير من جنده.

وقعت حرب بين المنذر الحيري والحارث الغساني ٥٤٦م بسبب انقضاض المنذر بغتة على أحد أبناء الحارث حينما كان الأخير خارجاً للمرعى بقطيع من الخيل وكانت الغلبة في نهاية الأمر للحارث الغساني حيث أوشك القبض على ولدي المنذر إلا انهما تمكنا من الهرب وكان مصرعه في يوم حليمة الذي دار بينه وبين الحارث ٥٥٤م.

خلف عمرو بن هند أباه المنذر (٥٥٤ - ٥٧٤م) وأمه هند الكندية، امتاز بأعمال حربية ضد القبائل العربية وضد الروم، فقد طلب من قبيلة بني تغلب أن تساعده للثأر من قتل ابنه رُفض طلبه هذا، فما كان منه إلا أن جمع جيوشه وغزاهم وأوقع الكثير منهم قتلى في عقر دارهم، كذلك قام بغزو قبيلة بني تميم لأنهم قتلوا أخاه سعداً وقتل

منهم مئة شخص وألقى بهم في النار لذلك؛ لقب (بالمحّرق).

ثم قام بغزوتين للغساسنة في عامي (٥٦٦ - ٥٦٧م) بقيادة أخيه قابوس، وأما عن سبب هاتين الغزوتين فهو أنه في اتفاقية ٥٦٢م بين الفرس والبيزنطيين تم الاتفاق على أن يدفع البيزنطيون جزية لمملكة الحيرة، مقابل سكوتهم عن مهاجمة الغساسنة، ورفض الروم ذلك ثم أرسل عمرو بن هند رسولاً للقيصر البيزنطي جوستين للمفاوضة على ذلك وعومل الرسول معاملة سيئة ولهذين السببين قام قابوس بهاتين الغزوتين.

خلف قابوس بن المنذر بن هند أخاه عمرو بن هند (٥٧٤ - ٥٧٨م) وكان كبيراً في السن على ما يذكر الاخباريون، ورغم ذلك فقد قام بعدة غزوات ضد الغساسنة بقيادة المنذر بن الحارث بن جبلة، وذلك بعد موت الحارث ولكنه فشل في الانتصار في معظمها ثم فر قابوس في معركة (عين أباغ) بالقرب من الحيرة حيث تعقبه المنذر ابن الحارث، وظل قابوس تواقاً للانتقام إلى أن دب الخلاف بين المنذر وجوستين الثاني فهيأ جيشاً لمحاربة المنذر واستمر ذلك لثلاث سنوات حتى وصل قابوس حدود أنطاكيه، ولما اصطلح المنذر وجستين الثاني هاجمت جيوش الغساسنة الحيرة مرة أخرى منزلة" فيها الكثير من الخسائر وفي عهده بدأ يخبو ويضعف نجم حكام الحيرة خلف قابوس المنذر بن المنذر وليس بعهده ما يذكر حتى جاء النعمان بن المنذر إلى قابوس، كان ذميم الخلقة بخلاف إخوته الذين يقال لهم الأشاهب لجمالهم، فملكة كسرى حيث العلاقة الحميمة في بداية عهده، امتد ملكه واتسعت رقعة أرضه مما أدى إلى احتكاكه مع بعض القبائل العربية، إلا أنه اشتبك مع بني يربوع في (يوم طخفة)، بسبب عزلهم عن الردافة (٥٥) وهزم فيه جيش المنذر وأسر فيه ابنه وأخوه، وأعادهما شهاب بن عبد قيس وأعيدت لهم الردافة، اشتبك مع بني عامر في (يوم

(٥٥) الرِّدافة: بمنزلة الوزارة، والرديف يجلس على يمين الملك وله ربع غنيمه الملك من كل غزوة، وكانت ردافة ملوك الحيرة في بني يربوع وهم بطن من تميم - (محمد جاد: أيام العرب في الجاهلية - ص ٩٤).

السلان) وهزم وأسر أخوه فافتداه بألف بعير وفرس.

كانت علاقة النعمان مع الفرس على غير ما يرام ربما لقتله عدي بن زيد العبادي الذي كان مقرباً لكسرى، فألقى القبض عليه من قبل كسرى وسجنه وقتله أو مات في سجنه.

وعين الفرس بعد ذلك رجلا من طيء هو إياس بن قبيصة إلا أنه فشل في إدارة ملك الحيرة ووقف الناس ضده ودعمه الفرس بكتيبة فارسية ورغم أنه ساعدهم في بعض حروبهم ضد الرومان، إلا أنه لم يستطع قيادة حكم الحيرة، وحصل في عهده موقعة ذي قار الشهيرة والتي سبق الحديث عنها في بداية هذا القسم من الحيرة والتي وقعت في ٦١٠م، وهي أول معركة تنتصر فيها الحيرة يساعدها القبائل العربية ضد الجيش الإمبراطوري الفارسي، وكانت هذه مقدمة للفتوح الإسلامية وبسبب هذه الهزيمة أقصى الفرس إياس بن قبيصة وعينوا حاكماً فارسياً خالصاً يقوم بحكمها هو آذاذبه بن ماهان، حكم فترة لا يوجد فيها ما يذكر، ثم قام المناذرة باستعادة سيادتهم على الحيرة، ونصبوا المنذر بن النعمان المسمى بالغرور أو المغرور وكان ذلك في ٦٣١م، في هذا العام تحركت جيوش المسلمين إلى العراق ففزع المنذر من ذلك وهرب إلى البحرين ويرجع المؤرخون ذلك إما بسبب عزله من الفرس، أو بثورة من أهل الحيرة ضده، واشتبك القائد المسلم العلاء بن الحضرمي المرسل للعراق من قبل الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ، وهُزم العلاء في بداية الأمر ثم أعاد الكرة وهاجم قوات المنذر فقتله.

وهكذا انتهت دولة المناذرة، إلى أن جاء القائد المسلم خالد بن الوليد فدخلها، وفرض عليها مائة ألف درهم تدفع كل عام للمسلمين وأن يكون أهلها عيونا" للمسلمين على فارس، وأن لا يهدم لهم قصرًا ولا ضيعة.

فيما سبق لاحظنا كيف كانت العلاقه الحربية المتوالية، والتي لم تهدأ على الاطلاق في الحيرة فكانت إما تَغزوا أو تُغزا، فالحروب المستمرة جعلت من اقتصادها اقتصاداً حربياً وقد أثر ذلك على وضعها الاقتصادي فقد كانت ذات أراض زراعية خصبة، ومراع هامة وأسواق رئيسية وتجارة ناجحة، ولقد خصص إنتاج وأرباح ذلك من أجل تجهيز الكتائب العسكرية، التي تجهز ليلاً ونهاراً، وكان معظمها من أجل الفرس من أجل الغير، ليس من أجل إسعاد شعبها واستقراره بل كانت تُلقى عليها أوامر الغزوات من قبل الفرس، وكل هذه المعارك والغزوات... عملت على إيقاف التقدم الاقتصادي الذي كانت تمتاز به مملكة الحيرة في فترات طويلة.

ارتبطت مملكة الحيرة مع الفرس بحلف وثيق امتد لقرون، لعب فيه ملوك الحيرة دور التابع والمنفذ لسياسة الفرس أحيانا ودور المعارض أحياناً أخرى، وكان من أهم تلك الروابط بينهما الوضع الجغرافي للحيرة، حيث أن أملاكها تُكوِّن وحدة جغرافية طبيعية للمناطق القريبة للفرس، ولهذا فإن أية محاولة للقتال مع الفرس كان معناه تعريض أملاكها للخطر، لهذا لم يغفل ملوك الحيرة ذلك.

٤- الوضع الاقتصادي في مملكة الحيرة:

من الدراسة السابقة لتاريخ الحيرة، من حيث موقعها الاستراتيجي الهام، وأرضها الخصبة، وأنهارها وإدارة ملوكها تشير كل الدلائل على أن الحياة الاقتصادية كانت مزدهرة فيها قُبيل الإسلام، ومن أسباب ذلك التقدم الاقتصادي كما مر بنا في غير هذا الموضع أن سكان الحيرة كانوا أخلاطاً من القبائل العربية التي هاجرت من اليمن والجزيرة لأسباب معروفة لا مجال لذكرها هنا، والتي كانت تحترف الزراعة مما جعل الزراعة في تقدم ونجاح، أيضا "كانت جالية فارسية تمتهن بعض الحرف والمهن الصناعية، وهذا بدوره أدى إلى ازدهار الإنتاج الصناعي ووجود بعض اليهود الذين كانوا يهتمون بالزراعة والصناعة، كذلك موقع الحيرة المتاز جعل منها طريقاً

للقوافل التجارية وكان بها - أيضاً - سوق تجاري ناجح وعادة ما يرتبط الوضع الاقتصادي بأمور عديدة منها الزراعة والرعي والصناعة، والخراج وغنائم الحروب وخلافها.

ولنبدأ بالزراعة والتي كانت أحد أفضل الموارد الاقتصادية نظراً لخصوبة الأرض وتوفر مياه الأنهار، وتعتبر الحيرة من أرض السواد والتي تمتاز بخصوبة تربتها، ومن أهم منتجاتها الزراعية: الحبوب والتمور والفواكه والقصب والخضار والقطن وخلافها، وكان قسم من هذا الإنتاج يُباع داخل الحيرة والقسم الآخر يُباع للقبائل العربية المجاورة.

من مصادر الاقتصاد الحيري ونشاطه كان الخراج (وكان الخراج يُسمى مُصَدِّقاً أي الذي يجمع الصدقات) عين ملوك الحيرة رؤساء القبائل الموالية لهم لجباية الخراج، ولقيادة فرقهم العسكرية، ويحكمون الأراضي التي يستولون عليها، وعليه فكانت الضريبة (الخراج) تدفع لملوك الحيرة على ما تنتجه الأرض سواء كانت زراعية أو رعوية أو تابعة للقبائل التابعين للحيرة، وبذلك يكون الخراج من أعمدة الاقتصاد لإمارة الحيرة، ولم تتم عملية الخراج بسهولة ويسر، بل كان يحصل فيها معظم الأحيان التصادم بين عامل الخراج الحيري، والبطون والقبائل التي تقوم بأداء الخراج وأحياناً تحصل حروب تستمر لفترة طويلة بين بطون القبيلة الواحدة.

غنائم الحروب:

كان من الأسباب الرئيسية لقيام الحروب هو البحث عن الغنائم لزيادة موارد الدولة المالية والعمل على تحسين وضع المقاتلين، وذلك يؤدي أيضاً لتطور المجتمع وزيادة ثرائه، وعليه كانت الغنائم من أسباب رفاهية ملوك الحيرة.

ذلك أن كل غنائم الحروب من أموال، وأشياء ثمينة وأسرى يكون ملكاً للملوك،

ومن المعلوم أن معظم ملوك الحيرة قد قتلوا في المعارك، وهذا يدلل على زيادة المعارك التي كانوا يخوضونها فقد حاربوا الغساسنة والبيزنطيين وبالجزيرة وانطاكية، وكانوا يغتنموا الكثير من الأموال والدواب كالجمال والخيل، والمنتجات الزراعية ناهيك عن كميات من الذهب يستولون عليها من غزواتهم وبعضها يأتيهم من الرومان على أثر بعض المعاهدات بينهم، وبعضها لفك بعض الأسرى.

كذلك كانوا يغنمون الكثير من المعادن المختلفة كالذهب والفضة ونهب بعض قطعان الماشية المختلفة من أغنام وإبل وخيل، وبذلك يكون الغزو من أهم الموارد الاقتصادية لمملكة الحيرة كما أنه من أسباب رفاهية ملوك الحيرة، وقيل إن تبادل الأسرى لم يتم إلا بالذهب أو الفضة، ويتم بيع الأسرى بالذهب في سوق الرقيق.

التجارة:

اشتغل أهل الحيرة بالتجارة فكان قربها من نهر الفرات يساعدهم في التجارة البحرية متجهين صوب الهند والصين شرقاً وإلى البحرين وعدن غرباً، كانت الحيرة تشتهر بسوق كبير حيث يقام كل عام ويعُرض فيها كل ما تتطلبه الحياة العربية محمولاً من الشام واليمن وعمان والحجاز والهند وفارس وتعد هذه بمثابة السوق الدائمة لأهل الحيرة، وفي كل عام تستقبل البضاعة الخارجية مرة.

وكانت علاقة قريش مع الحيرة مستمرة فيأتي تجار مكة إلى الحيرة حاملين العطور والبخور، وكان العديد من رجالات قريش يخرجون بتجارتهم إلى الحيرة، ومن الحيرة كانت القوافل تحمل تجارة الهند والصين وعمان والبحرين إلى تدمر والبحرين وهكذا كانت حركة التجارة العكسية، وكان للحيرة تجارة مع الصين حيث وصلت تجارتها إلى ميناء الحيرة على الفرات في القرن السادس الميلادي، إلا أن هذه التجارة ضعفت قبيل الإسلام مباشرة بسبب استمرارا لحروب بين بيزنطة وفارس،

رغم ذلك انتشرت تجارة التوابل والرقيق وشجع ذلك عرب الحيرة والفرس واستمرت التجارة الصينية والأفريقية عبر الجزيرة العربية حتى بعد ظهور الإسلام ومن هذه الحركة التجارية الواسعة تدفقت الثروات فهيأت لهم حياة الترف، فأقاموا القصور، واستمتعوا بالحياة واستقدموا المغنين والمغنيات واتخذوا في قصورهم ودورهم الأثاث الفاخر (٥٦).

الرعي:

من أهم موارد اقتصاد الحيرة فقد كان لملوك الحيرة حمى خاص بهم، ترعى فيه قطعانهم الخاصة، ولم يكن بمقدور أي قبيلة أو فرد أن يرعى داخل ذلك الحمى أو تلك الأرض الخاصة بالملك إلا بإذنه، وكان على القبيلة التي ترغب في رعاية ماشيتها في ذلك الحمى أن تدفع إتاوة معينة توضع في خزينة الملك، وقد اعترف العديد من ملوك الحيرة بإدخال هذه الإتاوة (٥٧) في خزائنهم الخاصة، وذلك مورداً كبيراً وربحاً عظيماً لهم في كل عام.

الصناعة:

اشتهرت الحيرة بصناعات عديدة، كانت ذات دقة وإتقان فقد كانت تهتم بصناعة النسيج من القطن والحرير والصوف، ومن ذلك ينتجون الثياب الفاخرة والأنيقة للباسهم، ويغدقون منها على من يرضون من الشعراء وتُسمى (أثواب الرضا) وتمتاز تلك الأثواب بأن أطواقها من الذهب والزمرد كذلك ينسجون أنواعاً ممتازة من السجاجيد، أيضا" نبغ الحيريون في صناعة الأسلحة كالسيوف وقد اشتهرت السيوف الحيرية، والسهام والرماح والتي تعد من أدق الصناعات الحربية،

(٥٦) محمد السيد غلاب: التجارة في عصر ما قبل الإسلام مقالة من الكتاب الثاني في الجزيرة العربية قبل الإسلام - ص١٩٨.

(٥٧) الإتاوة: هي ما يدفعه رجال القبائل مقابل السماح لهم بالرعي في مناطق خاضعة لنفوذ ملوك الحيرة (أنظر: عبد الغني عارف: تاريخ الحيرة في الجاهلية والإسلام - دار كنانة، دمشق (١٤١٤هـ / ١٩٩٢م) ص٢٥٦.

كذلك اهتموا بصناعة أدوات الزينة المرصعة بالذهب والحلي والفضة والياقوت، ومن الصناعات الهامة أيضا" لديهم كانت صناعة الخزف الحيري المشهور، والصناعات الجلدية ودباغتها ومنها الأحذية والتحف المصنوعة من العاج والمرصعة بالمعادن المختلفة وكانت تلك الصناعات تدر دخلا" كبيرا" لخزينة الدولة (٥٨).

ريع الطرق التجارية:

كانت تربط الحيرة بكل من الشام واليمامة وعُمان ومكة طرق تجارية وعسكرية عديدة فكان المناذرة يأخذون ريع التجارة التي تمر بطرقهم وذلك مقابل تأمين تلك الطرق وحماية القوافل التجارية من المارة، ويعتبر المبلغ الذي يُجبى من هذا الأمر ليس بسيطاً.

الحيوانات:

وتشكل الثروة الحيوانية مصدراً هاماً من مصادر الاقتصاد الحيري، حيث يوجد أنواع كثيرة منها تستخدم إما للطعام أو للحياة أو للحروب والنقل، فاللحوم والألبان والأصواف مواد أساسية للمعيشة والحياة، كذلك الخيول والجمال ضرورية للقتال في الحروب والنقل والتموين.

النقود:

كانت النقود المستعملة آنذاك خاصة بالفرس والروم كالدنانير القيصرية (نسبة إلى قيصر ملك الروم) أو الدراهم الكسروية (نسبة إلى كسرى ملك الفرس) ونقود أخرى من الذهب والفضة، وتعتبر الدنانير نقوداً ذهبية والدراهم نقوداً فضية.

وهكذا نرى أن اقتصاد الحيرة كان ذا مصادر متنوعة ومختلفة، حيث إن مجتمعاً

(٥٨) سيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق - ص ٢٠١ - ٢٠٢.

كمجتمع الحيرة الذي تفاعلت فيه مختلف الحضارات السائدة آنذاك لا بد وأن تتوافر فيه مقومات الصناعة التي تكفي حاجات المجتمع من كساء ولباس وطعام، والمستلزمات الأساسية لحياته المدنية ومتطلباته العسكرية، فقد كان الدخل الاقتصادي لملوك الحيرة مختلف الجوانب من الزراعة والرعي، ومن الخراج والتجارة بمختلف أنواعها الداخلية والخارجية، وما يغتنمونه من غنائم إثر الحروب والمغازي التي يقومون بها على أطراف الشام مع الغساسنة أو مع الروم، وما يوفرونه من الأقوات المختلفة، بالإضافة إلى ما ينتجونه من الزراعة والإنتاج الحيواني والصناعي، التي تلبي الحاجات الشاملة للمجتمع وتلبي المتطلبات العسكرية للمملكة.

٥- الإقطاع في مملكة الحيرة:

يقسم الإقطاع في مملكة الحيرة إلى عدة جوانب:-

إقطاعات خاصة من ملوك الفرس إلى ملوك الحيرة، الذين يعملون معهم، ويحافظون على أمن وسلامة إمبراطوريتهم من غزو القبائل العربية المجاورة، ويحافظون لهم على طرق التجارة الخاصة بهم، ويصدون الغزوات الخارجية قبيل أن تتعرض لها الإمبراطورية الفارسية من قبل مملكة الغساسنة أو الإمبراطورية البيزنطية، وكانت معظم هذه الإقطاعات مقصورة على أطراف مملكة الحيرة، وكانت بمثابة مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة.

أيضا "كانت توجد إقطاعات تخص ملوك الحيرة يقطعونها لمن يعمل معهم من رؤساء القبائل العربية المجاورة وبعض الأفراد العرب الذين يقومون بمساعدتهم في الحفاظ على مملكتهم وبعض من الشعراء الذين كانوا يمدحونهم وكانت هذه الإقطاعات بسيطة وليست ذات بال، وتوجد إقطاعات خاصة أخرى - ولكنها محدودة - كانت تعطى في صورة هبات وأتاوات من الإمبراطورية البيزنطية مباشرة إلى ملوك الحيرة.

قام أكاسرة الفرس بإقطاع من يجدوه يعمل لصالحهم من ملوك الحيرة، وعلى سبيل المثال كان معظم إقطاعاتهم من الأراضي الزراعية، والأراضي في الحيرة معظمها من السواد الذي يمتاز بخصوبة أراضيه، فقد اقطع كسرى النعمان من البلدان: رشتاق السيلحين، ورشتاق طاق وقطائع بن طلحه وتقع هذه القطائع في منطقة النجف وكان خراج ذلك يجُبى للنعمان كل سنة ويتجاوز المائة الف درهم (٥٩).

وقد حمى النعمان لنفسه مواضع عديدة قرب الحيرة، ترعى فيها إبله وبهائمه، مثل أرض سحيل (وهي أرض بين الكوفة والشام)، ومثل شقائق النعمان ومراعي الإبل، ومن إقطاعات النعمان أنه كان يُقطع بعض الأراضي لشخصيات مهمة يعتمد على مساعدتها له في ظروف الحرب، فقد اقطع قرية (السوادية) إلى سواد بن عدي التميمي (السوادية قرية قرب الكوفة) أيضاً أقطع هند بن نجم الإيادي منطقة (الحضوض) وهو موضع قريب من الكوفة، (٦٠) هذا ما أقطع للنعمان وما حماه هو أما ما أعطاه فنجده أعطى الشاعر النابغة الذبياني مائة من عصافيرة بريشها (العصافير: هنا هي إبل النعمان بن المنذر عُرفت بأصالتها وجودة جنسها فأفضل فحل بين الإبل يسمى عصفوراً ويسمى أولاده عصافير - أي جمع عصفور) وذلك مقابل مجالسته ومدحه له (٦١).

من ذلك يُلاحظ أن النعمان بن المنذر يحمي الكثير من الإقطاعات الزراعية بعضها من الفرس وبعضها الآخر حماه لنفسه، فهكذا كان من حق ملوك الحيرة أن يحموا الأرض التي يريدون، ويحمون الحيوانات كالإبل والخيل ولا يسمحون لغيرهم بالانتفاع بها ويكون معظم الإحماء عندهم إما زراعي أو رعوي، ويقومون بتأجيره - أيضا" - للرعاة والمزارعين بأثمان كبيرة فيصبح هذا المالك متفرداً بالملك والحمى، ولن ينال الناس إلا القليل.

(٥٩) مجلة العرب: تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - ج/١١ - (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) - الرياض - ص ٨٦٦.
(٦٠) مجلة العرب: ج/١١ - ص ٨٦٦.
(٦١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب - ج/٥ - ص ٢٥٦.

وبأخذ نموذج آخر للإقطاعات الفارسية، فقد أقطع خسرو الثاني أبرويز إياس بن قبيصه إقطاعات منها: عين تمر، وثمانين قرية طرف السواد، ومنحه - أيضا" - إقطاعات مالك بن قيس وسمي بإقطاع إقساس مالك (اقساس: قرية بالقرب من الكوفة) تم كل ذلك حينما عُين إياس ملكاً للحيرة ذلك كي يطمئن لولائه له.

وكذلك أقطع خسرو الثاني أبرويز أراضي (طَفٍّ والأبله) قيساً بن مسعود الشيباني وكان ذلك مقابل أن يمنع قيس دخول بني بكر السواد كي لا يفسدوا فيه، وقيس هذا من ذوي الأكال الذين يخدمون في جيش الحيرة، وتعني ذوو الأكال بأنهم قوم أشراف، يوصفون بالسادات وكانت ملوك الحيرة وملوك فارس تقطع زعماءهم الإقطاعات كي يضمنوا ولاءهم في جيش الحيرة الذي يعتمد عليهم في حروبه ضد الغساسنة والبيزنطيين (٦٢).

عمل الأكاسرة على إقطاع الأعراب والبدو، كرؤساء قبائل وأفراد، مواضع معينة من الأراضي والقرى، تكون لهم معونة لمعايشهم وحياتهم، إلا أن تلك الإقطاعات لم تذكر بالتفاصيل في سجل وتاريخ ملوك الفرس والحيرة، فكان أولئك الأعراب يزرعون إقطاعاتهم ويجنون ثمارها فيأكلون ويطعمون من شاؤوا من أهلهم وخاصتهم الذين يصطفونهم ويستميلونهم (٦٣).

يلاحظ هنا أن هذه الإقطاعات تكون لهم من أرضهم، فيعطونهم أكاسرة الفرس ويمنون عليهم هذا العطاء ويستجلبون قوتهم للدفاع عنهم، وكان هذا يتم بعيداً عن معرفة ملوك الحيرة، وأحيانا يكون العطاء مشتركا لملوك الحيرة والأعراب سويًا، كل ذلك من أجل ضمان ولائهم لهم.

وبذلك يلاحظ إن ملوك الأكاسرة يمنحون الأعراب والبدو بشكل مسبق، كي

---

(٦٢) مجلة العرب: ج/١١ - ص ٨٦٦.

(٦٣) نفس المرجع السابق - ص ٨٦٦.

يتمكنوا من الاستفادة منهم وعدم غدرهم أثناء الحروب والغزوات التي كانت تدور في المنطقة باستمرار.

لقد كان الفرس يحافظون على علاقاتهم العسكرية والتجارية مع ملوك الحيرة، مقابل ذلك يقطعونهم الإقطاعات أحيانًا، ويدفعون الأموال أحيانًا أخرى، فقد كان للفرس قوافل تجارية تمر عبر أراضي الحيرة، وتم الاتفاق بين الطرفين نظير جُعْل كبير يقدمه الفرس لملوك الحيرة، ويروى أن الفرس استكثروا هذا الجعل فأبوا دفعه، مما أدى إلى قيام ملك الحيرة بمهاجمة إحدى القوافل الفارسية، وهزيمة حماتها واستولى عليها (٦٤).

من ناحية أخرى كان ملوك الحيرة عندما يتوجهون للغزوات يضعون أبناءهم بجوار أعز القبائل العربية، كي يكون أفراد العائلة المالكة في منأى من أي أخطار تصيبهم فترة غياب الملك وجنده خارج الحيرة، وبالمقابل تقدم الإقطاعات والخدمات والامتيازات المختلفة لتلك القبائل التي تقوم بهذا الدور.

وأما عن النوع الثالث من الإقطاعات فهو الإقطاعات البيزنطينية لملوك الحيرة، ومن أمثلة ذلك أنه حين عقدت اتفاقية السلام بين بيزنطة والفرس والحيرة (٥٦١/ ٥٦٢م) ألح الفرس على البيزنطيين بتقديم العطايا السنوية لعرب الحيرة، ورغم ذلك الإلحاح من الفرس إلا أن ملك الحيرة عمرو بن المنذر بن هند قال عن تلك الاتفاقية (أنها أهملت الكثير من مصالح الحيرة) ولا شك أن اجتراءه بهذه الصورة على كسرى إنما يرجع إلى قوته المتزايدة، ودوره الحساس في العمل على أمن الإمبراطورية الفارسية). إلا أن كسرى أخيراً ورضوخاً لطلب عمر بن المنذر بزيادة العطاءات ترك إلى ملك الحيرة حرية تبادل السفارات وزيادة العطاءات مع القسطنطينية، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قوة ملوك الحيرة، وحرصاً على المصالح المشتركة بين الطرفين.

(٦٤) أحمد آمين: فجر الإسلام - ص ١٦.

وقد قامت الامبراطوريه البيزنطينية ضمن هذه الاتفاقية بتقديم الهدايا والعطايا والمنح لمملكة الحيرة مقابل إيقاف هجماتها عليها، وكانت هذه الهدايا سنوية، وهذا يدل على ضعف الإمبراطورية البيزنطينية في تلك الاتفاقية والتي كان ملوك الحيرة سادتها... وحاولوا أيضاً اتباع سياسة مستقلة عن الإمبراطورية الفارسية والرومانية، وأن يصبحوا على قدم المساواة مع كل من الفرس والروم (٦٥).

ويجب معرفة أن إنتاج هذه الإقطاعات بنماذجها المختلفة سواءً كانت للأكاسرة أو المناذرة أو القبائل، وخلافهم يؤتى بها إلى أسواق الحيرة كي يجد أهلها وأفراد القبائل الأخرى حاجاتهم الضرورية، فكان إنتاج الحيرة من الحنطة والشعير وخلافهما والمبالغ التي تُجبى من بيع تلك المنتوجات في الأسواق كبيرجداً، مما يدل على التقدم والازدهار الاقتصادي في الحيرة آنذاك.

مما تقدم نجد أن الإقطاعات كانت متبادلة المنفعة، فالأكاسرة يُقطعون ملوك الحيرة لضمان أمن بلادهم، والإبعاد بينهم وبين عبث القبائل العربية في أرض السواد وأرض الفرس، كذلك أفراد الحيرة وملوكها يقطعون خاصتهم من الوزراء في بلاطهم، وذوي الأكال في جيشهم ليضمنوا إخلاصهم، ويقطعون بعض القبائل العربية المجاورة لهم إقطاعات محددة لتسد رمق عيشهم وحياتهم، كي يدافعوا عن حدودهم أيضاً يقطعون الإقطاعات إلى بعض الأفراد والشخصيات القبلية ذات النفوذ العسكري ليضمنوا ولاءهم، ويقطعون من الفلاحين والمزارعين والرعاة لقاء أجور باهظة يدفعونها لهم، أيضاً كان البيزنطينيون يقطعون ملوك الحيرة ما يقطعون من هدايا وإيتاوات مقابل عدم غزوهم... هذه هي الإقطاعات في الحيرة على أنواعها المختلفة وفوائدها المتعددة، فالنتيجة حماية الحدود والأرض كل للآخر ونلاحظ استغلال ملوك الحيرة القسط الأكبر من هذه الإقطاعات لمصالحهم الفردية... دون

---

(٦٥) بيغوليفسكيا :نيتا فكتورقنا (١٨٩٤م - ١٩٧٠م) العرب على حدود بيزنطه وإيران - من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي نقله إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم - الخرطوم - ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م) ص١٤٠.

الاهتمام الكبير بسكانها رغم تنوع اقتصادها وخصوبة سوادها وعظم مواردها.

لقد أمضت مملكة الحيرة معظم الزمن الذي عاشته في حروب دائمة مع القبائل العربية والرومان والغساسنة وحتى مع الفرس وكان آخرها معهم موقعة ذي قار وقد امتدت غزواتهم إلى بلاد الشام والجزيرة وانطاكيه وحمص ومنها غنموا الكثير من الأموال والدواب كالجمال والخيل والأغنام والمنتوجات الزراعية وكميات كبيرة من الذهب والفضة كان بعضها يدفع كإتاوة من قبل البيزنطيين كي يتفادوا شرهم وحروبهم، وفي كتاب العرب على حدود بيزنطة وإيران للمستشرقة الروسية قالت: (كانت وسيلة الثراء بين العرب عامة وزعمائهم خاصة هي الغنائم بجميع أنواعها كالأسلحة والمعادن والذهب والمواشي، ونهب قطعان مختلفة من المواشي وسبي الناس وبيع الأسرى كرقيق، وكان النصيب الأوفر من هذه الغنائم يذهب للملوك والزعماء والأعيان والقلة القليلة للمقاتلين وعامة الناس) (٦٦).

وأحياناً كان يتم الإفراج عن الأسرى مقابل الذهب والفضة ومن ناحية أخرى اتضح فيما سبق دراسته أن الاقتصاد الحيري كان على درجة كبيرة من التقدم والازدهار، ومن المعلوم أن مملكة الحيرة تعتبر مملكة عسكرية سار ملوكها على درب الحرب والقتال والدليل على ذلك أن معظم ملوكها قتلوا في ساحات الحرب وكان من نتائج هذه المعارك والحروب كما سبق ذكره أنهم استباحوا انطاكية ومدن بيزنطية أخرى مما اضطر القياصرة لتقديم الرشاوى والذهب لاسترضاء ملوك الحيرة للكف عن محاربتهم لإمبراطوريتهم، والدليل الآخر على قوتهم العسكرية أنهم كانوا يتدخلون في تتويج بعض الأكاسرة الفرس، وعلى اتجاه ثالث كانت مملكة الحيرة تقاتل القبائل العربية المجاورة لها والتي لم تذعن لسلطانها وتحافظ على حدودها.

---

(٦٦) المرجع السابق - ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

مما سبق يتضح أن الوضع القتالي والعسكري لهذه المملكة كانت له نتائج عديدة:

كانت مملكة الحيرة تضع نسبة كبيرة من ناتج اقتصادها في تهيئة جيشها للاستعداد الدائم للقتال وتوفير ما يلزمه من السلاح والعتاد وهذا جانب سلبي، أما الجانب الآخر وهو أن تلك الحروب والمعارك أغنت خزينة هذه المملكة بالذهب والفضة والمزيد من الأراضي الزراعية وقطعان من الماشية المختلفة والأموال النقدية.

لذلك كله أصبح ملوك الحيرة يعيشون في رفاهية لا مثيل لها في تلك العصور، حيث تدفق الثروات الهائلة والأموال... فأقاموا القصور الفارهة، والمساكن الفسيحة واستمتعوا بحياتهم فاستقدموا المغنين والمغنيات، واتخذوا لمنازلهم الأثاث والمفارش النفيسة، واستعملوا في طعامهم وشرابهم أواني الذهب والفضة، وناموا على الفرش الحريرية، وأكثروا من استعمال الطيب والبخور في مضاجعهم ومجالسهم ونثروا ملابسهم بالمسك، وارتدوا أفخر الثياب وأزهى الحلل.

أما في فترة حكم آل لخم أو آل نصر فقد حارب امرؤ القيس القبائل العربية مثل أسد ونزار ومذحج وأخضعها لسيادته، وأصبح يلقب بملك العرب كلهم نظراً لعظم ملكه، وتوحيده لمعظم القبائل العربية وعندما توفي نصب له قبر في إقليم النمارة الذي يخضع للحكم الروماني، وقد ظهر في نقش على هذا القبر كلمة تاج وهي معروفة لدى الفرس وهذا يدل على مظهر من مظاهر سلطة ذلك الملك، ورفاهيته.

وما إن خلفه ابنه النعمان الأول على الحكم حتى نال شهرة كبيرة فقد أجمع الإخباريون على أنه كان صادقاً، ضابطاً لملكه، واجتمع له الكثير من الأموال والرقيق من العديد من غزواته، وكما اهتم بالحروب والحزم، فقد اهتم بالإعمار حيث بُنيَ في عهده قصري الخورنق وسدير.

ومن أشهر القصور التي بنيت في الحيرة، قصر الخورنق الذي بناه المهندس

المعماري الروماني سنمار وبنى هذا القصر مقابلاً للفرات شرق الحيرة، فقد تعجب من رآه لحسنه وإتقانه وروعته، وقد جلس النعمان يوما فيه ونظر إلى الطبيعة الخلابة، والمناظر الجذابة، فأخذته روعة المكان وجماله، وأدرك أن الدنيا لا محالة زائلة، فتزهد فيها تاركاً حكمه سائحاً (٦٧).

أما قصر السدير فقد أمر ببنائه النعمان أيضا"، اتخذه مجلساً لبعض ملوك العجم، ويقع قريباً من الخورنق فيما بين نهر الحيرة والنجف، وسمي بذلك الاسم: لكثرة سواده وشجره ونخيله، وكان به قباب ثلاث متداخلة، ويدل ذلك الفن في بنائه على دقة التصميم المعماري الحيري (٦٨).

ومن القصور أيضا" قصر العدسيين نسبة إلى جدتهم عدسة بنت مالك الكلبي وهو أول قصور الحيرة التي استولى عليها المسلمون وبناه بنو عمار بن عبد المسيح، أيضا" قصرا العذيب والصنبر، ينسبان إلى امرئ القيس بن النعمان بالقرب من الفرات، وقصور أخرى كثيرة.

وبعد أن بنوا القصور، أخذوا في بناء الأديرة ومنها يشار إلى دير اللج، وقد بناه النعمان بن المنذر (أبو قابوس) ولم يكن في الحيرة أحسن منه بناء وتصميماً، ولا أنزه منه موضعا" ومكانا" فقد كان يركب إليه النعمان كل يوم أحد ومعه خاصته من آل المنذر، عليهم حلل الديباج المذهبة، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب، فيصلون فيه ثم يعودون إلى النجف، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه، وخلع ووهب وحمل ووصل، وكان ذلك أحسن منظر وأجمله وكذلك يوجد أديرة أخرى مثل دير مريم ودير هند، امتازت بدقة البناء والتصميم، وزخارفها المدهونة وجدرانها ذوات الألوان الزاهية (٦٩).

---

(٦٧) الطبري : ج/١ - ص ٦٦-٤٠٥.

(٦٨) الحموي : معجم البلدان - ج/٣ - ص ٢٢٧.

(٦٩) ابن منظور : معجم ما استعجم - ج/٢ - ص ٥٩٥ - ٥٩٦.

وتميزت الحيرة بالازدهار العلمي والفني، فقد عمل ملوك الحيرة على تشجيع الشعراء الذين يمدحونهم ويمجدون تاريخهم بالعطايا والصلات، فوفد إليهم العديد من شعراء الجاهلية ونذكر منهم: المرقش الأصغر والأكبر، طرفة بن العبد، والمنخل اليشكري، وحسان بن ثابت، والنابغة الذبياني وعدد آخر منهم. فقد كان النعمان بن المنذر يجتمع في قصر الخورنق بأدباء العرب مقيماً مهرجاناً أدبيا. وكان النابغة الذبياني يرتاد بلاط النعمان بن المنذر فيمدحه، فأعجب بشعره فقربه منه، وأصبح جليسه وأنيسه وأغدق عليه من الأموال الكثير. كذلك كان الملك الحيري عمر ابن هند يستريح لمجالسة الشعراء فقد كانوا يفدون إليه من مختلف أصقاع الجزيرة، وينشدونه الشعر وينالون أعطياته وجوائزه.

فقد حضر النعمان بن المنذر مجمعاً أدبياً عند كسرى يجمع العديد من وفود العرب والهند والصين وفارس، فأخذ كل يمدح ملوك بلده، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على الجميع مما أثار غضب كسرى، وعند عودة النعمان إلى الحيرة جمع خطباء العرب وأدباءهم، وطلب منهم أن يردوا على رأي كسرى لتفضيله الفرس على العرب، ودعا لهم بما في خزائنه من طرف حلل الملوك، وأعطى كلاً منهم حلة، وعمامة، وخاتماً من ياقوت، وفرساً نجيبة، وبذلك ذهبوا إلى كسرى بفصاحتهم وأسلوبهم في تمجيد العرب، مما أثار حفيظة كسرى على النعمان بن المنذر وأدى إلى قتله في نهاية الأمر.

ومما يدل على مظاهر ترف ورفاهية ملوك الحيرة ما ذكر عن حرقة بنت النعمان ابن المنذر وسعد بن أبي وقاص ﷺ كانت حرقة إذا خرجت إلى بيعتها يُفرش طريقها بالحرير والديباج ثم تقبل في جواريها حتى تصل إلى بيعتها، وترجع إلى منزلها فلما هلك والدها نكبها الزمان فانزلها من الرفعة والترف والرفاهية إلى الذل والهوان، أتت لتقابل سعد بن أبي وقاص ﷺ عندما هزم الفرس وأصبح أميراً على القادسية

أتت حرقة مع بعض من قومها وجواريها: فقال سعد: أفيكن حرقة؟ قالت: ها أناذه قال: أنت حرقة قالت: نعم وأضافت: إن الدنيا دار زوال ولا تدوم على حال كنا ملوك هذا المصر يُجبى لنا خراجه وكل شيء أدبر وشُتت شملنا، وكذلك الدهر يا سعد إنه ليس يأتي قوماً بمسرة إلا ويعقبهم بحسرة وقد أكرمها سعد وأحسن جائزتها، وعندما خرجت من عند سعد سألها نساء المدينة: ما فعل بك الأمير؟ قالت: حاط لي ذمتي وأكرم وجهي إنما يكرم الكريم الكريم (٧٠). هذا دليل على ترف ورفاهية ملوك الحيرة وأبنائهم وهذه القصة دليل على ذلك ونجد كيف كانت حرقة، وكيف أصبحت، وكيف عاملها الإسلام الذي أكرمها في شخص الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، كذلك استجلب ملوك الحيرة المغنين والمغنيات كما ذاعت شهرة الغناء الحيري، والآلات الموسيقية الحيرية أصبحت ذات مكانة بين العرب مثل العود والمزمار والدف (٧١).

وخلاصة ذلك الأمر: أن المتتبع لسيرة حياة ملوك الحيرة وشعبها يلاحظ أنهم كانوا يعيشون في رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب، وكانوا أرقى عقلاً ومدنية من عرب الجزيرة بسبب تحضرهم ومجاورتهم واستفادتهم من حضارتين عظيمتين كانتا في ذلك العصر، وهما: حضارة الفرس، وعلمهم باللغة الفارسية حيث أدى ذلك إلى نقلهم لحضارة وآداب وعلوم الفرس إلى العرب، وحضارة البيزنطيين حيث تلقى عرب الحيرة شيئاً من العلوم والآداب اليونانية والرومانية بسبب تكوين الحكومة الفارسية مستعمرات سكانها من أسرى الحرب الرومانيين وكان منهم من يعلم بالعلوم المختلفة كالطب والهندسة والفنون والآداب ونزل بعض هؤلاء بالحيرة، فمن ذلك استفادوا في تقدمهم العلمي والاقتصادي الذي أصبح مزدهراً وذا مصادر عديدة، أدت بهم أن يتنعموا ويعيشوا في رفاهية لم تكن موجودة لأي دولة في ذلك العصر ومن

(٧٠) المسعودي: مروج الذهب - ج/٢ - ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٧١) سيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق - ص ٢٩٥.

تلك الرفاهية التي أدت إلى تبذير الأمول هنا وهناك ما بين خاصة الملوك واستجلاب الشعراء والمغنين والمغنيات وبناء القصور الشاهقة المتنوعة التصميم والأديرة المختلفة، والعمائر المنسقة حيث كان يطغى على جميع أبنية الحيرة اللون الأبيض، لذلك أطلق عليها اسم (الحيرة البيضاء) نظراً لامتدادها واتساعها وتنظيمها.

ويلاحظ أن هذه الرفاهية كانت مقتصرة على الملوك ومساعديهم ومستشاريهم وأما أهل الحيرة فلم ينلهم إلا النزر اليسير، فلو تم الاستفادة من ذلك الوضع الاقتصادي المزدهر لعامة الناس لكانوا في أفضل مما كانوا عليه.

بعد تلك الدراسة الشاملة للمجتمع القبلي بشقيه البدوي والحضري من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والإقطاع، ننتقل للفصل الثاني لتحديد الحالة الاقتصادية في بلاد الحجاز خصوصا مدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، وذلك قبيل البعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأجل التسليم.

الفصل الثاني

الحالة الاقتصادية في بلاد الحجاز

قبيل البعثة النبوية

الفصل الثاني

الحالة الاقتصادية في بلاد الحجاز قبيل البعثة النبوية

أولاً: أهمية الموقع الجغرافي والاقتصادي لجزيرة العرب وبلاد الحجاز

أ- جزيرة العرب

ب- بلاد الحجاز

١- الموقع والتضاريس والمناخ

٢- السكان ونشاطهم

٣- الأهمية الدينية والاقتصادية

ثانياً: مدن وحواضر الحجاز

أ- مدينة مكة المكرمة:

١- نشأتها وسكانها.

٢- الحالة الاقتصادية.

٣- مظاهر الثراء في مكة.

٤- سيطرة مكة على التجارة الخارجية.

ب- مدينة يثرب (المدينة المنورة):

١- نشأتها وسكانها.

٢- الحالة الاقتصادية.

ثالثاً: الوضع الاقتصادي لكل من المسلمين والمشركين عند بداية الدعوة

رابعاً: الأسس التي وضعها الرسول ﷺ للدولة الإسلامية في المدينة المنورة

أولا: أهمية الموقع الجغرافي والاقتصادي لجزيرة العرب وبلاد الحجاز:

أ- جزيرة العرب:

تمتاز جزيرة العرب بأهمية بالغة من ناحية موقعها الجغرافي، فبملاحظة حدودها الجغرافية فإن الخليج العربي يحدها من جهة الشرق، بالإضافة إلى جزء من العراق ومن الغرب يحدها البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، ومن الشمال يحدها بلاد الشام وجزء آخر من العراق والبحر الابيض المتوسط، أما من الجنوب فيحدها بحر العرب، فمن امتداد هذه الحدود يلاحظ مدى اتساعها وزيادة مساحتها التي تصل إلى حوالي مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع، حيث أن طولها يقارب إلى ألف ومائتا ميل تقريباً ومتوسط عرضها سبعمائة ميل.

ومن أهمية موقعها الطبيعي فهي محاطة بالرمال والصحاري لمسافات طويلة وهذا الوضع أعطاها المنعة ضد كل من يريد السيطرة عليها أو احتلالها لذلك لم تستطع أية دولة من الدول الكبيرة أن تفرض سيطرتها على جزيرة العرب، حيث بقي سكانها أحراراً على مر العصور، مع العلم أنها كانت تجاور أكبر وأعظم إمبراطوريتين في ذلك الوقت هما الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية (الفارسية)... فكانت هذه الصحاري كفيلة بصد هجمات هاتين الإمبراطوريتين.

وأما عن موقعها العالمي فإنها تقع بين قارات العالم القديمة آسيا وأفريقيا وأوروبا وتحتل مكانة ممتازة، وتلتقي بها براً وبحراً في معابر عديدة. هذا الموقع الطبيعي الهام أعطاها أهمية بالغة.

من ناحية التضاريس والسطح فتضم جزيرة العرب أراضي واسعة جداً تتحدر من الغرب نحو الشرق ومرتفعة في الغرب حيث جبال السروات موازية للبحر الأحمر

ويتراوح ارتفاعها ما بين عشرة آلاف قدم وثلاثة آلاف قدم وتبلغ قمة ارتفاعها في الشمال والجنوب، وتكون خلف مكة ثمانية آلاف قدم وقرب يثرب ثلاثة آلاف قدم تقريباً (١).

وتنحصر بين جبال السروات والبحر الأحمر منطقة تهامة ذات السواحل غير الصالحة للملاحة لزيادة شعبها المرجانية أما الأراضي الوسطى فتتكون من هضبة نجد، ما بين عسير والطائف، وفي جنوب جزيرة العرب توجد سلاسل جبلية تكثر فيها الوديان التي تسير في اتجاهات مختلفة.

وفي المنطقة الغربية توجد الحرار (٢) وتمتد حرار جزيرة العرب حتى تتصل بالحرار في بلاد الشام وتشتهر مناطق الحرارة بخصوبة تربتها الزراعية، ووفرة مياهها لا سيما حرار مدينة يثرب وخيبر، والتي استغلت بطريقة مفيدة أدت إلى استقرار السكان وزيادتهم، وإنشاء القرى السكنية الزراعية، كذلك ظهرت فيها عيون المياه بكثرة، وذلك جعلها موطناً من مواطن الحمى وسميت "حمى خيبر" (٣).

وبمتابعة دراسة سطح وتضاريس جزيرة العرب يلاحظ عدم وجود أية انهار بالمعنى المعروف اليوم ولكن قيل إنه كان يوجد أنهار قديمة، أحدها كان يمر بوادي الدواسر ينبع من منطقة نجران جنوباً متجهاً صوب الشمال حتى يصب في الخليج العربي سماه بطليموس (نهر لار Lar) وقد عثر على مساكن وقصور شيدت على ضفاف هذا النهر (٤).

يعتبر مناخ جزيرة العرب جافاً حاراً بوجه عام، على الرغم من أن البحار والأنهار تحيط بجزيرة العرب، إلا أن أبخرة البحار المتصاعدة لا تصل إلى أواسط الجزيرة العربية،

---

(١) أحمد الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول: ص ١٤-١٥.

(٢) الحِرَارُ: جمع حَرَّة: وهي أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار والحَرّة: أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة (من لسان اللسان تهذيب لسان العرب: لإبن منظور: جـ١ : ص ٢٤٥).

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان: جـ٢ : ص ٤٦٨.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جـ١ : ص ١٥٩

حيث تقوم رياح السموم بمقاومة هذه الأبخرة ومنعها من الوصول إلى وسط جزيرة العرب.

لذلك تعتبر معظم أراضي جزيرة العرب صحراوية على الرغم من سقوط الأمطار في بعض المناطق وتسيل على أثرها الوديان التي تصب في البحر الأحمر أو بحر العرب.

إلا أن المناطق الجنوبية وخصوصاً اليمن فهي كثيرة الأمطار بسبب الرياح الموسمية حيث اشتهرت بالزراعة والتجارة والحضارة، ويؤدي سقوط الأمطار إلى نمو الأعشاب إلى الازدهار الاقتصادي إلا أن غزارة الأمطار أحيانا تعرض البلاد إلى مخاطر كثيرة، فتخرب المنازل والزروع، ومن أمثلة ذلك ما حصل لشعب سبأ في اليمن، حيث أشار كتاب الله العزيز عن ذلك بقوله ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(٥).

وهكذا تشح الأمطار في أجزاء فتؤدي إلى الهجرة والتنقل والبحث عن الماء والكلأ وتزداد في أخرى فتؤدي إلى الدمار والخراب كما حصل باليمن فيرتحل العرب إلى الأمان والاستقرار كما في رحيل الأوس والخزرج إلى يثرب إثر حادث السيل العرم.. وإذا ما اعتدلت الأمطار فتسقي الناس وتروي الزرع وتنشط الزراعة وتقوم الحضارة، إن ظروف المناخ الصعبة في جزيرة العرب والمصحوبة بالحرارة الشديدة وانعدام الأمطار أدى إلى مقاومة البناء الحضاري، ومنع نشوء المجتمعات الكبرى، وحول الأرض إلى صحارى.

مما سبق يلاحظ أن جزيرة العرب اكتسبت من موقعها الجغرافي والاستراتيجي موقعاً تجارياً هاماً بين البلاد المجاورة، حيث تقع في طريق التجارة الدولية في ذلك الزمن، فشمالاً ترتبط القبائل العربية بالدولتين العظيمتين في ذلك الوقت دولة الفرس ودولة الروم، وجنوباً تقع بين الحبشة والهند في وسط الطريق بينهما بجانب

(٥) سورة سبأ: آية رقم (١٥)

وجودها بين الخليج العربي والبحر الأحمر.

هذه الأهمية العظمى لموقع جزيرة العرب فيما قبل البعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فإن موقعها الاستراتيجي والتجاري جعلها في طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب.

من ذلك نلاحظ أن هذا الموقع الجغرافي الهام جعلها جديرة بأن تكون مركزاً للدعوة النبوية، حيث اختار الله سبحانه وتعالى آخر رسله وآخر كتبه شاملاً لكل البشر ومنطلقاً من هذه البقعة الطاهرة التي شرفها الله سبحانه وتعالى... وازدادت أهميتها وشرفها في نهاية الأمر أن شرفها الله بأنها أنجبت آخر الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

قام جغرافيو العرب بتقسيم الجزيرة إلى خمسة أقسام هي:-

(١- تهامة ٢- الحجاز ٣- نجد ٤- العروض ٥- اليمن)

وزيدت في بعض المصادر الجغرافية والتاريخية إلى ثلاث مناطق أخرى هي:

(٦- بادية العراق ٧- بادية الجزيرة بالعراق ٨- بادية الشام) (٦).

ونركز في مجال هذا البحث على منطقة الحجاز لدراستها بإيجاز والحديث عنها وعن بعض مدنها وحواضرها.

ب - بلاد الحجاز:

١ - الموقع والتضاريس والمناخ:-

الحجاز هو الجبال الحاجزة بين الأرض العالية في شرقيه وهي نجد وبين الساحل الواطئ في غربيه وهي تهامة، وهي حاجز بين اليمن والشام قاعدتها مكة

(٦) أحمد الشريف: المرجع السابق: ص ٢٢.

المكرمة (٧) ويمتد الحجاز مابين الشمال والجنوب حوالي سبعمائة ميل (حوالي ١١٢٥ كيلومتر) وعرضه من الشرق إلى الغرب حوالي ثلاثمائة وخمسون ميلاً (حوالي ٦٥٠ كيلومتر).

ولدراسة تضاريس منطقة الحجاز يوجد بالحجاز الكثير من الجبال والعيون والأودية، فالجبال يبلغ أقصى ارتفاع لها في الجنوب حيث تساقط الأمطار والثلوج على قممها، ويبلغ أقل ارتفاع لها عند مدينة مكة المكرمة في جبل كرا، مابين مكة والطائف وارتفاعه مائتي متر تقريباً، وتبلغ جبال الطائف في ارتفاعها نحو ستمائة متر ومن أشهر الجبال بالحجاز جبال رضوى وتقع ما بين المدينة (يثرب) وينبع، ويقول ياقوت الحموي عن جبل رضوى " إنه جبل منيف ذو شعاب وأودية كثيرة المياه والأشجار "(٨) واتخذه العرب رمزاً للعزة والرسوخ، ويوجد بالحجاز - أيضاً - جبل السروات وهو جبل حاجز بين تهامة واليمن، عظيمة الطول والعرض والامتداد، وإنها كثيرة العيون والأنهار والأشجار وبأسفلها أودية تصبّ في البحر ويكثر بها العنب والقصب. (٩) وبها كذلك جبل قنا وهو عظيم شامخ، وجبل يسوم في بلاد هذيل بالقرب من مكة المكرمة، وبها جبل الحديد وسمي بذلك لصلابة حجره.

وبالحجاز أيضا" عيون ومن أهمها عين ضارج بين اليمن والحجاز تقع في موضع جاف لا ماء ولا حياة فيه، وعن هذه العين يقول إبراهيم بن اسحق الموصلي: (إن قوماً قدموا من اليمن إلى النبي ﷺ فضلوّا الطريق وأصابهم الظمأ الشديد ولحق بهم الاكتئاب وإذ أقبل ركب على بعير ينشد بعضهم أبياتاً لامرئ القيس)..

ولما رأت أن الشريعة هَمُّها ... وأنَّ البياض من فرائضها دامي

تيمَّمت العين التي عند ضارج ... يفيء عليَها الظل عرمها طامي

(٧) ياقوت الحموي: المصدر السابق: جـ٢: (ص ٢٥٢ - ٢٥٣).

(٨) ياقوت الحموي: المصدر السابق: جـ٣: ص ٥٨.

(٩) جبل السراة: وهو الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة واليمن (ياقوت الحموي: جـ ٣: ص ٢٣٠).

فقال الراكب: من قائل هذا الشعر، قالوا: امرؤ القيس، قال ﷺ: والله ما هكذا هذا ضارج، وأشاروا إليه فإذا هو ماءٌ عذب فشربوا وحملوا ما يكفيهم فلما أتوا رسول الله ﷺ. قالوا: يا رسول الله أحيانا الله ببيتين من شعر امرئ القيس. فقال: رسول الله ﷺ: ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها، منسيٌ في الآخرة يحيي يوم القيامة ومعه لواء الشعراء إلى النار (١٠).

وبها أيضاً عين المُشَقّق، وهذا اسم وادٍ بالحجاز، شرب منه الرسول ﷺ وصحبه في سيرهم لغزوة تبوك، فوضع يده المباركة فجعل يصب الماء في يده ودعا ربه فشرب الناس كلهم واستقوا حاجاتهم.

ويوجد بالحجاز أيضاً أودية وأعظمها وادي (إضم) وسيره مقارباً لمدينة يثرب، فيتصل به وادي العقيق، ثم وادي القُرى ويمر به طريق القوافل القديم الذي كان شرياناً من شرايين الحركة التجارية في العالم القديم، ثم يصب في البحر الأحمر عند قرية الوجه.

ومن أودية الحجاز - أيضاً - وادي الصفراء يكثر فيه الزرع والنخل أما منطقة السهول فهي التي تقع بين جبال السراة والبحر الأحمر وتسمى سهول تهامة وهي سهول حارة رطبة غير صحية في معظم أماكنها .

أما عن مناخ بلاد الحجاز، فهناك مناطق شديدة الحرارة تكاد تنعدم فيها المياه، جدباء وتحيط بها الجبال من كل مكان، يعيش أهلها على ما يجلب لها من الخارج كما هو الحال في مدينة مكة المكرمة.

وعلى عكس ذلك فهناك مناطق جيدة التربة، غزيرة الأمطار، لدرجة أن غزارتها هذه تهدم البيوت وتنزل الصواعق، وتتفجر العيون، وما تنبت من زرع

---

(١٠) أحمد بن الأمين الشنقيطي: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها - دار الكتب العلمية: بيروت: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م: ص ٤-٥.

وأشجار وأعناب ونخيل ورمان وزيتون وحبوب، كما هو الحال في مدينتي الطائف ويثرب وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا - لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا - وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾(١١).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ - أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا - ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا - فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا - وَعِنَبًا وَقَضْبًا - وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً - وَحَدَائِقَ غُلْبًا - وَفَاكِهَةً وَأَبًّا - مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾(١٢). ورغم أن الآيات السابقة لم تحدد المناطق إلا أنها تخاطب أهل الحجاز وأهل مكة بالدرجة الأولى، مشيرة إلى ما يحصل في الطائف وأرباضها، والوديان بين مكة وجدة ويثرب وأرباضها والقرى الأخرى(١٣).

إلا أن الجفاف الذي لحق ببلاد جزيرة العرب جميعاً - والحجاز بشكل خاص جعل معظم أراضيها صحراء جرداء، وباعد بين مراكز الاستقرار وقد أثر ذلك على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من حضر وبوادي الحجاز، فكثر الاعتماد على النظام القبلي، إلا أن بعض المدن الهامة التي نشأت وازدهرت بسبب مرور طرق التجارة العالمية بها مثل مدينتي مكة ويثرب، أصبحتا ذات نظام قبلي أشبه بالحكومات.

٢- السكان ونشاطهم:

معظم سكان بلاد الحجاز من البدو، إلا أن بعضهم من الحضر أقاموا مراكز سكنية وتجارية ودينية هامة في كل من مكة ويثرب، وكان سكانها مختلفين فمنهم العرب واليهود والنصارى والوثنيون.

---

(١١) سورة النبأ: الآيات: (١٤، ١٥، ١٦).

(١٢) سورة عبس: من الآية رقم (٢٤) - الآية (٣٢).

(١٣) أحمد الشريف: المرجع السابق: (ص ٣٢: ٣٣)

لقد كان للبداوة دور هام في الإطار العام لحياة أهل الحجاز فترة ما قبل الإسلام، حيث كان الاقتصاد البدوي القائم على الارتحال مع قطعان الماشية للبحث عن أماكن الكلأ والماء هو ناموس الحياة ومحورها الأساسي.

ومن المعلوم أن الحياة البدوية تعتمد على تربية الماشية خاصة الجمال والأغنام أساس النشاط اليومي للحياة القبلية للحصول على ما تأكله هذه المواشي. أدى هذا التنقل والترحال إلى عدم الاستقرار، وبالتالي عدم قيام حضارة مستقرة على أرض الحجاز قديماً.

وكما هو معروف ونظراً للظروف الصحراوية الصعبة فإن الزراعة لم تقم في بلاد الحجاز بشكل عام عدا وجود بعضها في مدينتي الطائف ويثرب، إلا أن مكة وهي أكبر مدن الحجاز، ومقر قبيلة قريش ومهبط الوحي فيما بعد، ومهد الإسلام ومستقر نبي هذه الأمة ﷺ لمعظم فترات حياته، لم تكن بها زراعة كما في مدن الحجاز الأخرى، ولما كانت مكة ذات أهمية كبيرة في تاريخ العرب قبل الإسلام، لذا يجب أن نتحدث عن هذه المدينة العظيمة ومكانتها الدينية والسياسية والاقتصادية قبل الإسلام (١٤).

ولم يكن للعرب في بلاد الحجاز إلا دور بسيط، فقد كان الفرس والروم ينظرون إليهم بقدر ما يستفيدون منهم لمصالحهم وتجارتهم، ومن بعض الخدمات التي يؤدونها لهم على الحدود، وما يهم الدولتين من تأمين طرق التجارة الدولية التي تمر ببلاد العرب.

ولا يخفى على كل مسلم أن الحجاز هي مولد الإسلام، ومبعث النور، ومصدر الهدى في كل مكان من هذه البقعة الطاهرة، قول، أو فعل، أو مشهد أو معركة

---

(١٤) نبيه عاقل: تاريخ العرب وعصر الرسول: دمشق: ١٩٦٨م ص٢٢٤ - ٢٢٥.

لرسولنا العظيم ﷺ ، فيه سجلت وكتبت أول نفحات التاريخ الإسلامي، وأول ينابيع الحضارة الإسلامية، من الحجاز انطلقت القيادات الإسلامية من مكة والمدينة لتبث النور في أصقاع المعمورة.

ارتفع شأن الحجاز ارتفاعاً كبيراً بظهور الإسلام وقامت فيه الدولة الإسلامية الأولى في مدينة يثرب بقيادة الرسول ﷺ ، فوحدت الحجاز، ووحدت جزيرة العرب تحت سلطانها.

٣- الأهمية الدينية و الاقتصادية:

تعتبر بلاد الحجاز من أهم مناطق جزيرة العرب من الناحيتين الدينية والاقتصادية وترجع أهمية الحجاز الدينية إلى حيث التقاء جميع الأديان فيها، الوثنية، واليهودية، والنصرانية ويوجد من سكان الحجاز الأصليين وثنيون وصابئون إلى جانب الإسلام أخيراً حيث ظهر فيما بعد (١٥).

وبذلك أصبح الحجاز ملتقى الأديان وحضاراتها، مما أثر في مجتمعه من حيث التطور والتقدم تم كل ذلك قبيل ظهور الإسلام، كما أنه في نهاية القرن السادس الميلادي، سن زعيمها هاشم بن عبد مناف رحلتي الشتاء والصيف وأمن لهم زعيمهم معابر تجارتهم، وعقد الإيلاف مع قيصر الروم بالشام ومع القبائل العربية التي تقطن بمعابر وطرق التجارة كي يأمن غدرهم وسلامة تجارته وعقد الإيلاف - أيضاً - مع ملك الحبشة وملوك اليمن والعراق، وبذلك نشطت تجارة قريش برحلتيها المشهورتين وساعدها ذلك على احتكار التجارة مع الهند والحبشة واليمن والعراق، واستفادت من الحروب المستمرة بين كل من الفرس والروم وحاجة هاتين الدولتين بالطرق التجارية المارة بالحجاز.

---

(١٥) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية: ص٣٤١.

وساعد موقع الحجاز التجاري الهام على قيام المدن التجارية في مكة والطائف ويثرب وازدهرت هذه المدن أيضا" بسبب قربها من الأسواق التجارية المشهورة في الحجاز التي تعقد في الأشهر الحرم مثل سوق عكاظ، وسوق مجنة، وسوق حباشة، وسوق ذي المجاز. كما وأن أهمية الحجاز ترجع إلى توسطها لمراكز الحضارات العريقة القديمة في كل من العراق ومصر والشام واليمن (١٦).

أما من ناحية موقعها الاقتصادي والاستراتيجي، فإن لمنطقة الحجاز أهمية بالغة ذلك يرجع لوجود الطريق التجاري البري الذي يصل بين جنوب وشمال جزيرة العرب، وهذا يعتبر من شرايين التجارة العالمية في ذلك الوقت، (وهي ملتقى قوافل تجارة اليمن والشام، والتجارة العالمية بين الهند ومصر ودول شرق البحر الأبيض المتوسط) (١٧).

وقد كان يوجد على سواحل هذا الطريق التجاري أراض غنية بمحاصيلها الزراعية ومرافق بحرية ذات أهمية بالغة للتجّار وسفنهم وأموالهم.

هذه الأهمية جعلت الدول الكبرى تقوم بالبحث عن الطرق والوسائل المختلفة للاستيلاء على كل من مصر والشام لتنطلق إلى بلاد الحجاز للسيطرة على مدنها وحواضرها ذات الأهمية الاستراتيجية، وقد قاموا بمحاولات عديدة.

فقد أخذ الرومان يتطلعون إلى طريقة تساعدهم للسيطرة على الطريق التجاري الذي يربط الهند عبر البحر الأحمر، فسيروا حملة بقيادة اليوس جالوس، مستعينين فيها بفرقة عسكرية نبطية، إلا أن هذه الحملة قد فشلت.(١٨)

---

(١٦) عواطف سلامه: قريش ودورها السياسي والاقتصادي والديني قبل الإسلام رسالة ماجستير-جامعة الملك سعود: ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م: ص٣.

(١٧) نفس المرجع السابق: نفس الصفحة.

(١٨) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق: ص ٣٤٢.

ثم حاولوا مرة أخرى بحملة ثانية في عهد الإمبراطور جستنيان للسيطرة على نفس الطريق لتوحيد الأقطار المطلة على البحر الأحمر حتى يكوّنوا جبهة قوية ضد عدوهم اللدود الدولة الفارسية.

وحاول الروم البيزنطيون محاولة ثالثة للاستيلاء على بلاد الحجاز بواسطة حلفائهم الأحباش، فسار القائد الحبشي أبرهة من اليمن في عام ٥٧٠م (وهو العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ). على رأس جيش حبشي للاستيلاء على مكة لصالح البيزنطيين. إلا أن هذا الجيش قد شرّد وهزم عند مكة بقوة وإرادة الله سبحانه وتعالى، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ـ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ـ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ـ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ـ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾(١٩).

وهكذا هُزم الجيش الحبشي عميل البيزنطيين لأن للبيت ربا" يحميه.. ثم طردوا بعد ذلك من اليمن على يد سيف بن ذي يزن بعد خمس سنوات من حملتهم على مكة وتقلص نفوذ البيزنطيين وبعد هزيمة جيش أبرهة علا أمر مكة المكرمة وشأن قريش.

ثانياً: مدن وحواضر الحجاز:

يشتمل الحجاز على كثير من المدن والقرى من أهمها: مكة ويثرب والطائف وخيبر وخلافها، وفي هذا المكان سأخصص البحث عن أهم مدينتين كان لهما الأثر الكبير والواضح للحضارة العربية والإسلامية قبل الإسلام وبعده، هما مدينتا مكة المكرمة ويثرب (المدينة المنورة).

أ – مدينة مكة المكرمة:

تعتبر مكة أهم مدن وحواضر بلاد الحجاز بدأت مكة المكرمة كقرية في وادٍ غير

(١٩) سورة الفيل.

ذي زرع تحيط به الجبال من جميع الجهات وهي أيضا" مدينة عربية خالصة سكانها متجانسون تسيطر عليها قبيلة قريش التي حرصت على وحدة المدينة وتماسكها فحظيت بنوع من الاستقرار لم تحلم به نواحي جزيرة العرب الأخرى وحظيت بنوع من التنظيم الإداري في شؤون الحكم أدى بها إلى التقدم والازدهار الاجتماعي والديني والاقتصادي والسياسي، تمتاز بموقعها الجغرافي والاقتصادي في وسط الطريق التجاري الرئيسي بين الشام واليمن.

مكة مدينة قديمة ورد اسمها في القرآن الكريم فقد ذكر أسم مكة في قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٠) فاسم مكة مأخوذ من قول: تَمككت المخ من العظم تمككا، إذا استخرجته منه لأنها تمك الفاجر عنها وتخرجه منها وسميت مكة لأنها تمك الذنوب وتذهب بها من قولهم مك الفصيل ضرع أمة، وذكر اسم بكة في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢١). قال الأصمعي وسميت بكة لأن الناس يبك بعضهم بعضاً فيها (أي يتباكون ويزدحمون فيها).

واختلفت العرب في الاسمين، فقال قوم هما لغتان والمسمى بهما واحد لأن العرب تبدل الميم بالباء أحيانا. وهذا قول مجاهد. وقال آخرون: بل هما اسمان والمسمى بهما شيئان فقيل إن مكة اسم البلد كله، وبكة اسم البيت، وهذا قول إبراهيم النخعي ويحيى بن أبي أيوب وعطية ويقال إن مكة الحرم كله، وبكة المسجد وهذا قول الزهري وزيد بن أسلم.ويقول عكرمة: (بكة ما ولى البيت ومكة ما وراء ذلك).

(٢٠) سورة الفتح: آية رقم (٢٤).

(٢١) سورة آل عمران: آية رقم (٩٦).

وقال مجاهد إن لها اسمين أيضاً هما: أم زحم، فأما أم زحم فلأن الناس يتزاحمون بها، وسميت - أيضاً - أم القرى فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(٢٢).

كذلك ورد اسم مكة في المصادر التاريخية اليونانية والرومانية القديمة باسم (ماكورابا) كما ذكرها الجغرافي بطليموس الاسكندري. وأصل هذه مأخوذة من لغة قبائل الجنوب اليمنية، واسم ماكورابا أو مكرب تتكون من كلمتين: (ملك: ومعناها بيت، ورب) فيكون المعنى بيت الرب، أو وادي الرب، أو بيت الله، وتعني الوادي العظيم ويقول المؤرخ بروكلمان: (إنها مأخوذة من كلمة مقرب) باللغة العربية في الجنوب، ويقصد بها الهيكل. وقيل اسمها (بعلبك) أي الوادي البعل. أي واد بدون زرع (٢٣) وفي النهاية كلها أسماء لمسمى واحد فتبقى مكة هي البلد الحرام وقبلة المسلمين، ومأواهم الأمن وبلدهم الأمين، وتبقى هي خير الأرض وأحب بقعة لرسول الله ﷺ، وكافة المسلمين.

١ - نشأتها وسكانها:

إنه لمن الصعب معرفة وتحديد تاريخ قيام مدينة مكة فمن الثابت - كما ورد في القرآن الكريم أن سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما الصلاة والسلام قد أقاما البيت الحرام في وادي مكة، وهذا يدلنا على أن إسماعيل عليه الصلاة والسلام هو أول من اتخذ من مكة مقاماً وسكنا"، حيث كانت فيما قبل مجرد محطة توقف واستراحة لرجال القوافل القادمين من الشمال والجنوب. قال تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ

---

(٢٢) سورة الشورى: آية رقم (٧).

(٢٣) الحموي: المصدر السابق: جـ١ ص٥٣٧ وما بعدها.

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (٢٤) وهكذا تدلنا هذه الآيات على أن سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل بدأ على يديهما بناء مكة، الكعبة المشرفة أو بيت الله الحرام.

وتفيد بعض الروايات الإخبارية بأن قبيلة جرهم اليمنية هي أولى القبائل التي أقامت بمكة، واستقرت بها بعد أن انفجرت ماء زمزم حيث أقامت السيدة هاجر وابنها إسماعيل عليها وشجع ذلك بعض القبائل للإقامة بجوار زمزم.

وتخبر رواية أخرى بتواجد قوم من العماليق في نفس المكان حيث أقام إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت الحرام. ثم شب سيدنا إسماعيل فتزوج فتاة جرهمية، وأخذت جرهم تلي أمر البيت فترة من الزمن، وأبناء إسماعيل مع أخوالهم لا يريدون منازعتهم أمر البيت. وقد عظمت شوكة جرهم، وقوي نفوذهم وعاثوا في البلاد فسادا"، واستحلوا أموال الكعبة واضطهدوا حجاج بيت الله الحرام. (٢٥) وقيل إن جرهم وسيدنا إسماعيل حكما مكة معاً. وبقي ذلك الحال في مكة المكرمة حتى قدمت قبيلة يمنية أخرى هاجرت من الجنوب بعد حادثة انهيار سد مأرب. على أثر سيل العرم، وهي قبيلة خزاعة. أحد بطون الأزد، واحتكت خزاعة بجرهم فنشب قتال بينهما انتصرت فيه خزاعة وقويت فأجلت جرهماً وانتزعت منها السيادة على مكة والبيت الحرام، استمرت ولاية خزاعه نحوا" من ثلاثمائة إلى خمسمائة سنة وفي هذه الفترة أدخلوا إلى مكة عبادة الأوثان والأصنام وهذا العهد يعتبر عهد سوء لأنهم أول من جلبوا الأصنام لمكة (٢٦).

بدأت مكة المكرمة في عهد خزاعة بالتطور، حيث عمل زعيم خزاعة (عمر ابن لحي الخزاعي) - وهو أول من أدخل الأصنام من الشام إلى مكة - على تنشيط الحج

(٢٤) سورة البقرة: الآيتان (١٢٧) - (١٢٨).

(٢٥) إبن هشام: السيرة النبوية: جـ١: ص ١١٣ وما بعدها الطبري: جـ١: ص ١٧٩.

(٢٦) إبن هشام: المصدر السابق: جـ١: ص ٧٦ - ٧٧.

جواد علي: المرجع السابق: جـ٣: ص ١٥٦ - ١٥٧.

وإقامة الموائد للحجاج وجلب الماء إليهم ويقال إن بني كنانة أقاموا حول وادي مكة وكان بيدهم بعض مناصب الحج. مما سبق يلاحظ أن الذين سكنوا مكة أقوام مختلفون وساعدهم على الاستقرار ظهور ماء زمزم وتكاثر السكان ونموهم المطرد.

يبدأ تاريخ مكة الحقيقي في منتصف القرن الخامس الميلادي حوالي سنة ٤٤٠م حيث استقرت قريش في عهد قصي بن كلاب في مكة، فقد حافظ على وحدة وقوة قبيلته، حتى سميت مكة في تلك الفترة بدار قريش.

استقر قصي بمكة وصاهر زعيم خزاعة فتزوج ابنته حُبىّ. وكثر ماله وولده وقد رتب خطة تدل على دهائه وقوة شخصيته، حيث اتصل بعشائر قريش وبطونها وحالف بطون كنانة، ووحد كلمتهم، فلما مات صهره زعيم خزاعة (حليل بن حبشيه) استولى على مفتاح الكعبة وأعلن عن أحقيته بذلك، وعارضت خزاعة ذلك ونشب قتال بين قصي وأتباعه. وخزاعة معها بنو بكر وأجلاهما عن مكة وفرض سيطرته على بطون كنانه حتى اجتمعت في يده كل مناصب السيادة في مكة. وهي: (الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة والقيادة)، فحاز على شرف مكة كلها وأصبح قصي بن كلاب صاحب الكلمة العليا في بيت الله الحرام. وأنشأ لمكة تنظيماً سياسياً ودينياً واقتصادياً.

بعد أن استقرت كل الأمور بيد قصي وكثر ولده وهم (عبد الدار - عبد مناف - عبد العزه) وزاد ماله وعظم جاهه وشرفه، أمر ببناء دور قريش حول الكعبة وأخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، وفيها تقضي قريش أمورها ويتشاورون فيها بأمورهم ويعقدون فيها الألوية وقد فرض على قبيلته الرفادة وهي جمع الطعام للحجيج (٢٧).

---

(٢٧) إبن هشام: المصدر السابق: جـ١: ص ١٢٤ - ١٢٥.
الطبري: المصدر السابق: جـ٢: ص ١٥.

كان قصي يؤثر ابنه الأكبر عبد الدار على جميع بنيه، فأناط إليه جميع المهام التي كان يقوم بها، ولما مات أجمع باقي بنيه على أن يأخذوا من عبد الدار ما آثره به أبوه ورأوا أنهم أولى منه بذلك، وتفرقت قريش وأصبحت حزبين أجمع كل حزب على محاربة الآخر إلا أنهم تداعوا إلى الصلح بأن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، وتحاجز الحزبان عن الحرب وظل حالهم هكذا حتى ظهور الإسلام (٢٨).

وقد ظهر خلاف آخر في قريش حين هُدمت الكعبة، ودب الخلاف بين صفوفها على من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه من البناء، إثر تجديد بناء الكعبة لكن الخلاف ما لبث أن حسم بالتحكيم على يد نبي هذه الأمة محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ﷺ قبيل البعثة.

وقد استمرت الخلافات والتناحرات بين زعماء قريش، هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، إلا أنه رغم كل هذه الخلافات فقد استطاع رجال وزعماء قريش المحافظة على وحدة قبيلتهم وتماسكها.

٢ - الحالة الاقتصادية:

لقد كانت التجارة والتي تقودها قريش في بداية الأمر مقتصرة على مكة فعانى القرشيون من ذلك، ولكي يتمكنوا من توسيع تجارتهم وتأمين طرقها، غادر سيدهم هاشم بن عبد مناف إلى أرض الشام متجهاً إلى قيصر الروم لعقد الاتفاقيات التجارية معه لتأمين سير القوافل العربية، وما أن وصل هناك حتى شاع عنه الكرم والسماحة والشجاعة، وبلغ ذلك قيصر الروم فأرسل إليه مجتمعاً به، معجباً بكلامه فبادره سيد قريش قائلاً: (أيها الملك لي قوم وهم تجار العرب فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم، ويؤمن تجارتهم حتى يأتوا بها من الحجاز) ففعل قيصر ذلك.

(٢٨) ابن هشام: المصدر السابق: جـ ١: ص ١٣٢.

فأخذ سيد قريش كلما مر بحي من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف (العهد) أن يأمنوا عندهم، وفي أرضهم فأخذوا الإيلاف من مكة والشام.(٢٩) وقد ذكر البلاذري: أن هاشم بن عبد مناف أخذ لقريش عصماً من ملوك الشام فتاجروا آمنين، وإن آخاه عبد شمس أخذ لهم عصماً من صاحب الحبشة، وأخذ لهم عبد المطلب بن عبد مناف عصماً من ملوك اليمن، ونوفل بن عبد مناف أخذ عصماً من ملوك العراق فألفوا الرحلتين العظيمتين رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، (٣٠) هذا عدا الرحلات الأخرى فقال سبحانه وتعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (٣١) وكذلك عقد القرشيون معاهدات تجارية مع أمراء وشيوخ وملوك في الجزيرة العربية مع أمراء اليمامة، وشيوخ قيس وملوك الغساسنة والحيرة واليمن.

فرضت قريش الإتاوات على التجار الغرباء وعلى تجار العرب الذين لا يرتبطون مع قبيلة قريش بحلف تجاري، وفرضت ضريبة العشور على كل من يدخل مكة من تجار الروم، وتشير المصادر العربية والتاريخية القديمة إلى وجود عدد من تجار الروم يعملون في مناطق تجارية بمكة وأصبح بعضهم موالي لأشراف مكة ومن اؤلئك النفر نسطاس مولى صفوان بن أمية ويوحنا مولى صهيب الرومي ثم صهيب الرومي نفسه أصبح مولى لعبد الله بن جدعان، وكان يقيم في مكة أقباط تجار ومهنيون وبذلك نجد أن عدداً من الفرس والروم والأقباط قد اندسوا بين تجار مكة بغية التجسس على تجار العرب والعمل معهم في تجارتهم.

وكان للعرب أسواق مشهورة ساعدت على ازدهار مدن الحجاز وخاصة مكة من

(٢٩) نبيه عاقل: المرجع السابق: ص ٢٥٢.

(٣٠) البلاذري: أنساب الأشراف: جـ١: ص ٦٦.

(٣١) سورة قريش.

أهمها سوق عكاظ، وكان يقام بين مكة والطائف وينزل بها قريش ولفيف من العرب الآخرين من أنحاء جزيرة العرب وأكثرها قبائل مضر، وهي من أشهر أسواق العرب على الإطلاق وسوق مجنة يقع أسفل مكة المكرمة وهو لبني كنانة، وسوق ذي المجاز وهو لهذيل وكان بالقرب من عرفة ويوجد أسواق أخرى لها مواسم مختلفة خلال السنة.

كان الناس يخرجون في موسم الحج فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تنشط فيه أسواقهم وتجارتهم وتزداد حركة البيع والشراء بعدها ينصرفون إلى سوق مجنه فيقيمون فيه عشراً فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى سوق ذي المجاز فأقاموا به ثمان ليالٍ أسواقهم قائمة ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة فيتروون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز (٣٢).

ففي هذه الأسواق وفي موسم الحج خاصة كان يتم اللقاء والتعارف والاجتماع، وتبرم فيه العقود التجارية بين الحجاج وتجار مكة وهذه أيضاً من مصادر ثراء مدينة مكة قبيل الإسلام وحينما يتم الحديث عن أسباب الثراء في مكة وعن تقدمها التجاري لا ننسى أبداً ما كانوا يتعاملون به من الربا حيث كان مظهراً واضحاً من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية وكان في بعض الأحيان يبلغ أضعاف القرض، وبذلك تؤكل حقوق الأفراد، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾(٣٣).

لقد شغل الربا الجزء الأكبر من المعاملات التجارية والاقتصادية في مدن الحجاز

---

(٣٢) الأزرقي: أخبار مكة: تحقيق: رشدي الصالح ملحس: دار الأندلس: ١٤١٦هـ - ١٩٨٦م: جـ١: ص ١٨٧ - ١٨٨.

السيد عبد العزيز سالم: المصدر السابق: ص ٣٦٠ - ٣٤٥

أبو شهبه: السيرة النبوية: دار القلم: دمشق: الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م: جـ ١: ص ١٠١

(٣٣) سورة الروم: آية رقم (٣٩).

وكان مستأصلاً في دمائهم وأموالهم ومعاملاتهم، وما أن أتى الإسلام حتى حارب هذا النوع من الربا، وإن القرآن الكريم اعتبر الذين يعملون بالربا بأنهم يحاربون الله ورسوله فيقول سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (٣٤) وقد حارب الإسلام الربا بقوة لما له من آثار مدمرة على الاقتصاد وعلى الأفراد.

ويكمل الدورة الاقتصادية والتي كان في ذروتها تجارة مكة الداخلية والخارجية، وأسباب نجاحها، النشاط الزراعي والرعوي والصناعي في مكة، فحيث إن مكة مدينة غير صالحة للزراعة كانت تعتمد على ما تنبته المناطق التي تحيط بها فيما بين مكة وجدة ومكة والطائف وما بها من زروع وكروم ونخيل وزيتون ورمان وفاكهة والقمح والشعير، كما يوجد عدد من سكان وتجار مكة يملكون بعض المزارع والحدائق وآبار المياه في الطائف وما جاورها فقد كان لعتبة وشيبة ابنا ربيعة بستاناً كبيراً في الطائف، وعمل أهل مكة أيضاً بالرعي وتربية الماشية من إبل وغنم وأبقار وبما أن مكة كانت من أكبر المدن التجارية في بلاد الحجاز، فقد اعتمدت في تسيير قوافلها على الإبل فلابد أن توفر هذه الأعداد من الإبل ولا يمكن أن تكون قد استأجرت تلك الأعداد من الإبل لقوافلها.. فذلك ينقص من فوائدها وأرباحها التجارية(٣٥).

أما عن النشاط الصناعي، فإن الثراء الذي كان يعيشه أهل مكة يتطلب نوعاً من الرفاهية وصناعة الأدوات التي تتطلبها الحياة اليومية، لقد ورد في آيات من القرآن الكريم الكثير من الأدوات والصناعات التي تلائم حياة أهل الحضارة.

لقد كان أهل مكة والحجاز يستعملون معظم ما نزل من القرآن الكريم من المواد والأثاث التي كانوا يستعملونها ويملكونها قبل البعثة وقبل نزول القرآن، صناعة

---

(٣٤) سورة البقرة: الآيتان: (٢٧٨) - (٢٧٩).

(٣٥) أحمد الشريف: المصدر السابق: ص ٢٣٨.

الفخار والأباريق والصحاف وصناعة الأسّرة والأرائك (٣٦) وما جاء في القرآن الكريم عن أسماء تلك الصناعات وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ـ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ (سورة الإنسان - آية ١٥-١٦)

وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ (سورة الإنسان -آية ١٧)

وقال تعالى: ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ (سورة الواقعه - آية ١٨)

وقال تعالى ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (سورة الزخرف - آية ٧١).

قال تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (سورة الغاشية - آية ١٣)

وقال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ـ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ (سورة الواقعه - آية ١٨)

وقال تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا ﴾ (سورة الإنسان - آية ١٣) (٣٧).

فقد كان أهل مكة يعملون في صناعة الأسلحة مثل (الرماح والسكاكين والسيوف والنبال والدروع) ومنهم سعد بن أبي وقاص يبري النبال وكان الوليد بن المغيرة والعاص ابن هشام حدادين، وخباب بن الارث سيافاً، وعتبة بن أبي وقاص نجاراً (٣٨) من ذلك

(٣٦) السيد عبد العزيز سالم: المصدر السابق: ص ٣٦٥ - ٣٦٦.
(٣٧) السور والآيات حسب الترتيب: سورة الانسان: آية رقم (١٥) - (١٧)
سورة الواقعة: آية رقم (١٨)
سورة الزخرف: آية رقم (٧١) سورة الغاشية: آية رقم (١٣)
سورة الواقعة: آية رقم (١٧)
سورة الانسان: آية رقم (١٣).
(٣٨) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق: ص ٣٦٥

يتضح مدى التقدم والرفاهية لأهل مكة في استعمال هذه الصناعات الفاخرة والثمينة وما ذكر من الآيات السابقة يدلنا على استعمال أهل مكة لهذه الصناعات، فبعضها كان يصنع محلياً يقوم بصناعته أهل مكة من عرب وجاليات يهودية ونصرانية ومصرية وحبشية ورومية كانوا يقومون بكثير من تلك الأعمال الصناعية أما البعض الآخر فقد كان يُشترى من الأسواق التي كانت تقدم الكثير من منتجات الدول المجاورة مع قوافلها المارة في الطرق التجارية العالمية (٣٩).

وقد نتج عن تلك الأعمال التجارية والصناعية وخلافها معرفة أهل مكة بالكتابة والحساب حيث كان للأعمال الحسابية من ضرب وقسمة وجمع وطرح الدور الكبير في إتمام العمليات والصفقات التجارية وهذا يدل على سعة الأفق وكثرة التعامل مع الآخرين ومعرفتهم بالمكاييل والمقاييس والموازين، فمن المكاييل التي استخدمت قبل الإسلام الصاع، والمد، المكوك، وهي معروفة عند العرب.

ومن الموازين الرطل والأوقية والنش (نصف أوقية) والدرهم والمثقال. ومن هذه الموازين المضبوط وغير المضبوط، وقد حثت الآيات القرآنية على استعمال الموازين والمقاييس المضبوطة، مما يدل على أن الغش والفساد كان موجوداً في أساليب التجارة بالجاهلية.

وعن تلك الأعمال التجارية ظهر نظام الأمانات والودائع والصكوك ونظام النقد وخلاف ذلك مما يتطلبه العمل بالتجارة، فقد كان تجار جزيرة العرب ومكة بشكل خاص يتداولون فيما بينهم بالدينار والدرهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى وحدة الدينار في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٠).

(٣٩) أحمد الشريف: المرجع السابق: ص ٢٤٢.

(٤٠) سورة آل عمران: آية رقم (٧٥).

ومن المعروف أن بلاد الحجاز لم يكن بها دار لسك العملة، وكانت تتعامل تجارياً مع الدولتين الفارسية والبيزنطية بهاتين الوحدتين النقديتين.

لقد استفاد أهل مكة من تلك الدورة التجارية المتكاملة حيث تعلموا الكتابة من الأنباط والمناذرة، وعرفوا بعضاً من أنواع الأدوية من الأحباش، ومن الروم والفرس استفادوا من مظاهر حضارتهم وتقدمهم الاجتماعي والثقافي.وقد أدى ذلك إلى ظهور طبقة من أثرياء مكة.

فأصبحت مكة مدينة حضارية متطورة نالت من التقدم الحضاري والاقتصادي من جميع الجهات التي تعاملت معها، ثم أخذت في مد سيطرتها إلى المناطق المجاورة فقد أخذت قريش في استثمار أموالها التي جلبتها من أرباح التجارة المختلفة في الزراعة حيث اشترى وامتلك بعض كبار تجارها أرضا" زراعية في المدن والقرى القريبة من مكة وعلى وجه الخصوص بمدينة الطائف - كما ذكرت سابقاً -، فأصبحوا يمتلكون البساتين الكثيرة والكبيرة وأدى ذلك بدوره إلى تدفق المنتجات الزراعية من الطائف إلى مكة التي ينقصها الإنتاج الزراعي اللازم للحياة اليومية.

وبذلك استطاعت قريش توفير ما يلزمها من مواد غذائية وطعام للحجاج الوافدين إلى مكة، حيث مسؤوليتها عن الرفادة.

أما في السنوات العجاف فكانت قريش تستورد ما يلزمها من المواد الغذائية والزراعية من بلاد الشام، وحيث إن قريشا كانت مسؤولة عن السقاية أيضاً فيجب عليها أن توفر المياه الصالحة للشرب للحجاج القادمين، وبذلك كانت تستورد الزبيب لتحلي به مياه الشرب وتخفف ملوحتها، ونظراً لما تمتاز به الطائف من موقع جغرافي من اعتدال مناخها وارتفاع أرضها وكثرة بساتينها، اتخذ منها المكيون مصيفاً.

٣- مظاهر الثراء في مكة:

يدلنا على ثراء مكة، عندما هُزمت قريش في غزوة بدر سنة (٢هـ/٦٢٤م)، ما دفعوه من فديات لأسراهم في بدر، فقد جعل رسول الله ﷺ الفداء في ذلك اليوم أربعة آلاف للأسرى ذوي الأسر الثرية، وثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف وهذا القوم ليس لديهم إلا قليل من المال.

وقد كان أبو وداعة بن ضبيرة أول أسير مكي افتداه ابنه المطلب بأربعة آلاف، حيث قال رسول الله ﷺ عن أبي وداعة: (إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال وقد جاءكم في طلب فداء أبيه، فقدم المدينة ليلاً وأخذ أباه بأربعة آلاف درهم وانطلق به) (٤١).

ومن مظاهر ثراء أهل مكة - أيضاً - أن قافلتهم إلى الشام يوم بدر كانت تتكون من ألف بعير، فيها أموال كثيرة بلغت نحو خمسين ألف دينار، وكان أكثرها لآل سعد ابن العاص بن أمية الذي كان له فيها حوالي ثلاثين ألف دينار وكان فيها لبني مخزوم مائتا بعير، وأربعة آلاف مثقال، وكان لأمية بن خلف ألفا مثقال، وكان لبني عبد مناف عشرة آلاف مثقال وكانت وجهتهم إلى غزة.

مما سبق يلاحظ الثراء الذي كانت تعيشه مكة في كنف تجارة قريش، فتلك أموال قافلة واحدة في بدر، ولقبيلة مكية واحدة، وهنا يظهر مدى ثراء أهل مكة قياساً على هذه القافلة ولما للقبائل الأخرى من ثراء.

أيضاً كانت أسرة بني مخزوم فاحشة الثراء، ومنهم الوليد بن المغيرة بن عبد الله ابن مخزوم (سيد بني مخزوم) ومنهم عبد الله بن أبي ربيعة، كان يلقب بعدل قريش وهو تاجر غني من أثرياء مكة تبرع بخمسمائة دينار لمقاتلة رسول الله ﷺ. وكان أبو

(٤١) إبن هشام: المصدر السابق: جـ١: ص ٦٤٨ - ٦٤٩

مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، فقد عارض الوليد نزول الوحي على نبينا محمد ﷺ فقال الوليد: (أُنزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظماء القريتين) (٤٢).

وأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك قائلاً: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٤٣) ودليل آخر على فحش ثراء رجال من قريش هو افتداء خالد بن هشام بن المغيرة، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأمية بن أبي حذيفه ابن المغيرة بأثني عشر ألف درهم يوم بدر.

وكان عبد الله بن جدعان يعمل بتجارة الرقيق وكانت تدر عليه أرباحاً كثيرة فقد أرسل قافلة إلى الشام تتكون من ألفي بعير كي تحمل إليه البر والسمن والشهد وكان يشرب في كأس من الذهب، ولقب بحاسي الذهب. وصفوان بن أمية كان يعمل في تجارة السلاح والفضة والآنية (٤٤).

هذه بعض علامات ثراء مكة وتجارها وانتزاعهم لمقومات وعوامل نجاح التجارة داخلياً وخارجياً في بداية القرن السادس الميلادي.

وما أن جاءت البعثة النبوية العظيمة حتى كان معظم معارضيها من أولئك النفر الذين كانوا يسيطرون على تجارة مكة وأقوات قريش وأصحاب القوافل التجارية.

٤- سيطرة مكة على التجارة الخارجية: -

أصبحت مكة في بداية القرن السادس الميلادي تمسك بزمام التجارة في بلاد العرب، ففيها وحولها تنعقد أعظم أسواق العرب التجارية والأدبية، وقوافلها تجوب أطراف جزيرة العرب والذي أدى بمكة إلى ذلك النشاط والنجاح في التجارة هو:

(٤٢) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق: ص ٣٦٢ - ٣٦٣.

(٤٣) سورة الزخرف: آية رقم (٣١).

(٤٤) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق: ص ٣٦٢ - ٣٦٣.

موقعها الممتاز وسط الطريق التجاري البري المار بالحجاز، كما أن وجود البيت الحرام ووفود الحجاج إليه في كل عام، كذلك بعد مكة عن منطقة الصراع الدولي فحافظت على موقعها وعروبتها - بين الفرس والروم. وأيضاً نلاحظ أن بعدها وصعوبة الوصول إليها عمل ذلك على منع الجيوش المتحاربة من السيطرة عليها، وعليه احتفظت بطابعها العربي الأصيل.

إلا أن الحملة العسكرية الوحيدة التي وصلت إليها، هي الحملة الحبشية بقيادة أبرهة الأشرم سنة ٥٧٠م، وباءت بالفشل بإرادة الله سبحانه وتعالى.

كما أن موقف مكة الحيادي أتاح لها أن تقوم بنقل التجارة من وإلى كل من الطرفين المتنازعين، (الروم والفرس) بذلك استفادت مكة من موقعها الجغرافي الممتاز، وحيث أنها كانت بلداً غير ذي زرع، فقد اعتمدت على التجارة الداخلية في بداية الأمر ثم أصبحت سيدة التجارة الخارجية للأسباب التي تم ذكرها سابقاً.

كذلك ساعدها موقعها الجغرافي على أن تقوم بالوساطة التجارية بين الهند والدولة البيزنطية، حيث كان البيزنطيون في حاجة ماسة لمنتجات الشرق لإبراز مظاهر العظمة في البلاط الإمبراطوري لأن الأباطرة كانوا يحيطون أنفسهم بحاشيات مترفة ذات ثياب حريرية وأقمشة راقية، وكانت كنائسهم تستهلك الكثير من البخور والطيب كما أنهم يستعملون في طعامهم التوابل الهندية، وكل هذه المواد كانت تستجلب من بلاد الهند والصين، كذلك استعملوا الأرائك والأسرة المصنوعة من أخشاب الصومال.

ومن حاصلات الهند التي كان يجلبها تجار الجنوب: الذهب والأحجار الكريمة، والعاج وخشب الصندل والمنسوجات الحريرية والقطنية والزعفران والأواني الفضية والنحاسية. ويعودون بمنتجات إفريقية مختلفة من الحبشة والصومال ومصر واليمن

أهمها : العطور والطيب وخشب الآبنوس وريش النعام واللبان والمر والأحجار الكريمة ، والجلود ، ويأتون أيضا" باللؤلؤ والياقوت من البحرين وذلك عن طريق ميناء الشعيبة على البحر الأحمر وهنا يرُجّح أن قريشاً قد استأجرت بعض السفن لحسابها لنقل هذه المواد (٤٥).

لقد كانت مكة قبل القرن السادس الميلادي تقتصر على التجارة الداخلية ، بسبب تواجد النشاط التجاري الخارجي في يد اليمن حيث كانت أرباح تجار مكة ضئيلة ، لا تسمح لهم بالإعاشة العادية.

وما أن بدأ القرن السادس حتى أخذت أحوال اليمن في التدهور بسبب التنافس الحاد بين الديانتين اليهودية والمسيحية ، وكانت اليمن واقعة في منطقة الصراع الدائر بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية ، وقد استخدم البيزنطيون الأحباش لغزو اليمن ، حيث سقطت أخيراً كان ذلك في النصف الأول من القرن السادس الميلادي وأدى ذلك إلى انتقال شرايين التجارة الرئيسية إلى مكة وقريش بشكل خاص ، وقد استمر حكم الأحباش لليمن حتى طُردوا من قِبل الفرس سنة ٥٧٥م وبقيت على هذه الحال حتى دخلها الإسلام.

مما سبق يُلاحظ أن الصراعات التي دارت داخل اليمن وحولها وفقدانها للأمن ، أدت إلى فقدانها لمركزها التجاري العالمي ، وآل ذلك إلى قريش في مكة ، حيث استقرت الأمور الداخلية ، وتم تنظيم قدوم الحجيج ، ونشطت الحركة التجارية.

كذلك ساعد قريش على تبوء الصدارة في التجارة العالمية انشغال كل من الفرس والروم في نزاع دموي ، فأثر هذا النزاع على الممالك العربية المتاخمة لحدود هاتين الإمبراطوريتين ، حيث اشترك المناذرة إلى جانب الفرس ، والغساسنة إلى جانب الروم ، وهذا أدى بانفراد قريش بالدور التجاري الرائد في تلك الفترة.

(٤٥) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق : ص ٢٦٣

لقد أدى التنظيم الداخلي لقبيلة قريش، وتحرك زعمائها داخلياً وخارجياً إلى السيطرة على كل منافذ التجارة الداخلية فيما بين مدن جزيرة العرب، والأسواق الداخلية التي كانت تقام في مكة وحولها... كما أدى استقرار الأمن وقدوم الحجيج بيسر وسهولة، وتنشيط حركة قدومهم إلى دعم وتحريك التجارة الداخلية.

في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، بعد استقرار قريش وتنظيم أمرها الذي حقق لها الانتعاش الاقتصادي، صار القرشيون في مكة يرفلون بأثواب الثراء والبذخ، واتخذوا المنازل الواسعة اللائقة والتي تناسب بذخهم.

لقد بلغت التجارة والاقتصاد في مكة المكرمة مستوى رفيعاً ومتقدماً حيث وصف ذلك القرآن الكريم مبيناً رؤوس الأموال التي تستغل في التجارة والربا لتربو وتزيد، كما أشار إلى البيع والشراء، والشركات والتعامل التجاري والقروض والرهائن.

إلا أنه رغم هذا المستوى والتطور اجتماعياً واقتصادياً في مكة والذي ترتب عليها الثراء الفاحش في الطبقة الغنية المترفة، نجد الطبقة المتوسطة في مالها ودخلها ومعيشتها، كما نجد أيضاً الطبقة الفقيرة، المعدمة والتي عانت من الربا والاستغلال.

ب - مدينة يثرب (المدينة المنورة):

تعتبر يثرب من أهم حواضر الحجاز بعد مكة وتشتهر بالزراعة لخصوبة أرضها وكثرة وديانها وتقع مدينة يثرب على بعد ثلاثمائة ميل (حوالي أربعمائة وثمانين كيلو متراً) إلى الشمال من مدينة مكة المكرمة، وتبعد حوالي ٢٧٥ كيلو متر عن ساحل البحر الأحمر، وهذه المنطقة تعتبر واحة خصبة التربة غزيرة المياه محصورة بين حرتين حرة واقم شرقاً، وحرة الوبرة غرباً وتسير الوديان خلال الحرتين، وهي في منطقة بركانية ثارت في عصور ما قبل الإسلام وفي العصور الإسلامية عدة مرات، وقذفت حمماً كثيرة أحدثت على أثرها الصخور السوداء وتكونت تربة المدينة الخصبة

والصالحة للزراعة. وتكثر فيها المياه والشجر (٤٦).

وفي شمالها جبل أحد والذي يفصل بين يثرب ووادي قناة وجبل سلع ويقع عليه جبل عين الذي كان عليه رماة المسلمين في غزوة أحد وفي جنوبها الغربي جبل عير وفي شرقها يقع بقيع الغرقد، وجنوبها قرية قباء. ويقع وادي العقيق خلف حرة الوبرة، ووادي العريض شرق حرة واقم، وهذه الأودية وغيرها في مدينة يثرب منحدرة من الجنوب إلى الشمال، وأخصب مناطق المدينة ما بين قباء ويثرب. وحرة واقم أكثر عمراناً من حرة الوبرة وكان يسكن واقم حين هجرة النبي ﷺ يهود بني النضير ويهود بني قريظه (١هـ - ٦٢٢م) وقبائل أخرى من اليهود وبعض من بطون الأوس.

أما حرة الوبرة التي تحد المدينة من الغرب يقع بجوارها ميقات الإحرام لأهل يثرب، وبها تقع بئر رومة التي كانت مملوكة لأحد اليهود واشتراها منه الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه وتصدق بها للمسلمين ودفع ثمنها عشرين ألف درهم. (٤٧)، تفصل حرة الوبرة بين يثرب ووادي العقيق، وهو واد خصب وله عظيم الأثر في اقتصاد سكان يثرب.

يعتبر اسم يثرب هو الاسم الشائع قبل اسم المدينة وقبل الإسلام وتعتبر يثرب هي أم قرى المدينة، وهي مدينة قديمة، وذكر اسمها في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا﴾ (٤٨).

وقد جاء ذكر يثرب في جغرافية بطليموس إذ ذكرها باسم (IATHRIPPE) وذكرها أيضاً اصطيفانوس البيزنطي باسم. (IATHRIPPE POLIS) (٤٩).

(٤٦) أحمد الشريف: المرجع السابق: ص ٢٢٥
(٤٧) صالح العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ: ص ٢١.
(٤٨) سورة الأحزاب: آية رقم (١٣).
(٤٩) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق: ص ٣٨٣
أحمد الشريف: المرجع السابق: ص ٣١٥

يقول بعض الإخباريين إنها سميت يثرب نسبة لشخص من أحفاد سيدنا نوح عليه السلام وزعم آخرون أن اسم يثرب مأخوذ من الثرب بمعنى الفساد أو التثريب والمؤاخذة بالذنب (٥٠).

وقد أجمع الاخباريون على أن يثرب سميت بمدينة الرسول ﷺ لنزوله بها، وأجمعت المصادر التاريخية أن ليثرب العديد من الأسماء وأن الرسول ﷺ نهى على أن تسمى بيثرب وقد ورد عنه ﷺ في مسند الإمام أحمد قوله: (من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثاً إنما هي طيبة) (٥١).

ومن أسماء المدينة طَيْبة وَطَابة، المسكينة، والمحببة، والناجية، وأكالة البلدان، والمسلمة، والقدسية، والعاصمة، والمرزوقة، والشافية، والمرحومة، والقاصمة، وقيل إن أسماء المدينة وصل في بعض الكتب المختصة إلى ٩٤ اسماً، هذه الأسماء عرفت بها المدينة بعد الهجرة أي في عهد الرسول ﷺ بوصفها دار الهجرة، وعاصمة الدولة الإسلامية الأولى، وأخيراً لقد استقر الأمر على أن يستبدل اسم يثرب بأسماء أخرى منها (المدينة) أو (مدينة الرسول) أو (المدينة المنورة) (٥٢).

١- نشأتها وسكانها:

يذكر بعض المؤرخين أن يثرب نشأت على أيدي العماليق فهم أول من سكنوها وشادوها والعماليق ينتسبون إلى عمليق بن لاوذ بن سام. وتقول بعض المصادر إن صراعاً جرى بين اليهود والعمالقة انتهى بطرد اليهود لسكان يثرب الأصليين وهم العمالقة (٥٣).

---

(٥٠) ياقوت الحموي: المصدر السابق: جـ ٥: ص ٤٩٣.

(٥١) ياقوت الحموي: المصدر السابق: جـ ٥: ص ٤٩٣.

(٥٢) ياقوت الحموي: المصدر السابق: جـ ٥: ص ٩٨.

(٥٣) ياقوت الحموي: المصدر السابق: جـ ٥: ص ٤٩٣.

وتقول بعض المصادر التاريخية القديمة إن جماعات من اليهود قدمت إلى يثرب في القرن الثاني قبل الميلاد، ثم بادت وانتهى أمرها وفي حوالي سنة ٧٠ للميلاد نشبت حرب بين الرومان واليهود نتج عنها دمار هيكل بيت المقدس في فلسطين على يد القائد الروماني تيتوس ونتج عن هذه الحرب تشتيت اليهود في أصقاع العالم مرة أخرى فقصد بعضهم بلاد الحجاز ثانية مستقرين بها (٥٤).

وقصد بعضهم خيبر وفدك وتيماء وقصد بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع وبنو هدل إلى يثرب وتدلنا الأخبار التاريخية على أن هؤلاء اليهود قد استقروا في أخصب الأراضي وأجودها بيثرب وقد امتلكوا معظم الأراضي الزراعية الخصبة والجيدة ولكثرة إنتاجهم الزراعي أنشؤوا مصانع لإنتاج الآلات الزراعية بسبب عدم توفر الأيدي العاملة للزراعة، واستطاع أهل يثرب عموماً واليهود بشكل خاص أن يجدوا أسواقاً مفتوحة لمنتجاتهم الزراعية الكثيفة في بلاد الحجاز عموماً وفي مكة بشكل خاص، فأخذوا بتوريد منتجاتهم الزراعية إلى مكة بكميات كبيرة حيث يقوم أهلها والحجيج الوافدون إليها باستهلاك تلك المنتجات. وعاشوا حياتهم مجتمعين في أحياء خاصة بهم وأقاموا الحصون والآطام على المناطق المرتفعة (٥٥).

أقام اليهود الآطام لعدم اطمئنانهم للمجتمع العربي الجديد الذي أقاموا فيه وإحساسهم بالغربة في هذا المجتمع، وقد ثبت أن العدد الذي وصلت إليه آطام اليهود يناهز تسعة وخمسين أطماً كما قُدّر عدد الآطام بيثرب بمائتين تقريباً تملك القبائل العربية معظمها.

أما القبائل العربية التي استقرت في مدينة يثرب فهي قبائل من الأوس والخزرج، وكان السبب في خروج القبائل العربية من اليمن واستقرارهم بيثرب هو

(٥٤) أحمد الشريف: المرجع السابق: ص ٣٣١.

(٥٥) الآطام مفردها: أطم ويعني بها الحصن المنيع، ويعتبر العماليق أول من ابتنى هذه الآطام في يثرب ياقوت الحموي: المصدر السابق: جـ١ - ص ٢٥٨.

اضطراب الأحوال السياسية والانهيار الذي حصل لسد مأرب حيث بدأت هجرة قبائل الأزد اليمنية إلى المناطق الشمالية من جزيرة العرب فنزل بعضهم الشام والبعض الآخر بيثرب وفي حوالي سنة ٢٠٠م استقرت أول هجرة عربية لقبيلتي الأوس والخزرج في مدينة يثرب (٥٦)، فقد أخبر سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن انهيار سد مأرب في سورة سبأ بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ـ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾(٥٧).

وتوالت هجرة هاتين القبيلتين حتى أواخر القرن الرابع الميلادي وعلى أثر هذه الهجرة تكون مجتمع عربي جديد في مدينة يثرب ممثلاً في قبيلتي الأوس والخزرج فنزلت الأوس في أعالي يثرب وبجوار بعض القبائل اليهودية، ونزلت الخزرج في أسافل يثرب بشمالها وهذه المناطق أقل خصباً وثراء. عاش اليهود مع الأوس والخزرج جنباً إلى جنب في سلام فترة من الزمن وتحالفوا ليأمن بعضهم شر بعض ولكي يضمن اليهود سيادتهم على يثرب ويستخدموا حلفاءهم لصد أي هجوم عن يثرب وكي يبقى نفوذهم قوياً ويسبغ الشرعية على وجودهم بيثرب ويستفيدوا من الخبرة الزراعية للأوس والخزرج، ويستفيدوا منهم في أعمالهم الزراعية والتجارية وعندما عظمت قوة الأوس والخزرج تعالى عليهم اليهود ونقضوا الحلف الذي عقد بينهم وما كان من الأوس والخزرج إلا أن استنجدوا بأبناء عمومتهم من العرب في مملكة الغساسنة خوفاً من تسلط اليهود عليهم وذلك لأن الأوس والخزرج بعد فض اليهود حلفهم أخذوا في إذلالهم حيث حكموهم وتحكموا فيهم والزموهم بأداء الخراج.

وقامت حرب بين كل من الأوس والخزرج والغساسنة ضد اليهود في يثرب تم فيها

---

(٥٦) أحمد الشريف: المرجع السابق: ص ٣٢٩.

(٥٧) سورة سبأ: الآيتان: (١٥) - (١٦).

قتل العديد من زعماء اليهود وأشرافهم، ورجع الغساسنة إلى مملكتهم بعد أن مكنوا للأوس والخزرج في يثرب (٥٨).

وبعد ذلك عاش الأوس والخزرج فترة من الوئام والسلام فيما بينهما وما أن رأى اليهود أن هاتين القبيلتين كونتا قوة عظيمة قاموا ببث السموم اليهودية بينهما كي يتمكنوا من إضعافهم وإثارة الحروب بينهم... وأدى ذلك الدور الخبيث الذي قام به يهود يثرب لقيام الحروب بين الأوس والخزرج تنازعوا فيها الشرف والسيادة، فقامت حروب مستمرة أوقد نارها بجانب اليهود عصبية الجاهلية بين الأوس والخزرج ومن تلك الأيام: حرب سمير، وحرب كعب بن عمرو، وحرب حاطب، ويوم بعاث ويوم سحل.

لقد استمرت هذه الحروب والنزاعات بين الأوس والخزرج لفترة طويلة حيث كان النصر في معظم الأحيان للخزرج وبسبب هذه الانتصارات حاول الأوس محالفة قريش ضد الخزرج ولكنهم فشلوا في ذلك، نظراً لحكمة وتروي زعماء قريش فاتجهت الأوس لمحالفة بني قريظه وبني النضير وعلمت الخزرج بذلك الحلف فاستوضحت ذلك من اليهود الذين نفوا ذلك الادعاء فطلبت منهم الخزرج أربعين غلاماً يرتهنوهم فإستجابوا لهم فخيرتهم الخزرج بين قتل غلمانهم أو الجلاء عن يثرب فآثروا الخروج غير أن كعب بن أسد القرظي أقنع بني قريظة بالبقاء في يثرب والتضحية بالرهائن فما كان من الخزرج إلا أن قتلوا الغلمان الأربعين فغضبت اليهود لذلك، ووقفوا مع الأوس في موقعة بعاث وفيها انتصر الأوس بعد أن قتلوا العديد من أبناء الخزرج ثم تصالح الفريقان وما أن تمت تلك المصالحة حتى اتفق الأوس والخزرج على إقامة حكومة مشتركة بينهما برئاسة زعيم الخزرج عبد الله بن أبي سلول إلا أن رجال القبيلتين رفضوا هذه الحكومة واستبشروا بالإشعاع الإلهي والنور

(٥٨) أحمد الشريف: المرجع السابق: ص ٣٥٠ وما بعدها.

المحمدي ورأوا أن الإسلام خير سبيل للاستقرار بيثرب فدعوا الرسول ﷺ للهجرة إلى يثرب والاستقرار بها.

٢- الحالة الاقتصادية:

تعتبر أرض يثرب من أخصب أراضي الحجاز، فهي أرض بركانية خصبة فيها مياه الأودية والآبار والعيون وكانت الزراعة في يثرب تعتمد أساساً على زراعة النخيل والشعير والقمح والفواكه كالعنب والرمان والموز والليمون والبطيخ والخضار، وكان النخيل والشعير أهم غلتين.

لقد كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية التي يقوم بها سكان المدينة وكان الافراد يمتلكون الأراضي التي يعملون بها، وكان البعض يمتلكون المزارع الكبيرة، وعليه اتخذوا عمالاً يعملون بنصيب معين على الخمس أو الثلث أو النصف من إنتاج الأرض حسبما يتم الاتفاق عليه بين العمال وصاحب الأرض وقد أصبحت الزراعة في يثرب ذات أساليب مختلفة ومتنوعة فأصبحت جزءاً من أبواب النفقة كالمزارعة والمؤاجرة والمزابنة والمحاقلة والمخابرة وكراء الأرض (٥٩)، فمنها ما أقره الإسلام ومنها ما منعه أو أصلحه. فعن جابر قال "أن النبي ﷺ نهى عن المخابرة والمحاقلة والمزابنة" وعن أنس قال: نهى رسول الله ﷺ عن المحاقلة والمخاضرة والملامسة والمنابذة والمزابنة (٦٠) وهذان الحديثان اشتملا على مجموعة من المعاملات والبيوع نهى عنها رسول الله ﷺ.

---

(٥٩) **المزارعة:** هي أن يدفع رجل لآخر أرضاً يزرعها على جزء معين مشاع فيها **المؤاجرة:** هي أن يؤجر شخص بستانه على الربع من المحصول مع شيء من المحصول لصاحب الأرض. وأمر بها ﷺ.

المزابنة: كأن يشتري الرطب في الشجر بخرصه من التمر، ومثل بيع العنب بالزبيب كيلاً. **المحاقلة:** هي بيع الثمرة قبل بدو صلاحها.

المخابرة: وهي المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها من الزرع

(أخذت التعاريف من: مختصر البخاري: مصطفى البغا: البيوع: ص٣٠٢)

(٦٠) البخاري: جـ ٤: ص ٤٧٢: حديث رقم ٢٢٠٧.

ونظراً لجفاف المناخ وقلة الأمطار أحياناً فقد كانت الزراعة تعتمد على مياه الوديان التي تزداد في فصل الشتاء أما المناطق البعيدة عن الوديان فقد اعتمدت على مياه الآبار. وعلى الرغم من اشتغال معظم سكان يثرب بالزراعة إلا أنها لم تكن كافية لحاجة سكانها فكانوا يستوردون ما ينقصهم من بلاد الشام مثل الحنطة اللازمة لصناعة الخبز والشعير والزبيب والسمن والعسل وعلى أثر حاجة الفقراء التي يستغلها اليهود يستدين الفقراء حاجتهم من الأغنياء نظير رهن ما يقدمونه فيضطرون إلى بيع ثمار نخلهم وأعنابهم مزابنة ومحاصيلهم محاقلة فيزيد ثراء الأغنياء وتزيد خسارة الفقراء مما يضطرهم - أحياناً - لبيع أراضيهم للأغنياء وفاء لديونهم (٦١).

وهكذا تزداد الهوة بين الفقراء والأغنياء وتظهر الأحقاد وتقوم المنازعات والحروب التي تعمل على تدمير المزروعات وإتلافها، مما يؤدي إلى إضعاف عام لاقتصاد يثرب وفيها كان اليهود أكثر غنى من العرب فكان العرب يستدينون من اليهود، وظهر ذلك واضحاً حينما حصلت الهجرة حيث كانت حالة الأنصار (أهل يثرب من الأوس والخزرج) الاقتصادية ليست بالقوية.

فعلى الرغم من أن عدد المهاجرين لم يزد عن المائة أسرة فقد أثر هذا العدد على حياة الأنصار ولم تتحسن أمورهم إلا بعد أن أجليت بعض القبائل اليهودية عن المدينة، وبعد أن استقرت الأوضاع في المدينة وتم القضاء على الخلافات الداخلية، انتعشت الزراعة واستوعبت المدينة أعداداً كبيرة من المهاجرين والوافدين من قبائل العرب، وبدأ الرسول ﷺ في تشجيع الزراعة وإصلاح موات الأرض وإعدادها للزراعة (٦٢).

---

(٦١) صالح العلي: المرجع السابق: ص ٢٦.

(٦٢) أحمد الشريف: المرجع السابق: ص ٣٨٢.

ويشتغل أهل يثرب أيضاً بالرعي ويقومون بتربية الحيوانات مثل: الإبل والماشية والأغنام والخيل ففي شمال غرب يثرب توجد منطقتان رعويتان هما ((زغابه)) ((والغابة)) يرعون فيها ما يملكون من تلك الحيوانات وقد كان أهل يثرب يستخدمون الإبل في إرواء الأرض ويسمونها ((الإبل النواضح)) أما الأبقار فتستخدم في حرث الأرض والخيول للحروب وبالرغم من اعتماد يثرب في كثير من اقتصادها على الزراعة إلا أن تربية الماشية كانت على خلاف ذلك لم يهتموا بها كثيراً لكنها ازدادت بعد هجرة الرسول ﷺ وحاجة المسلمين لتلك الثروة الحيوانية في حروبهم ومعيشتهم وبالمقارنة بين خيول المسلمين في غزوة بدر سنة (٢هـ - ٦٢٤م) والتي كانوا يملكون فيها فرسين فقط، في فتح مكة سنة (٨هـ - ٦٣٠م) كان لديهم ألفي فرس ومن هنا يظهر مدى نمو الثروة الحيوانية بعد الهجرة وهذا يدلنا على تشجيع الرسول ﷺ على اقتناء هذه الحيوانات حيث أن ذلك كان سهلاً لتوفر الأعلاف المنتجة من الأراضي الزراعية التي تتغذى عليها.

أما التجارة فكانت مكة سيدتها، أما يثرب حيث الاستقرار والإنتاج الزراعي الكثيف ووجود القرى والقبائل حولها تتطلب توفير الأسواق والتجارة لتبادل المنفعة الاقتصادية مما أدى لتواجد الأسواق بيثرب، ومن أهمها سوق بني قينقاع، واشتهرت هذه الأسواق بعظمتها وكثرة حركتها وروادها وتخصصت في بيع وصياغة الحلي التي اشتهر بها بنو قينقاع.

ويوجد سوق آخر يُدعى سوق زباله شمال غرب يثرب، اتسع وزاد نشاطه بعد الإسلام، ويوجد أيضاً سوق بقيع الخيل وقد اشتهر باسمه حيث أكثر ما يبيع الخيل وكان يُشرف على السوق بنو سليم، يبيعون ويشترون فيها بالإضافة إلى الخيل الإبل والغنم والسمن.

وكان في المدينة أسواق أخرى في كل من العقبة ومزاحم وغيرها ، وجميع هذه الأسواق تبيع منتجات يثرب كالتمر والشعير والحطب والحلي والسلاح والآلات الزراعية ، وتشتري ما ينقصها مما يستجلبه التجار من مدن الحجاز الأخرى وبلاد الشام ، مثل السمن والأقط والصوف والنبيذ والزيت والحنطة كما كان يوجد ببعض هذه الأسواق محلات لتجارة العطارة كالمسك والبخور وخلافها.

في تلك الأسواق لم يكن هناك أي نوع من الرقابة على البيع والشراء وعلى ضبط المكاييل والموازيين وحماية العامة من المحتالين ، كذلك كان التجار يلاقون الركبان خارج يثرب فيشترون ما يحملون ويبيعون مما يحبون ويحتكرون ما يجلبون ، كذلك كان الغش سبيلهم في البيع وكان البيع بالتأجيل وبالرهن بهدف تنشيط البيع وتحقيق مزيداً من الربح ، ومن مساوىء البيع والشراء في تلك الآونة بيع التمر قبل أن يزهو ، وبيع الثمار قبل ظهور صلاحها والزرع في سنبله وقد تحصل الخسارة في هذا النوع من البيع للطرفين.

من أسوأ مظاهر حركة يثرب التجارية والاقتصادية ما كانوا يسيرون عليه من نهج ربوي ، يزيدون به ثراءهم فيذهب بأموال بعض الناس ويزيد من أموال آخرين ، وقد بدأ اليهود بمزاولة الربا حتى عم في مجتمع يثرب كافة يزاوله كل من اليهود والعرب وقد نزلت آيات من كتاب الله العزيز تندد باليهود وما يزاولونه من ربا فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا ـ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٦٣).

ونظراً لرسوخ الربا في المدن الحجازية ومنها مكة ويثرب فقد نزل القرآن متدرجاً في إبطال الربا فقال سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا

(٦٣) سورة النساء: الآيتان (١٦٠) - (١٦١)

أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦٤) وبعد هذا التدرج نزلت آيات في تحريمه مبينة الأضرار التي تصيب من سار في نهجه يقول سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ـ يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٦٥).

نظراً لما تمتاز به يثرب من خصوبة الأراضي وزيادة في الإنتاج الزراعي أحياناً ولما يتطلبه العمل الزراعي من عدد وأدوات فقد تطلبت هذه الأمور ظهور النشاط الصناعي والذي كان أقوى مما كانت عليه مدينة مكة، فمن الصناعات التي اعتمدت على الإنتاج الزراعي مثلاً: صناعة التمر والخمر، وصناعة المقاطف والقفف من خوص النخيل حيث تستعمل للأعمال الزراعية والمنزلية، وقام عمال متخصصون بالأعمال اللازمة لصناعة أبواب المنازل والنوافذ والأثاث والكراسي وذلك من الأخشاب المصنوعة من شجر الطرفاء والأثل (٦٦) وحيث إن الأعمال الزراعية في حاجة فؤوس ومحاريث ومساح ومناجل لحصد المنتجات الزراعية فقد ظهرت الصناعات الحديدية وقام بذلك كل من العرب واليهود والموالي والعبيد الذين كانوا يعملون معهم أو على حسابهم الخاص، ومن الصناعات التي ظهرت بشكل قوي ومريح صناعة الحلي التي تخصص بها يهود بني قينقاع واحترفوها فصنعوا من الذهب الأساور والخلاخيل والخواتم والأقرطة والعقود، والجواهر الأخرى بجميع أنواعها وأشكالها وكانت النساء من يثرب والمدن والقرى الحجازية تذهب لسوق بني قينقاع لشراء ما يلزمهم ويلزم فتياتهم من هذه الأنواع وأيضاً كانت هنالك صناعة

(٦٤) سورة آل عمران: آية رقم (١٣٠)

(٦٥) سورة البقرة: الآيتان (٢٧٥) - (٢٧٦)

(٦٦) شجرة الطرفاء والأثل: نوع من الشجر يكثر في غابات يثرب يمتاز بجودة أخشابه، فيصنع منه الأبواب والأثاث المختلفة للمنازل.

النسيج والتي تختص بها النساء ومنها تتم عملية الخياطة والدباغة التي يعمل بها عدد من أهل يثرب، وصناعة البناء التي يقوم بها بناؤون ونحاتون لنحت الطوب لبناء البيوت والآطام وصناعة الأواني المنزلية من نحاس وفخار للطعام والشراب. هذا بعض من أهم الصناعات في يثرب قبيل البعثة النبوية حيث كان يقوم بها كل من اليهود والعرب والموالي والعبيد وكان بعض الغرباء عن أهل يثرب من فرس وروم وأحباش وأقباط يعملون في صناعات شتى مع ساداتهم اليهود والعرب.

ثراء أرض يثرب وصناعتها جعل أهل القرى المجاورة من البدو يشنون غارات عليها لسلب بعض ما يلزمهم، أو للسيطرة على بعض الأراضي الخصبة لذلك أنشأ اليهود والعرب على السواء الآطام والحصون للدفاع عن أموالهمَ وأنفسهم وظهرت صناعة الأسلحة والدروع والسيوف والنبال المشهورة وقد تخصص اليهود في إنتاج تلك المواد الحربية، لقد كانت يثرب ذات شأن عظيم في الزراعة والصناعة ولولا وجود الخلافات والحروب الداخلية بين اليهود والعرب وهجمات بعض البدو من القرى المجاورة ليثرب لانتعشت وفاقت مكة اقتصاديا، وما أن قدمت الهجرة النبوية العظيمة حتى أدت إلى الاستقرار.

كل ما سبق من أمور الزراعة والتجارة والصناعة كان يتطلب التعامل بالمكاييل والتي تستعمل في الحاصلات الزراعية فكان المتعارف عليه أن المكيال لأهل المدينة والوزن لأهل مكة وما يستعمل من المكاييل هو (المد وهو أربع حفنات من حفنة الرجل)، (والصاع وقدره: أربعة أمداد وخمسة أرطال)، وأنواع أخرى مثل الوسق (٦٧) وخلافه أما الأوزان المستعملة فهي الدرهم والمثقال والقيراط والرطل والقنطار وخلافها، أما العملة التي كانت تستعمل في يثرب فهي نفسها التي استعملت في مكة وهي: الدراهم والدنانير.

(٦٧) الوَسقُ: والوِسقُ جمعه: أوسُق: ووسق هو كيل معلوم: وهو حمل بعير وهو ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ، ويساوي خمسة أرطال وثلث. (أبو عبيد: الأموال: ص ٥١٧، ، إبن منظور: مصدر سابق: جـ٢: ص ٧٣٥).

فالدراهم من الفضة والدنانير من الذهب وهي صكوك الفرس والروم وكان العرب يسمون الدنانير الهرقلية لأنها صكت في عهد هرقل عظيم الروم وعليها اسمه والدراهم هي فارسية عليها صورة كسرى فالعرب اعتمدوا على هذا النوع من العملة ولم يضربوا أي من العملة بأسمائهم.

ثالثاً: الوضع الاقتصادي لكل من المسلمين والمشركين عند بداية الدعوة:

كانت مكة حين ظهور الدعوة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأجل التسليم ذات مكانة عظيمة ومرموقة داخل وخارج جزيرة العرب من حيث مركزها الديني فالبيت الحرام، وقدوم الحجيج إليه في كل عام، وما يدر ذلك على أهل مكة وتجارها من فوائد اقتصادية واجتماعية عظيمة.

وأما من جهة مركزها الاقتصادي والتجاري الهام، فقد أصبحت مكة في منتصف القرن السادس الميلادي تضاهي كل مدن الجزيرة العربية وما حولها من حيث اقتصادها القوي ومركزها الديني فأخذت في منافسة اليمن وتفوقت عليها بعدما استولت الحبشة على اليمن وآلت السيطرة عليها للفرس، وفي نفس الوقت أصبحت مكة هي منارة جزيرة العرب بل عاصمتها الروحية والاجتماعية والاقتصادية من غير منافس وذلك بعدما فقدت مملكة الحيرة ومملكة الغساسنة الكثير من عظمتهما التجارية والسياسية لكونهما مملكتين تعملان لحساب الفرس والروم واللتين كانتا في صراع مستمر وحروب دائمة لقد نشطت الحركة التجارية في مكة، فتحول تجارها في كثير من دول أفريقيا وآسيا، فطافوا بالبلدان بائعين ومشترين، وكانت الأسواق تعقد في مكة في الأشهر الحرم، يهرع إليها الناس من كل مكان ليؤمنوا حاجياتهم، يدل انعقاد تلك الأسواق على ما وصلوا إليه من مدنية وتطور (٦٨).

---

(٦٨) أبو الحسن علي الحسن الندوي: السيرة النبوية: ص ٧٦.

وحصل هذا التطور نتيجة صراعات كبيرة رواها لنا الإخباريون تحت ظروف منها الحروب والأحلاف وزيادة الثروة والفقر والغنى حيث نتج ذلك عن الاستغلال والصراع المرير عبر طرق القوافل التجارية العالمية (٦٩) والحديث عن قريش ومكة في مدى التقدم والتطور من جميع النواحي الاقتصادية والدينية والاجتماعية يصل بنا إلى مدى الثراء الذي وصل إليه العديد من أبنائها، والتضخم الذي حدث في رؤوس الأموال.

لقد اشتهرت بيوت في قريش بالثراء، وسعة المال ورغد العيش وترف الحياة غير أن هذه الثروة لم تكن موزعة توزيعاً عادلاً فقد كانت الهوة بين الأغنياء والفقراء كبيرة جداً، إذ كان بعض رجالات قريش يملك الألوف من الدنانير وقطعان من الإبل والماشية ويعيش هؤلاء في ترف وبذخ، ورغم أنهم كانوا ذوي كرم وسخاء فإن هذا لم يخفف من حدة الفرقة بين الأغنياء والفقراء، كما وأن التجارة التي كان يرافق معاملاتها الكثير من الغش والمضاربة والربا كانت تحصد أموال الفقراء وتزيد من حدة الفرقة والبغضاء بين الطرفين، والفرق كان شاسعا" بين الأغنياء والفقراء.... وكان العرب يتطلعون إلى شيء يزيل هذه الفوارق الكبيرة ويحد من وجودها واستعمل أثرياء وأغنياء قريش ما لديهم من أموال في إيذاء المسلمين، فقد واجهوا ظروفا عصيبة جداً وكانوا مقهورين أذلاء مطرودين لم يكن لهم من الأمر شيء فكان الأمر بيد أعدائهم القرشيين وبذا لم يستطيعوا أن يقيموا مجتمعاً إسلامياً موفقاً في مكة.

واتبعت قريش مع المسلمين شتى أنواع الأساليب لترجعهم عن دينهم منها: الإرهاب والتهديد والمضايقة والمقاطعة والتجويع والضرب وشنت عليهم الحرب النفسية، وعندما هاجر المسلمون إلى يثرب صادرت قريش أراضيهم وديارهم وأموالهم، وحالت بينهم وبين أزواجهم وأبنائهم، وحبست من تمكنت من حبسه

(٦٩) الزهري محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب: تحقيق: سهيل زكار: دار الفكر: دمشق: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م: المغازي النبوية: ص ١١.

وعذبت منهم الكثير، وفوق كل ذلك التآمر على قتل صاحب الدعوة ﷺ والقضاء على دعوته، فأذن الله لنبيه بالهجرة إلى يثرب وبدأت رحلة العذاب عبر خمسمائة كيلومتر، ثم قامت قريش بدور آخر لمحاربة المسلمين والمهاجرين لما لها من زعامة دينية بصفتها ساكنة الحرم ومجاورة لبيت الله الحرام - بإغراء المشركين والقبائل المجاورة لمكة ويثرب بمقاطعة يثرب، حتى أصبحت في شبه عزلة، فقلت وارداتها ونقصت منتجاتها الزراعية، مع إزدياد أعداد المهاجرين، من المسلمين والقادمين إليها من القبائل المجاورة لدخولهم الإسلام، وهكذا عمت الشدة يثرب كلها.

قام ﷺ بدور القائد سياسياً واجتماعياً وعسكرياً واقتصادياً وعامل كل فئة من أهل يثرب بما تستحق، عاملهم بالشدة أحياناً والرحمة والرأفة أحياناً أخرى ولا شك أن رحمته كانت غالبة في حياته حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله في بضع سنوات، وقد كان لعمل الرسول ﷺ في تجارة السيدة خديجة -رضي الله عنها- ، قبل وبعد زواجه منها والرحلات التجارية التي قام بها إلى أنحاء جزيرة العرب وبلاد الشام، وقد زادت من إلمامه بالمعارف الجغرافية والثقافية ومسالك الطرق التجارية المختلفة، وقابل أنواعاً متباينة من البشر في أماكن شتى، هذه الرحلات صقلته وجعلته قادراً على الجلد والصبر والعزيمة فكان عصامي النفس صلب البنية كريم الخلق أميناً صادقاً في كل معاملاته ورحلاته، يتألم لشقاء الآخرين باذلاً كل جهد لإزالة تلك الآلام.

كان ﷺ ذا عقلية فذة وشخصية تحتمل كل المشاق فصقله ربه إلى أحسن ما يكون الصلاح.... وأصبح مهيئاً لتقبل دعوة ربه، للقيام بالتبشير بها ابتداء بقومه ذوي القربى.. إلى أن إنتشرت دعوته، واخترقت رسالته العظيمة كل الصعاب، ودخلت العقول الصلدة كما أرادها الله سبحانه وتعالى بأن تصبح رسالة عالمية سائرة لإصلاح العالم كله، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٠).

(٧٠) سورة سبأ: آية رقم (٢٨).

إن العلاقة بين الرسول ﷺ وأصحابه، علاقة فريدة من نوعها لم يسجل التاريخ مثلها، إنها علاقة دين وأخلاق ورحمة ومحبة يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٧١).

فما كان ﷺ لديه شيء يغريهم به، بل إنهم تكبدوا الكثير في حياتهم، تكبدوا الأموال والدماء والأولاد والزوجات، كما أن المهاجرين قد تركوا عزهم وأمنهم وأموالهم وديارهم في مكة ليهاجروا مرتين إلى الحبشة وكانوا لا يعرفون ماذا سيكون مصيرهم فيها، ثم هاجروا ثالثة إلى المدينة، وتركوا كل شيء في مكة وهاجروا معه ﷺ.

قال عبد الله بن مسعود: أول من أظهر الإسلام سبعه: رسول الله ﷺ، وأبوبكر، وعمار بن ياسر، وأمه سمية بنت خياط، وصهيب، وبلال، والمقداد فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بحجة، وأبوبكر رضي الله عنه منعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فتفنن المشركون في إيذاء أولئك النفر من المسلمين فقد طعن أبو جهل بحربة سمية بنت خياط (أم عمار) وكانت أول شهيدة في الإسلام في سبيل الله، ومات ياسر بالتعذيب، وما حصل لخباب بن الأرت، وباقي الصحابة من موالي ومستضعفين، مثل صهيب رضي الله عنه عندما أراد الهجرة قال له المشركون: ((أتيتنا صعلوكاً فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت وتريد أن تخرج بمالك ونفسك والله لا يكون ذلك)) فقال لهم أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم: قال: ((فإني قد جعلت لكم مالي)) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وقال ((ربح صهيب)) (٧٢) بعد ذلك تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ

(٧١) سورة آل عمران: آية رقم (١٥٩).

(٧٢) إبن الأثير: أسد الغابة: تحقيق: خليل مأمون شيحا: دار المعرفة بيروت: الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م: ص ٤٦١.

مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٧٣) هذا قليل من كثير مما صنعه المشركون بالمسلمين كي يضطروهم للهجرة.

لقد أصيب الرسول ﷺ وصحابته بالفتن والابتلاء فصبروا وهذا ميزان يميز الصادق من الكاذب يقول عزوجل: ﴿ الم ـ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ـ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٧٤).

ولقد كان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم فيقول له: تركت دين أبيك وهو خير منك لنُسفهن حلمك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لُنكسِّدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وعذبه، هذه بعض الطرق لتعذيب المسلمين وتجويعهم وإضطهادهم وقتل تجارتهم، وهلاك أموالهم فأصبح منهم الغني بماله وتجارته فقيراً مطارداً، وأصبح الفقير يُضرب ويهان. (٧٥).

ونأخذ مثلاً آخر لأحد وأعظم الصحابة وهو ثاني اثنين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، إنه اشترى بما لديه من مال العديد من الصحابة وأعتقهم من ظلم المشركين، وقيل إنه أعتق سبع رقاب من كبار الصحابة منهم: بلال بن رباح، وعامر بن فهيره وعدد من الصحابيات (٧٦) فقد أخذت كل قبيلة تعمل على حبس، وتعذيب وتجويع، وإذلال كل من دخل الإسلام من أفرادها.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء والتعذيب وأنه لا يقدر على منع ذلك عنهم فقال ﷺ لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة ((فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه)) (٧٧).

(٧٣) سورة البقرة: آية رقم (٢٠٧).

(٧٤) سورة العنكبوت: الآيات (١، ٢، ٣).

(٧٥) إبن هشام: السيرة النبوية: جـ١: ص ٣٢٠.

(٧٦) إبن هشام: المصدر السابق: جـ ١: ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٧٧) إبن هشام: المصدر السابق: جـ ١: ص ٣٢١.

ففر المسلمون بدينهم وأهليهم في أول هجرة في الإسلام إلى أرض الحبشة، فقيل إن عدد الذين هاجروا سوى أبنائهم الصغار ثلاثة وثمانون رجلاً ولم يهدأ لقريش بال فأرسلت رجلين من سادتها حاملين الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، حتى يتمكنوا من إعادة المهاجرين إلى مكة كي يفتنوهم عن دينهم ولكن النجاشي رفض في آخر الأمر بعد تقديم الهدايا له، ولبطارقته ومحاولات عديدة اقتنع في النهاية بصحة وصدق رسالة الرسول ﷺ، ودينه الذي أرسل به، وصد النجاشي رجلي قريش وأمن منزل المسلمين في دياره.

ودخل كل من عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب الإسلام وكانا ساعدين قويين لرسول الله ﷺ، اجتمعت قريش وكتبوا الصحيفه وكانت خاصة ببني هاشم وبني عبد المطلب على أن لا ينكحوا إليه ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم وعلقوها - الصحيفة - في جوف الكعبة. هنا أيضاً إستمرت المحاربة السياسية والاقتصادية للمسلمين مما أدى إلى زيادة وضعهم سوءاً وتردي أحوالهم.

أدركت قريش أن ما تقوم به من تعذيب ومقاطعات وأذى للمسلمين لن يحول دون إقبال الناس على الدين الجديد، فعملوا على حصار بني هاشم والمسلمين في ((شعب أبي طالب)) استمر ذلك الحصار الاقتصادي المريع لثلاث سنين حتى أجهد المحاصرون وعذبوا وتصايح صغارهم من شدة الجوع والعطش... لكن ذلك أدى إلى الاصرار من قبل النبي ﷺ، ومن أسلم معه من صحابته ومن ثم فشل هذا الحصار في إضعاف الروح الدينية لدى المسلمين رغم صعوباته الاقتصادية.

كان عدو الله أبو لهب يقول للتجار محرضاً إياهم على المسلمين ((يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن أن لا خسارة عليكم)) وبذلك يزيد الأسعار أضعافاً على المسلمين ولم يستطيعوا الشراء ويعودوا لبيوتهم ولأطفالهم وليس في أيديهم شيء، ويغدو

التجار إلى أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام والملابس (٧٨).

ومن ثم أوشكت أن تحصل فتنة داخل معسكر الشرك مما أدى ببعضهم إلى نقض بنود الصحيفة فمزقت الصحيفة من قبل كاتبيها وفك الحصار عن المسلمين وعاد بنو هاشم إلى منازلهم لمزاولة أعمالهم في مكة المكرمة ولكن كل هذا لم يؤد إلى إيقاف التحرش بالمسلمين وإيذائهم بل أصرت قريش على ذلك فاستمرت سياستها العدوانية على المسلمين إلا أنه في هذه الآونة أصيب النبي ﷺ بصدمتين شديدتين كان لهما عظيم الأثر في نفسه الأولى وفاة زوجته خديجه بنت خويلد -رضي الله عنها- تلك الزوجة الصالحة والتي كانت ملاذه في كل شدة، والثانية موت عمه أبي طالب الذي كان يحول بينه وبين قريش، وسمي هذا العام بعام الحزن (٧٩).

وبعد ذلك وجد ﷺ أن مكة أصبحت غير صالحة للدعوة واكتفى بذلك حتى أنه لم يعرض الإسلام على القبائل المجاورة لقريش نظراً لارتباطها الاقتصادي معها حيث المصالح المادية المشتركة، وبدأ ﷺ يفكر في أمور أخرى كي ينجي أصحابه من هذا الحصار الاقتصادي والمادي والضغط النفسي على صغار وكبار المسلمين وعرض دعوته ﷺ على وفد من الأوس قادماً من يثرب - يلتمس محالفة قريش - التي رفضت ذلك - ضد الخزرج ورفضت الأوس العرض الشريف، وعادوا ليثرب وتحدثوا لقومهم عن تلك الدعوة والتي كان لها الأثر الحسن في العام التالي، فقدم نفر من الخزرج، وعرض عليهم النبي ﷺ الإسلام فأسلموا، ويرجع إسلامهم لمجاورتهم لليهود أهل الكتاب حيث يعيِّرون العرب بوثنيتهم، ويهدرون اقتصادهم ويحاربونهم، وعاد الخزرج إلى يثرب ودعوا قومهم للإسلام فكانت الإجابة سريعة، وفي العام التالي قابل النبي ﷺ وفداً من اثني عشر رجلاً منهم ثلاثة من الأوس في العقبة فتمت بيعة العقبة الأولى وعادوا ليثرب وأرسل معهم ﷺ مصعب بن عمير

(٧٨) إبن هشام: المصدر السابق: جـ ١: ص ٣٥٠.

(٧٩) مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية: مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية: الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ-١٩٩٢م: ص ٢٢٥.

ليعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن الكريم وكان ﷺ جديراً بهذه المهمة فكان داعياً لبقاً فطناً ذكياً وعاد بعد عام معه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان لموسم الحج والتقوا بالنبي ﷺ ، وتمت بيعة العقبة الثانية ، أو بيعة الحرب بعد ذلك بدأت الهجرة النبوية العظيمة ليهاجر المسلمون إلى يثرب دار الأمن والسلام.

في مكة وبعد الهجرة مباشرة قام عقيل بن أبي طالب ببيع منزل الرسول ﷺ ، ومنازل صحابته بمكة ، فقد قيل للنبي ﷺ في فتح مكة : ألا تنزل منزلك بالشعب؟ قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ قال أبو الوليد الأزرقي ((كان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ، ومنازل صحابته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ، وقد باع أيضاً منزل كل من هاجر من بني هاشم ، فقيل لرسول الله ﷺ : فانزل في بعض بيوت مكة المكرمة في غير منزلك فأبى ﷺ ، وقال: ((لا أدخل البيوت فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً)) (٨٠).

ولما فتحت مكة طالب بعض المهاجرين بدورهم ولم يوافق النبي ﷺ على استردادها وقال أبو الوليد الأزرقي عن مجاهد قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع رباع مكة وعن أجرة بيوتها ، وقال ابو الوليد أيضاً : إن رسول الله ﷺ قال: كان سكان مكة حياً من العرب ، فكانوا يكرون الظلال ، ويبيعون الماء فأبدلها الله تعالى بهم قريشاً فكانوا يُظلون في الظلال ويسقون الماء (٨١).

لقد لاحظنا المضايقات المختلفة من المشركين للمسلمين في جميع النواحي دينياً ونفسياً واقتصادياً ، وأدى ذلك إلى هجرة المسلمين إلى مدينة يثرب... وبذلك اقفلت دورهم وتحطمت تجارتهم وفقدت أموالهم بمقاطعة تجارتهم... وبدفعها لإنقاذ المستضعفين والمعذبين منهم ، فما أن هاجروا ووصلوا إلى يثرب وتآخوا مع الأنصار وما استقروا في ديارهم الجديدة حتى قُوبلوا بجو يثرب الحار الرطب المشبع بالأوبئة

(٨٠) الأزرقي: المصدر السابق: جـ ٢ : ص ١٦١.

(٨١) الأزرقي: المصدر السابق: جـ ٢ : ص ١٦٣.

فأصيب كثير منهم بحمى يثرب. لقد أمضى المسلمون السنوات الطويلة منذ بعثته ﷺ حتى بداية هجرته... في شتى أنواع المعاناة، ورغم كل ما لحق بالرسول ﷺ وصحابته من إيذاء في أجسادهم ودورهم وإخوانهم وأبنائهم وتجارتهم إلا أنه ﷺ مضى على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ومضى إلى سبيل دعوته، ومضوا هم (المشركون) بسبيلهم في تأليب المشركين عليه وصحابته يؤذونهم ويحاربونهم.

إن كل تلك المضايقات المادية والاقتصادية لم تؤد بالرسول ﷺ للبعد ولو للحظة عن رسالة ربه الخالدة، فقد نُقل عن عتبة بن ربيعة وهو من سادة قريش وكان حليماً وصاحب رأي بين قومه قال لرسول الله ﷺ: ((يا بن أخي إن كنت تريد مالاً جمعنا لك حتى تصبح أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا)) (٨٢) وهكذا حتى انتهى عتبة من قوله ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: ((أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم: قال: فاسمع مني فقال من سورة فصلت: ﴿ حم _ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ _ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ _ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ _ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾(٨٣).

وفي محاولة أخرى عرض عليه ﷺ زعماء قريش المال والملك وهو يعلم أنه وصحابته ضُربوا في تجارتهم وأموالهم وفي أمس الحاجة لتلك الأموال ولكنه قال لهم بعد أن فرغوا من عرض المال والملك عليه قال: ((ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم فإن تقبلوا

---

(٨٢) إبن هشام: المصدر السابق: جـ١: ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٨٣) سورة فصلت: الآيات (١ - ٥).

ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم)) (٨٤).

ولو أنه ﷺ رغب في أن تكون له الصفا وبطحاء مكة ذهباً لأجابه الله سبحانه وتعالى ولكن الله أدبه فأحسن تأديبه، وكمله عقلاً وخلقاً واصطفاه رحمة للعالمين، وقد روى أبو أمامة عن النبي ﷺ قال: ((عرض عليّ ربي عزوجل أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً قلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك)) (٨٥) وهكذا استمر المشركون في التهكم على الرسول ﷺ وصحابته وفي اضطهادهم وأولادهم... ولكنهم بقوا أقوياء بالله وبالإيمان وسار المشركون على طريقين لإضطهاد المسلمين: فاتخذوا سياسة الإغراء والملاينة والمهادنة والمجادلة والمغالطة ولكن هذه الطريقة لم تأت بنتيجة فانتقلوا إلى سياسة الإيذاء والإهانة والإذلال.

إن صفحات التاريخ لم تسجل لنا قوماً ابتلوا بألوان العذاب والبلاء وفتنوا أشد الفتنة مثلما حصل لمحمد ﷺ وصحابته، فقد عُذبوا عذاباً تنوء به الجبال، وأوذوا في سبيل عقيدتهم ودينهم أشد الإيذاء، فكان لهم الثبات والصبر والتحمل فهؤلاء المستضعفون من المؤمنين لا يبغون من إيمانهم ملكاً أو جاهاً، أو مالاً ولكن همهم أن يقوم هذا الدين وينتشر، وتسود العالم شريعة الحق والعدل والتوحيد والمساواة واحترام حقوق الانسان.

هذا قليل من كثير.... هذا هو الوضع الاقتصادي المتردي الذي عاشه المسلمون في سنوات الدعوة الأولى... وما عاشه المشركون من بذخ ومجون وأموال وأملاك فتلك الفئة المسلمة تريد وجه الله، والمشركون يبتغون طريق الشيطان، وشتان بين الطريقين.

(٨٤) محمد بن محمد أبو شهبه: السيرة النبوية: جـ١: ص ٣١٥.
(٨٥) الترمذي: مختصر سنن الترمذي: باب الزهد: ص ٣٣٧: .
ابن حنبل: مسند أحمد بن حنبل: حديث رقم ٥: ص ٢٥٤.

رابعاً: الأسس التي وضعها الرسول ﷺ للدولة الإسلامية في المدينة المنورة:

منذ اللحظة الأولى التي أعلن فيها الرسول ﷺ دعوته العظيمة، أخذ يتعرض لشتى أنواع المضايقات من أذى وتعذيب ومقاطعات أدبية واقتصادية له ولصحابته لذلك بدأ ﷺ في البحث عن مكان آخر بعيداً عن مكة المكرمة ومشركيها، فكانت هجرته إلى مدينة يثرب، خوفاً من الفتنة ليبعد بدينه وبصحابته عن زعماء قريش وكبرائها الذين أخذوا في تكذيبه والاستهزاء به وبدعوته، ومن هنا بدأت هجرته ﷺ بأمر من الله سبحانه وتعالى وتتم الرحلة الكبرى بعد عناء، ويبلغ ﷺ بلدة قباء، فيقيم فيها أياماً ويبني أول مسجد أقيم في الإسلام.

ثم دخل يثرب في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول للسنة الثالثة عشرة للبعثة الشريفة، وأرخى زمام ناقته حتى بركت، فأصبح مكانها الذي بركت فيه مكاناً لمسجده، اشتراه من صاحبيه سهل وسهيل، وأمر أبا بكر رضي الله عنه أن يعطيهما ثمنه وتولى بنفسه بناء مسجده ﷺ وأصحابه المهاجرين والأنصار(٨٦)، وبعد أن انتهى ﷺ من بناء مسجده أخذ في بناء حجرات أزواجه بنفس الطريقة التي بُني بها مسجده، وقد أُضيفت هذه الحجرات إلى المسجد بعد وفاة أزواجه رضي الله عنهن وقد أصبح المسجد منذ بنائه مكاناً للعبادة في المقام الأول ثم مأوى لضعفاء وفقراء المهاجرين الذين لا منازل لهم الذين عرفوا بأهل الصفة. (هم أناس من أصحاب رسول الله رضي الله عنهم يدعوهم إليه بالليل فيتعشى طائفة منهم معه ويفرق بعضهم إلى أصحابه ليتعشوا معهم وكان منهم أبو هريرة رضي الله عنه)(٨٧).

وآوى فيه أيضاً ضعيفات النساء اللاتي أسلمن ولم يجدن مأوى حين قدومهن

---

(٨٦) الطبري: المصدر السابق: جـ ٢: ص ٨.

(٨٧) إبن سعد: المصدر السابق: جـ ١: ص ٢٥٥.

للمدينة، وفيه أيضاً رسالة تعليم المسلمين أمور دينهم وكان مكاناً لاستقبال الرسل الذين يفدون إليه ﷺ وتعقد فيه ألوية جيوش المجاهدين، هذا هو الدور الذي كان يقوم به المسجد النبوي لتربية الأمة التربية الإسلامية الحقيقية.

وما أن انتهى من وضع اللبنة الأخيرة في مسجده وبيته حتى أخذ ينظر نظرة جديدة لمجتمع المدينة قديمه وحديثه فوجده قسمين: العرب واليهود فعمل ﷺ على إقامة مؤسسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد تمت المؤاخاة في دار أنس ابن مالك وقيل أنها تمت خلال بناء مسجده ﷺ، ولم يحدث على مر العصور المختلفة حتى يومنا هذا أن حدث مثل هذه المؤاخاة في أي مجتمع سوى المجتمع الإسلامي حيث تم بناء هذه المؤسسة بين طرفين أحدهما لا يملك شيئاً من الأموال والعقارات وهم المهاجرون تركوا كل شيء خلفهم، وقال الرسول ﷺ للأنصار: ((إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع فقال: رسول الله ﷺ: أو غير ذلك؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: هم قوم لا يعرفون العمل فتكلفونهم وتقاسمونهم الثمر، قالوا نعم)) (٨٨).

هذا هو الطرف الأول أما الطرف الثاني وهم الأنصار فهم يملكون الأموال والعقارات، هؤلاء الذين كانوا يقدمون كل شيء لإخوانهم كما نزل في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٨٩).

لقد آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وكانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين ومثلهم من

(٨٨) إبن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد: جـ٣: ص ٦٣.

إبن الجوزي: (إبن سيد الناس): عيون الأثر: جـ١: ص ٢٣١.

(٨٩) سورة الحشر: آية رقم (٩).

الأنصار، كان هدفه ﷺ من هذه المؤاخاة أن يوجد تشريعاً للمهاجرين يعالج به أوضاعهم الاقتصادية، وأن يذهب عنهم وحشة الغربة ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، وما أن زالت كل هذه الأسباب حتى أبطل الله سبحانه وتعالى التوارث بالمؤاخاة، وأبقى أخوة المؤمنين.

وبدأ المجتمع الإسلامي الجديد بمميزاته الجديدة في المؤاخاة والعدالة، ونجحت المؤاخاة مما أدى إلى حنق اليهود على المجتمع الجديد وبدأ صراع اليهود والمسلمين يأخذ شكلاً جديداً بين شريعة الإسلام بدولته الجديدة الناشئة مع الكفر والغطرسة اليهودية، لقد أخذ هذا الصراع مكانة بين المؤرخين العالميين لما له من أهمية في اجتياز الأمة الإسلامية الناشئة مرحلة الخطر الاقتصادي والخطر العقائدي، والإسلام بطبيعته دين إلهي لا يفصل بين قضاياه الدينية والعلمية والاقتصادية، وإنها جميعاً فروع للأصول الإسلامية وما أن لاحظ ﷺ الحنق اليهودي على مجتمع الدولة الإسلامية الناشئة حتى أراد أن ينظم العلاقات بين أهل المدينة فكتب صحيفة المدينة، التي أصبحت أساساً لتنظيماته ﷺ في المدينة المنورة، ودستوراً لعلاقات هذه الدولة مع الدول والملل الأخرى، ولسكان المدينة مع بعضهم البعض، ومعاهدة اليهود وموادعتهم وإقرارهم على دينهم وأموالهم.

فمن بنودها أن المؤمنين من مكة والمدينة، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس، وأن تكون أيديهم جميعاً على من بغى منهم ولو كان ولد أحدهم، ومن تبعهم من اليهود فله النصرة والأسوة، وأن ينفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يكون على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن يكون بينهم النصرة على من حارب أهل الصحيفة، وبينهم النصح ونصرة المظلوم.

وتحدثت الصحيفة عن قواعد عامة فإذا حدث شجار أو خلاف بين أهل الصحيفة فإن مرده إلى الله عزوجل وإلى محمد ﷺ وإن بينهم - أهل الصحيفة -

النصر على من حارب يثرب، حاربهم في المدينة المنورة.

هذه بعض البنود الأساسية لصحيفة المدينة والتي تعد بمثابة أقدم دستور مكتوب في العالم، والتي نظمت حياة الناس من حيث العقيدة والمواطنة، فمنعت خروج المسلمين دون إذن محمد ﷺ، ومنعت الظلم والعدوان في المال والعرض، والصلح المنفرد، منع إجارة قريش ومن سار معها، الإسهام في نفقة الدفاع عن الدولة وفداء الأسرى، حق الجار، حق حرية العقيدة والدين، تحريم قتل المسلم بالكافر، وأي اختلاف يكون مرده إلى الله عزوجل ورسوله ﷺ.

وبدأت الأوضاع تأخذ شكلاً جديداً من الاستقرار في المدينة فقد جمع ﷺ الأوس والخزرج تحت إسم (الأنصار) لإقامة الاستقرار بالمدينة والقضاء على العصبية القبلية التي مزقتهم بالحروب المستمرة قبيل البعثة، ثم ضمن ﷺ بالمؤاخاة معيشة المهاجرين، وساعده على ذلك حسن نية الأنصار من أهل المدينة ووضع دستور المدينة الذي تناول أسساً وقواعد لكل من يسكنها من المسلمين واليهود كي ينظم سير الحياة العامة فيها.

بعد هذا كله أراد ﷺ أن يضع أصولاً جديدة للمهاجرين والأنصار ومن دخل الإسلام من القبائل العربية المجاورة والبعيدة ليحقق لهم الحياة السعيدة في ظل الدولة الناشئة وليتفرغ لأمور أخرى أهمها القتال والجهاد في سبيل الله فوضع أصولاً جديدة لنظام الإقطاع في الدولة الإسلامية بغرض تمليك المسلمين أرضاً وبيوتاً، وخلافها حتى يتمكنوا من العمل بأنفسهم ويتهيؤوا لعبء الرسالة الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، كما سيتضح من خلال الفصل القادم.

الفصل الثالث

الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي

الفصل الثالث

الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي

أولاً: العوامل التي دفعت بالرسول ﷺ لانتهاج وتشريع نظام الإقطاع.

١- العامل الديني (التأليف على الإسلام)

٢- العامل الاقتصادي

٣- العامل الاجتماعي.

٤- العامل الحربي ونكاية العدو.

٥- العامل الفني (عامل الخبرة)

ثانياً: أنواع الإقطاع النبوي:

١- إقطاع الأراضي

أ- إقطاعاته في أرض الموات (البور):

ب- إقطاعاته في الأراضي العامرة:

٢- إقطاع المساكن (الدور):

٣- إقطاع المياه:

٤- إقطاع المعادن:

٥- إقطاع المراعي (الكلأ):

ثالثا: الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي:

أ - الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي للفرد والجماعة والدولة الناشئة:

ب- الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي مع القبائل العربية لصالح الدولة الإسلامية:

أولا: العوامل التي دفعت بالرسول ﷺ لإنتهاج وتشريع نظام الإقطاع

في الوقت الذي إكتملت فيه مسيرة الهجرة الطويلة بما فيها من إرهاصات، وصعوبات، ونجوى، من مكة المكرمة دار ومنزل الوحي إلى المدينة المنورة دار ومنزل الهجرة، ظهرت بعد ذلك الحاجة الماسة إلى المال والدور والاستقرار، فكان المال ضرورياً للإنفاق على تلك العصبة المهاجرة، علماً بأن عددهم لم يتجاوز الخمسة والأربعين صحابياً، وكان معظمهم قبل الهجرة ذوي موارد خاصة...

ولكن هذا المنزل الجديد، والمكان الذي ارتضاه لهم سبحانه وتعالى، لم تتوفر فيه تلك النواقص فمن أين ينفقون؟ وقد تركوا أموالهم وعقاراتهم، وأين يقطنون وقد فقدوا ديارهم ومنازلهم،؟ وكيف يستقرون، وقد خرجوا من الذل والإهانة والمطاردة، ومن المعروف أن الغرض الأساسي من الدعوة الإسلامية هو عقائدي وأخلاقي لتثبيت العقيدة في قلوب المؤمنين، ونشر الأخلاق السليمة، التي تكفل الحياة السعيدة للفرد والجماعة، وقد اعتمد ﷺ في نشر العقيدة على أسلوب الإقناع والإيضاح، مبتعداً عن الإغراء المادي.

ولقد زادت الحاجة لتوفير هذه المتطلبات بعد الزيادة المضطردة للمسلمين حيث انضم إليهم كثير من أهل المدينة، وأهل القرى والعشائر والقبائل المجاورة، ومن المعروف أن مجتمع المدينة كان مجتمعاً زراعياً، فدخل الفرد محدود، ومستوى معيشته عادي، وذلك يدلنا على أن سكان المدينة من الأنصار قبل الهجرة كانوا محدودي الدخل.

ورغم أنه ﷺ كان مقتنعاً بأن الإسلام يجب أن يبتعد عن الإغراء المادي، إلا أنه كان يجد أن هذا الأمر لابد منه، كي يُغدق على أولئك المهاجرين الأرض والأموال والدور، ويعرف ﷺ أن الإنسان المستقر يستطيع أن يفكر ويعطي، والإنسان الذي

تتوفر له سبل الحياة السعيدة والبسيطة يستطيع أن ينظر للمستقبل الذي أراده لهم الله سبحانه وتعالى وارتآه لهم.

وعندما استقر المقام بتلك العصبة في المدينة المنورة واكتملت المقومات الأساسية لدولة الإسلام الأولى كانت قابلة لاستيعاب كل معتنق جديد للإسلام، وأصبحت لهذه الدولة سيادتها الداخلية على رعاياها.

وأخذ ﷺ ينظر بعين الحب والعطف لصحابته الذين جالسوه وآزروه، وتحملوا مشاق الهجرتين للحبشة والمدينة، أخذ ينظر بعينه الفاحصة إلى أولئك النفر كيف يسعدهم ويعطيهم، كان قد آمن به قلة قليلة، ولكن قوة هذا الإيمان وثباته جعل هذه القلة قادرة ومؤهلة لنشر الإسلام بين الناس مما دفع بالقبائل إلى الإقبال عليه واعتناقه، حتى الذين ناوءوا الرسول ﷺ، في بادئ الأمر لم يجدوا بداً من أن يذعنوا له ويدينوا بما جاء به... تركوا كل شيء، وانضموا إلى تلك العصبة، وانضموا للطريق السليم القويم الذي سار فيه ونهجه ﷺ، كانوا في موطنهم أغنياء بأموالهم ودورهم وأهليهم، كانوا أغنياء بتجارتهم وأعمالهم تركوا كل شيء، ولم يبق لهم أنيس سواه ﷺ فوقف متأملاً، يريد أن يعطيهم ما فقدوه وأن يعوضهم ما سلب منهم، فأخذ يسن نظام الإقطاع لمعالجة ذلك الوضع

إن النبي ﷺ عندما أنهى طريق هجرته الشاقة مع صحابته رضي الله عنهم الذين سبقوه ورافقوه، ولحقوا به ﷺ ووصل إلى مدينة يثرب، والتي أطلق عليها المدينة المنورة، قام باستحداث مؤسسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكتب الصحيفة التي كانت بمثابة أول دستور بين سكان المدينة، وأخذ ﷺ بدراسة الأوضاع الاقتصادية المتردية التي يعيشها أهل المدينة المنورة قبل حضور المهاجرين، والأوضاع الاقتصادية السيئة التي يعيشها المهاجرون مع إخوانهم الأنصار وقد خففت المؤاخاة من تلك الأعباء خصوصاً على المهاجرين، إلا أنها كانت حلا" أوليا"، ولم يكن الحل حلا" نهائيا"

وشاملا" للمعضلة الاقتصادية التي يعاني منها المسلمون بشقيهم المهاجرين والأنصار.

أقدم ﷺ على تشريع نظام الإقطاع، ذلك بعد أن بدأت الأمور تستقر وتتضح على إثر تأسيس أول دولة إسلامية في المدينة المنورة، والتي أصبح ﷺ على رأسها لقيادتها إلى ما أمره به ربه جلت قدرته، فأصبح بذلك رئيساً للدولة الناشئة بالإضافة إلى نبوته، وأصبح يقودها ويخطط لها من جميع النواحي: دينياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً واقتصادياً.

قال أبويوسف: وقد أقطع رسول الله ﷺ أقواماً ورأى الصلاح فيما فعل من ذلك إذ كان فيه تأليف على الإسلام، وعمارة الأرض، وقد أقطع من وجد فيهم غناء في الإسلام، ونكاية للعدو، ورأى أن ما فعله هو الأفضل ولولا ذلك لم يأته، ولم يُقطع حق مسلم ولا معاهد (١) وكان ﷺ يكتب القطائع باسم الشخص أو القبيلة أو الجهة المقطع إليها، لتكون هناك وثيقة بيد المقطع، كي يدافع بها عن حقوقه، حينما يظهر أي نزاع مع آخرين.

وكان من أهم العوامل التي دفعت به ﷺ لتشريع هذا النظام الجديد هي:-

١- العامل الديني: (التأليف على الإسلام):

وهو يعتبر من أبرز وأهم العوامل التي هدف بها ﷺ إلى نشر الإسلام كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. (٢) فمنح ﷺ كل من رأى فيه صلاحاً لنشر الإسلام أو رأى فيه خيراً للإسلام، أو المؤلفة قلوبهم إقطاعاً. وتنقسم إقطاعات العامل الديني إلى عدة أنواع منها:

(١) أبو يوسف: القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم - كتاب الخراج - ص٦٢.

(٢) سورة التوبة: الآية (٦٠).

أ- إقطاع المؤلفة قلوبهم:

يكون ذلك موقوفاً بتغلغل العقيدة في قلوبهم، كما حصل في إقطاع فرات ابن حيان العجلي، وهو من أشراف اليمامة، من بني سعد فقد أقطعه ﷺ أرضاً باليمامة تغل أربعة آلاف ومائتين، وقال عنه النبي ﷺ: (إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم: فرات بن حيان...) (٣). لقد أسلم فرات وحسن إسلامه، وحضر غزوة خيبر ٧هـ/ ٦٢٨م ولم يعطه ﷺ من إقطاعاته للمسلمين في خيبر شيئاً، فقد اطمئن الرسول ﷺ لإسلامه (٤).

ب- الإقرار على ما باليد وإقطاع من دخلوا في الإسلام:

تم إقطاع أولئك بعد دخولهم الإسلام، فقد قدم وائل بن حجر الحضرمي وافداً على النبي ﷺ من حضرموت قائلاً: جئت راغباً في الإسلام والهجرة، فدعا له ﷺ ومسح على رأسه، ونودي ليجتمع الناس: الصلاة جامعة، سروراً بقدوم وائل، وأمر الرسول ﷺ معاوية بن أبي سفيان أن يُنْزله منزلاً بالحرة، ولما أراد الشخوص إلى بلاده كتب له رسول الله ﷺ كتاباً هذا نصه: (هذا كتاب من محمد النبي لوائل ابن حجر قَيلْ حضرموت: إنك أسلمت وجعلت لك ما في يديك من الأرضين، والحصون، وأن يؤخذ منك من كل عشرةٍ واحد، ينظر في ذلك ذوا عدلٍ، وجعلت لك أن لا تظلم فيها ما قام الدين، والنبي ﷺ والمؤمنون عليه أنصار) (٥).

ونعرض لنموذج آخر من إقطاعات الإقرار على ما باليد لتأليفهم على الإسلام، فقد أرسل ﷺ كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، يدعوه فيه للإسلام جاء فيه:

(٣) أبو داوود: سنن أبو داوود - كتاب الجهاد - حديث رقم ٢٦٥٢.

(٤) العسقلاني: الإمام الحافظ احمد بن علي بن حجر - الإصابة في تمييز الصحابه - ج٥ - ص ٢٧٣.

ابن الأثير: الإمام عز الدين أبي الحسن على بن محمد الجزري - أسد الغابة في معرفة الصحابة - ج ٣ - ص ٤٥١.

ابن سلام: الإمام الحافظ أبي عبيد القاسم - (تحقيق: محمد خليل الهراس) كتاب الأموال - ص ٢٨٧.

(٥) إبن سعد - محمد - الطبقات الكبرى - ج ١ - ص ٣٤٩ - ٣٥٠

محمد حميد الله - المصدر السابق - ص ٢٥١.

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر الغساني سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق. فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، ويبقى لك ملكك) حملها شجاع بن وهب الأسدي (٧هـ/ ٦٢٨م). وقيل إن الحارث رفض تلك الدعوة، ورمى بكتاب رسول الله ﷺ وقال من ينتزع مني ملكي، وجهز جيشاً، واستشار قيصر ملك الروم - بحكم أنه يعمل تحت إمرته - ونصحه بعدم الخروج لمحاربة الرسول، فعدل وأرسل مع شجاع مائة مثقال ذهباً (أومائة دينار ذهباً)، وقال له: اقرأ على الرسول ﷺ مني السلام، فأخذ ذلك شجاع للرسول ﷺ فقال: باد ملكه، (وقد مات الحارث في عام الفتح) (٦).

فمن هذا النموذج أراد ﷺ أن يقر للحارث ملكه، فتبقى له مملكته فلا تقربه جيوش المسلمين إذا دخل الإسلام، بل تحافظ له على ملكه، لكنه أبى، فدعى عليه ﷺ بأن يبيد ملكه، وتم ذلك بالفعل.

ج - إقطاع للمؤلفة قلوبهم خارج جزيرة العرب في بلاد لم تفتح بعد:

ومثال ذلك إقطاع وفد تميم الداري، فقد وفد الداريون إلى رسول الله ﷺ مرتين قبل وبعد الهجرة، وسألوه في المرة الأولى أرضاً فدعا بقطعة من أدم وكتب كتاباً جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين، إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عينون، وحبرون، والمرطوم، وبيت إبراهيم، ومن فيهن إلى الأبد) شهد عباس بن عبد المطلب، وكتبه شرحبيل ابن حسنة، وعندما هاجر ﷺ إلى المدينة قدموا عليه ثانية وسألوه أن يجدد لهم الكتاب فجاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لتميم بن أوس الداري: إن له قرية حبرون، وبيت عينون، قريتهما كليهما، وسهلهما وجبلهما،

(٦) إبن سيد الناس - الإمام أبي الفرج عبد الرحمن إبن الجوزي - عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير - ج٢ - ص٣٣٩ - ٣٤٠.
حميد الله: محمد - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - ص١٢٦.

وماءهما وحرثهما وأنباطهما وبقرهما، ولعقبه من بعده، لايُحاقه فيهما أحد، ولايلجهما أحد بظلم، فمن ظلم وأخذ منهم شيئاً، فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)، كتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان ذلك في ٩هـ/ ٦٣٠م. بعد عودته ﷺ من غزوة تبوك (٧)، وبقي الوفد حتى توفي الرسول ﷺ وأوصى لهم بمائة وسق (٨). وتعتبر هذه من أهم وثائق الإقطاع النبوي.

وجدد الكتاب في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه (١١هـ/ ٦٣٢م - ١٣/٦٣٤م) وتم تسليم ذلك الإقطاع للداريين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣هـ/٦٣٤ - ٢٣هـ/ ٦٤٣م) بعد أن تم فتح فلسطين في عهده.

هذه نماذج مختلفة من إقطاعاته ﷺ للمؤلفة قلوبهم، وقد صلح إسلام معظمهم، وبرز بعضهم في الفتوحات الإسلامية، وفي العلوم الدينية المختلفة، ففرات بن حيان العجلي مثلاً أسلم وحسن إسلامه، وتفقه في الدين، وغزا ﷺ مع الرسول ﷺ إلى أن توفي الرسول ﷺ، ثم نزل مكة، وقال عنه ﷺ (إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان).

أما تميم بن رقيه فقد كان راهب أهل فلسطين أسلم سنة تسع للهجرة ومعه صحبته، مات بفلسطين ببيت جبرين فيما بين القدس وغزة، وكان قد غزا مع النبي ﷺ واشتهر برواية الأحاديث، وروى له البخاري ثمانية عشر حديثا"، وخُرّج له أحاديث في صحيح مسلم وغيره من كتب الحديث الصحيحة، وأما عن الأرض التي أقطعها إياه الرسول ﷺ فهي أرض معمورة، ولم تكن تحت سيطرة المسلمين آنذاك، فكان ذلك الإقطاع قبل أن تفتح فلسطين وبلاد الشام، فجعلها ﷺ له نفلا" من أموال أهل الحرب، وكانت إقطاعا واضحا" بصريح العبارة.

(٧) الحموي: مصدر سابق ج٢ ص ٢٤٥-٢٤٦-٢٥٤-٢٥٦.

(٨) الوسق: الجمع: أوسق، وقيل هو حمل بعير، وهو ستون صاعا بصاع النبي ﷺ، وهو خمسة أرطال وثلث. (أنظر ابن منظور: ج٢ ص ٧٣٥).

أما وائل بن حجر فقد وفد على رسول الله، وكان ﷺ قد بشر أصحابه بقدومه قبل أن يصل بأيام وقال: (يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة، من حضرموت، طائعاً راغباً في الله عز وجل وفي رسوله، وهو بقية أبناء الملوك) (٩). وعندما قرب من رسول الله ﷺ بسط له رداءه وأجلسه عليه وقال: (اللهم بارك في وائل وولده) واستعمله الرسول على أقيال حضرموت، عاش حتى أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وشهد صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وروى عن النبي أحاديث (١٠).

٢ - العامل الاقتصادي:

وهو من أهم العوامل وأعظمها فهذا هو عامل عمارة الأرض الموات واستثمار الأرض البور (١١) لما في إصلاحها وإعمارها من فوائد عظيمة، وذات شقين أساسيين حيث يستفيد منها الشخص المقطع، وتستفيد منها الدولة الإسلامية الناشئة فقد قال: (عادي الأرض (١٢) لله ورسوله، ثم هي لكم من بعد، فمن أحيا أرضا" ميتة فهي له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين) (١٣).

ولما سُئل ﷺ عما يريده من ذلك فقال: (تُقطعونها للناس) وقد كانت أكثر إقطاعاته ﷺ في الأرض الموات حيث قال بن سلام في كتاب الأموال: (إن الرسول ﷺ حينما هاجر إلى المدينة، جعل له أهل المدينة كل أرض لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء) فكان ﷺ يقوم بإقطاعها لأصحابه. ومثال ذلك إقطاع الزبير بن العوام: قدر

---

(٩) حميد الله: المصدر السابق - ص١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١-١٣٤.

(١٠) إبن سعد: المصدر السابق - ج١ - ص٣٤٣ - ٣٤٤.

إبن الأثير - المصدر السابق - ج ٤ - ص٣٠٥.

(١١) الأرض الموات: هي الأرض التي لا أثر فيها لنبت ولا زرع ولا مرعى، ولا موضع حطب أو مقبرة، ولا ساحة لقرية ولا مالك لها أو واضع يد عليها، وعادة ما تكون تلك الأرض الميتة لمن يقوم بإحيائها.

(أنظر الماردي: مصدر سابق ص٢٢٢)

(ابن منظور: مصدر سابق ج٢ ص٥٧٩)

(١٢) عادي الأرض: هو قديم الأرض الذي من عهد عاد.

(١٣) الماوردي: أبي الحسن علي بن محمد - الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ٢٣٩-٢٤٠.

ركض فرسه من موات البقيع فأجرى فرسه ثم رمى سوطه رغبةً في الزيادة فقال: (أعطوه منتهى سوطه) (١٤).

٣- العامل الاجتماعي:

وهذا أيضا" من العوامل المهمة التي دفعت بالرسول ﷺ بإقطاع أولئك الفقراء (كي يصلح من أحوالهم) الذين بذلوا كل ما لديهم من جهد وأموال في سبيل الدعوة إلى الدين الجديد، والرسالة الشاملة، وسُلبوا من كل عقاراتهم وأموالهم، وتجارتهم في مكة قبيل الهجرة، ذلك في السنوات الأولى للدعوة وبذلك يكون ﷺ قد كافأ تلك الفئة التي بذلت الكثير مما تملك من أجل إنجاح ونشر الرسالة الجديدة والعظيمة. ومن أولئك الصحابة الذين أقطعهم ﷺ هم:

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله عنهم، وكانت تلك الإقطاعات من أموال وأرض بني النضير عام (٤هـ/٦٢٥م) ومن الأنصار أقطع اثنين هما: أبا دجانة (سماك بن خرشة الساعدي) وسهيل بن حنيف رضي الله عنه ذكرا له فقرهما فأعطاهما (١٥)

لقد كان الغرض من إقطاع هؤلاء الصحابة هو تعويضهم عما فقدوه من أموال وعقار وتجارة في سبيل الدعوة بعد هجرتهم إلى المدينة.

٤- العامل الحربي ونكاية العدو:

وهذا العامل يرجع إلى عدم تفرغ الرسول ﷺ وصحابته للقيام بالأعمال الزراعية، فأوكل ﷺ الأرض لمن يستطيع استصلاحها واستثمارها، فأقطعت لأولئك الأفراد بضمانات ليعملوا في زراعة الأرض، وتتفرغ الدولة لمحاربة الفئات

(١٤) إبن سلام: المصدر السابق - ص ٢٩٤.

(١٥) البلاذري: الإمام أبي الحسن - فتوح البلدان - ص٣١ - ٣٣ - ٣٤

المناوئة للإسلام من الكفار والمشركين واليهود.

ومن العوامل الرئيسة التي دفعته ﷺ للإقطاع، هي نكاية العدو، ومقاومة أعداء الله في كل مكان، في مكة أولاً ثم في المدينة، وفي غزوه والفتك بقوته، والاستيلاء على أرضه، وفي إقناع من يستطيعون بإدخالهم الإسلام، وهنا كان الإقطاع خاصاً بكبار الصحابة وأوائل من أسلموا، حيث كان لهم دور كبير في نكاية المشركين ومحاربتهم.

وبذلك يكون ﷺ قد حافظ على صحابته بالبقاء معه لمجابهة أولئك المتربصين بالدعوة في أي وقت تتطلبه الظروف والطوارئ، وأيضا" يكون قد حصل على ضمانات من إنتاج الأراضي الزراعية لصالح الدولة والأفراد.

لقد قيض الله سبحانه وتعالى لهذا الدين، صفوة من البشر ليحملوا لواءه ويبلغوا معه ﷺ دعوته ويشدوا من أزره، فتمثلت فيهم قوة اليقين والصلابة في الحق، هؤلاء هم الذين سارعوا للدخول في الإسلام، فصدقوا الرسول ﷺ عندما رأوه، وآمنوا به، واتبعوا النور الذي أنزل معه، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.(١٦)

هؤلاء الذين التفوا حوله ﷺ، وصدقوه وذادوا عنه، وفدوه بالنفس والنفيس، هؤلاء الذين أحبهم ﷺ فاستغفر الله لهم جميعاً، لما قاموا به من أعمال عظيمة، وعمل ﷺ على مكافأتهم، وأقطعهم من الأرض البور والميتة لإصلاحها، ومن الأرض العامرة لاستثمارها، وأقطعهم المنازل وما إلى ذلك من إقطاعات مختلفة أدت إلى تحسين أحوالهم.

---

(١٦) سورة التحريم: الآية (٨)

٥- العامل الفني (عامل الخبرة):

لقد كان معظم المهاجرين في مكة يعملون بالتجارة، حيث الزراعة فيها تكاد تكون معدومة، فالمهاجرين لن تتوفر لديهم الخبرة الفنية في الزراعة، فلذلك عندما غزا ﷺ خيبر وحاصرهم صالحوه على شروط من بينها أنهم قالوا للرسول: (إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقرنا، فأقرهم وعاملهم على الشطر من الثمر والحب، وقال ﷺ :(أقركم ما أقركم الله) (١٧) فأعطاهم الرسول ﷺ أرضهم (خيبر) على الشطر من كل زرع فيأتيهم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في كل عام فيخرصها (١٨) عليهم، حتى أنهم شكوا شدة خرصه للرسول ﷺ وأرادوا أن يرشوه فقال لهم: أتطعمونني السحت (الرشوة) يا أعداء الله، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ، وإنكم لأبغض إليّ من عدتكم من القرود والخنازير ولن يَحْملني بُغضي لكم وحبي لرسول الله ﷺ على أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض (١٩).

ولقد نكث أهل خيبر بشروط الصلح وأراد ﷺ أن يجليهم عنها، فقالوا: دعنا نكن في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، وحيث لم يكن له ﷺ وصحابته غلمان يقومون بهذه الأرض، ولم يستطيعوا التفرغ هو وصحابته للقيام عليها بأنفسهم، ولم يكن لديهم الخبرة الكافية للقيام عليها فتركهم وشأنهم.

إن العوامل التي دفعت بالرسول ﷺ لتشريع ذلك النظام العظيم نظام الإقطاع، إنها عوامل متداخلة وهدفها واضح وشامل وعظيم، فصاحب الإقطاع الذي أقطعه الرسول ﷺ يعمل على إحياء وعمارة ما أقطع كي يستفيد شخصياً ويفيد دولته الناشئة وأن تلك الفئة التي أظلها الإسلام بالعقيدة من المسلمين أقطعهم الرسول، والفئة الأخرى التي أظلها الإسلام بتسامحه من أهل الذمة - أقرهم ﷺ على أموالهم

(١٧) البلاذري: مصدر سابق ص ٣٦١.

(١٨) الخارص: هو الذي يأخذ الثمر مما فيه من الزكاة (أنظر) الرازي - مختار الصحاح ص ٧٣)

(١٩) البلاذري: المصدر السابق - ص ٣٦ حتى ٤٠.

ودينهم وأعمالهم بشرط أن يؤدوا ما عليهم من خراج وجزية. فيما سبق حللّت تلك العوامل المترابطة والمتداخلة وأعطيت مثلاً أو أكثر في بعض الأحيان لكل عامل - كما أوضحت أن أصول الإقطاع الإسلامي وضعت في العصر النبوي العظيم، وكانت معظم إقطاعاته ﷺ للتأليف على الإسلام سواء كان الإقطاع جديداً لأول مرة أو جاء إقراراً على ما باليد في حال دخول صاحبه الإسلام، وقد كان لتشريع ذلك النظام أثره الكبير بالدفع بالرسالة العظيمة والتي قادها ﷺ شخصياً في إطار تثبيت العقيدة، وإيجاد الوسائل اللازمة للحياة البسيطة لصحابته من أجل الانطلاق إلى الأفق الأبعد لإدخال الناس في دين الله أفواجاً كما لوحظ ذلك في كتب السيرة وكتب التاريخ .

ثانياً: أنواع الإقطاع النبوي:

١ - إقطاع الأراضي:

تعتبر الأرض المصدر الرئيسي للإنتاج، وقد أحيطت بأحكام خاصة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لما لها من مكانه حيوية تحتلها في حياة الأمم، وقد عملت الدولة الإسلامية الأولى في عهده وبقيادته، على تنظيم التوازن الإجتماعي، في الملكيات التي تخص الدولة والأفراد، وكفلت بطريقة صحيحة وسليمة كيفية إحياء الأرض الموات، والأرض العامرة، والطريقة المثلى التي سنها ﷺ في إقطاعها وكان ذلك كله يتم بطرق دقيقة ومنظمة وعادلة.

وقد أصبح الإقطاع نظاماً إقتصادياً ومالياً له قواعده الشرعية من السنة الشريفة، وكتب سجلت بها إقطاعات عاشت لفترات طويلة من الزمن.

وقد جاءت أكثر الإقطاعات الممنوحة في الأرض الموات بدافع الاستثمار الاقتصادي باستصلاح وإعمار الأراضي البور لصالح المسلمين والدولة الإسلامية، لما فيها من زيادة في الإنتاج الزراعي، وما يستفيد منها من إيرادات لبيت مال المسلمين.

اعتبر الإسلام عمارة الأرض من باب طاعة الله سبحانه وتعالى، لتحقيق معنى استخلاف الله للإنسان في الأرض، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(٢٠) وقوله أيضاً: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾(٢١) فالله سبحانه وتعالى استعمرنا في الأرض أي كلفنا بعمارتها، والمسلم مكلف بذلك الإعمار حتى

(٢٠) سورة البقرة: آية رقم ٣٠.

(٢١) سورة هود: آية رقم ٦١.

اللحظة الأخيرة من عمره، كما جاء في قول الرسول ﷺ (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة - أي شتلة - فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر) (٢٢) وفي قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (٢٣) وأيضاً قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٢٤).

لقد أراد ﷺ أن يدخل الطمأنينة إلى قلوب صحابته رضي الله عنهم بأن حاول جاهداً بعد وصوله إلى المدينة المنورة أن يؤمن لهم كل السبل الصحيحة للوصول لحياة سعيدة مستقرة، من سكن ومعاش، وأرض فسن ﷺ نظام الإقطاع.

والأصل في إحياء الأرض ما روى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من أحيا أرضاً مواتاً فهي له (٢٥). وعن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي قال: (من عمَّر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها) (٢٦)..

من الحديثين السابقين يُلاحظ أن ملك الأرض الموات يكون مشروطاً بإحيائها، ويكون إحياء الأرض: إما ببناء دار للسكن، أو حظيرة للغنم، أو مزرعة يسوق إليها الماء، أو يحفر بها بئراً، فتصبح بذلك صالحة للزراعة فتغرس بها الأشجار، وبذلك يكون المقطع مالكاً لها بإحيائها.

---

(٢٢) البخاري وأحمد بن حنبل.
(٢٣) سورة يس - آية رقم ٣٣.
(٢٤) سورة الحج - آية رقم ٥.
(٢٥) البخاري: فتح الباري - ج١ - ص.
(٢٦) أبو يوسف: المصدر السابق - ص٦٤.

أما شروط إحياء الأرض الموات: فيجب أن يأخذ الأذن من إمام المسلمين وأن لا تكون ملكاً لأحد (مسلم أو ذمي) وألاّ تكون من المرافق العامة التي ينتفع منها عامة المسلمين كالسوق وما شابهه، وأن يتم إحياؤها في مدة ثلاث سنوات، وإن لم تكتمل هذه الشروط فتؤخذ الأرض منه وتعاد لبيت المسلمين أو يؤخذ منها ما لم يستطع إحياؤه وتقطع لغيره حتى تعم الفائدة. وإذا عجز عن الإحياء لعذر ظاهر يظل وضع اليد قائماً عليها حتى زوال عذره (٢٧).

لقد أكثر ﷺ في إقطاع الأراضي الموات، كما أقطع من الأراضي العامرة.

أ- إقطاعاته ﷺ في أرض الموات (البور):

أقطع النبي ﷺ العديد من الصحابة من أرض الموات، وكان ممن أقطعهم، فرات بن حيان العجلي: أقطعه ﷺ أرضاً مواتاً باليمامة، وقال عنه ﷺ في يوم خيبر حين أعطى المؤلفة قلوبهم ولم يعط فرات: (إن فيكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم: فرات بن حيان) ولم يزل يغزو مع رسول الله ﷺ إلى أن توفي ﷺ فانتقل فرات إلى مكة، فقد أسلم وحسن إسلامه، وتفقه بالدين، وقيل إن الرسول: أقطعه أرضاً باليمامة تغل أربعة آلاف من العامر (٢٨).

وأقطع الرسول ﷺ الزبير بن العوام قدر ركض فرسه (جرية سريعة لفرسه) من موات البقيع، فأجراه ثم رمى بسوطه رغبة في الزيادة، فقال رسول الله ﷺ أعطوه منتهى سوطه (٢٩) وقد تم ذلك.

قال العباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن مرة قال: (أقطع رسول الله ﷺ حمزة ابن النعمان بن هوذه العذري سيد بني عذره رمية سوطه من وادي القرى) ويعتبر حمزة

(٢٧) القرشي: مصدر سابق ص ٩٠.
ابو يوسف مصدر سابق ص ٦٦.
(٢٨) أنظر البحث: ص ١٥٥.
(٢٩) الماوردي: المصدر السابق - ص ٢٣٩.

أول أهل الحجاز قدوماً على النبي ﷺ بصدقة بني عذره (٣٠).

من إقطاعي الزبير بن العوام، وحمزة بن النعمان بن هوذه العذري نلاحظ طريقة جديدة في الإقطاع، حيث كان تحديد مساحة إقطاعهما يعتمد على وسائل القياس المستخدمة في بيئة جزيرة العرب، فأعطاهما كل منتهى جرى فرسه، ورمي سوطه هذا هو النمط الجديد الذي لم يحدد جغرافياً كما في الإقطاعات الأخرى.

كما أقطع النبي ﷺ :بلال بن حارث المزني العقيق أجمع وهو يعلم أنه بين عمارة المدينة، وحيث أنه موات فلم يتعلق به مصلحة العامر، فجاز إقطاعه، وإحياؤه كالبعيد (٣١).

أقطع الرسول ﷺ بلال العقيق، لأن العقيق من أرض مزينه، ولم يكن لأهل المدينة، وبهذا يكون بلال قد أقطع من أرض قومه، علماً بأنه ﷺ كان بإمكانه أن يقطعه من أي أرض موات يشاء، قال ابن عباس: (إن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة أن الأنصار جعلوا له كل أرضٍ لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء).

فالمقطع يصير أحق بإقطاعه من سائر الناس، وأولى بإحيائه فإن أحياه وإلاّ قال له السلطان (ولي الأمر) إن أحييته وإلاّ فارفع يدك عنه، كما حصل في إقطاع بلال ابن حارث المزني، فقد حدث وأن نزع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بلال ما لم يستطع إحياؤه من العقيق، حيث قال له: يا بلال إنك استقطعت رسول الله ﷺ أرضاً طويلة عريضة فقطعها لك، وكان رسول الله ﷺ لم يكن يمنع شيئاً يُسأله وأنت لا تطيق ما في يديك فقال: أجل فقال: فانظر ما قويت عليه منها فامسكه وما لم تطق وما لم تقو عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين، فقال بلال: لا أفعل والله شيئاً

(٣٠) ابن سعد: مصدر سابق ج١ ص ٣٣١-٣٣٢.

(٣١) البلاذري: مصدر سابق - ص٢٧.

أبو يوسف: مصدر سابق - ص ٣٠٢.

أقطعنيه رسول الله ﷺ فقال عمر: والله لتفعلن فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين (٣٢).

فالملاحظ هنا أن إقطاع بلال كان مشروطاً بالإحياء، وهذا من شروط إحياء الموات، ويعتبر هذا الإقطاع إقطاعاً شخصياً تتمثل فيه مسؤولية الفرد مباشرة أمام الرسول ﷺ فيكون ملتزماً بما ورد في كتاب الإقطاع.

ب - إقطاعاته ﷺ في الأراضي العامرة:

الأراضي العامرة تكون عادة ملكاً للدولة الإسلامية، أو ملكاً لدول سابقة أو قبائل أو أسر أو أفراد، أصبحت تحت يد الدولة الإسلامية، فقد أقطع ﷺ من الأراضي العامرة إقطاعات عديدة لقبائل وأفراد ونذكر منها على سبيل المثال:-

قدم وفد قبيلة عُقَيل بن كعب: أسلموا وبايعوه على من وراءهم من قومهم، فأعطاهم النبي ﷺ العقيق - عقيق بني عُقَيل - وهي أرض فيها عيون ونخل وكتب لهم كتاباً، كان بيد مطرف (٣٣).

أقطع الرسول ﷺ سعيد بن سفيان الرِّعْلي أعطاه نخل السوارقيه وقصرها، الايحاقه فيها احد، ومن حاقه فلا حق له، وحقه حق، وكتب خالد بن سعيد (٣٤).

وأقطع ﷺ لكبار الصحابة منهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب - الزبير بن العوام، وأبا دجانه أرضاً عامرة من أموال بني النضير، كان ذلك في السنة الرابعة من الهجرة ٦٢٥م بعد حصارهم ومصالحتهم له على الخروج من أرضهم لأنهم غدروا ونكثوا بالعهد الذي كتبه رسول

---

(٣٢) القرشي: مصدر سابق ص ٩٣.
أبو عبيد: مصدر سابق ص ٢٩٤ .
(٣٣) حميد الله: مصدر سابق - ص ٣١٢.
(٣٤) إبن سعد: مصدر سابق-ج١- ص٢٨٥.

الله ﷺ معهم ومع أهل المدينة وفي ذلك قال يحيى بن ادم القرشي: لما ظهر رسول الله ﷺ على أموال بني النضير، وكانوا أول من أجلي من أهل الكتاب كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾(٣٥)، وقد كتب الله عليهم الجلاء فعندما تم ذلك أصبحت أموال بني النضير ملكاً للمسلمين قال ﷺ للأنصار: (إن إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتم أموالكم، وقسمت هذه فيهم خاصة) (٣٦) قال: فقالوا: لا بل تقسم هذه فيهم، وأقسم لهم من أموالنا ما شئت قال: فنزل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣٧) قال وقال: أبو بكر: (يا معشر الأنصار جزاكم الله خيراً)، فقسمها ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار، باستثناء سهيل ابن حنيف وأبي دجانة، وكانا من فقراء الأنصار ذكرا له فأعطاهما (٣٨).

ويلاحظ أن أموال بني النضير كانت من صفاياه الثلاث (٣٩)، ﷺ فكانت خالصة له، فقسمها كما جاء أعلاه بين المهاجرين الأوائل واثنين من الأنصار، هذه عظمته، وعظمة صحابته من المهاجرين والأنصار.

(٣٥) سورة الحشر - آية رقم ٢.

(٣٦) البلاذري: مصدر سابق ص ٣٣-٣٤.

(٣٧) سورة الحشر - آية رقم ٩.

(٣٨) القرشي: يحيى بن آدم - كتاب الخرج - ص ٣٤ - ٣٥.
البلاذري: المصدر السابق - ص ٣٣ - ٣٤.

(٣٩) قال عمر بن الخطاب ﷺ: كانت لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا هي (مال بني النضير - مال خيبر - مال فدك).
(أنظر البلاذري: مصدر سابق ص ٣٣)
(أنظر ابو داود: مصدر سابق: مختصر البغا- حديث ٢٩٦٧ ص ٤٢٤).

أما عن خيبر فقد جزأها ﷺ ثلاثة أجزاء قسّم جزأين منها للمسلمين وأقطعها لهم وحبس الجزء الثالث لنفسه ونفقة أهله، ولكن ما فضل منها رده وقطعه إلى فقراء المهاجرين كان ذلك سنة (٧هـ/٦٢٨م) (٤٠).

حاصر ﷺ يهود خيبر ثم صالحوه على حقن دمائهم وأن يجلوا ويخلوا بين المسلمين وبين الأرض على أن لا يكتموه شيئاً، وأمرهم على عمارة الأرض والنخل وعاملهم على الشطر من الثمر والحب، وقال: "أقركم على ما أقركم الله عليه"، وجعل عبد الله بن رواحة خارصاً على نخلهم وزرعهم فشكوا شدة خرصه للرسول ﷺ وأرادوا أن يرشوه فقال لهم: يا أعداء الله أتطعمونني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ، وإنكم لأبغض اليّ من عدتكم من القرود والخنازير ولن يحملني بغضي لكم وحبي إياه ﷺ على أن لا أعدل عليكم. فتعجبت الفئة الضالة من هؤلاء اليهود قائلين: بهذا قامت السماوات والأرض وأقطع منها أرضاً، وزرع من نتاجها أوساقاً وكتب لبني عبد المطلب منها كتاباً (٤١).

ويوجد الكثير من إقطاعاته ﷺ في الأراضي العامرة فنلاحظ أنه ﷺ أقطع منها أفراداً، وقبائل، وجماعات، أقطع كل من هو في حاجة لتلك الأراضي، بعض منهم أقطعهم أرضهم كي يستثمروها مطمئنين بأن عملهم لهم، وبعضهم أقطعهم أرضاً جديدة كي يعوض لهم ما فقدوه على أثر هجرتهم العظيمة.

كذلك نلاحظ أنه ﷺ أقطع الزبير بن العوام أرضاً من أموال بني النضير، وأرضاً من خيبر، وأرضاً من السوارق، هذا في العامر ولاحظنا أنه أقطع - أيضا" - في الأراضي الموات قدر منتهى سوطه، وأقطعه أيضا" إقطاع الصحابي سليط الذي رده للرسول ﷺ عندما وجد أن الأرض تشغله عن مجالس الرسول ﷺ وسماعه لآخر ما نزل من القرآن الكريم وآخر ما أفتى به. وإن كان من سؤال هنا فهو:

(٤٠) أنظر البحث ص ١٦١.
(٤١) البلاذري: المصدر السابق - ص ٣٦ - ٤٢.
جواد علي: - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - ج ٧ - ص ١٤٢.

لماذا كان الزبير بن العوام أكثر الصحابة من إقطاعات النبي ﷺ؟ إن تلك الإقطاعات التي خص بها ﷺ الزبير بن العوام كانت لأسباب عامة وخاصة: فهو رضي الله عنه ابن عمة رسول الله ﷺ (صفية بنت عبد المطلب) وابن أخي خديجه بنت خويلد زوج النبي ﷺ واختلفت الأقوال في وقت إسلامه فهو أسلم ما بين ثماني سنين وخمس عشرة سنة، ومن الذين هاجروا الهجرتين وقال الزبير: جمع لي رسول الله ﷺ أبويه يوم قريظة فقال: (بأبي وأمي....)

وقال عنه: (إن لكل نبي حواريا وحواري الزبير بن العوام) (٤٢) وكان رضي الله عنه أول من سل سيفاً في الله عز وجل حينما قيل في مكة (إن النبي ﷺ قد أخذه الكفار) فصلى عليه النبي ﷺ ودعا له ولسيفه وشهد المشاهد كلها، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وكان له في إقطاعاته ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فما يدخل إلى بيته منها درهم واحد حيث كان يتصدق بذلك كله، وكان الزبير وصياً على أبناء سبعة من الصحابة يحفظ على أولادهم مالهم، وينفق عليهم من ماله (منهم: عثمان بن عفان - عبد الرحمن بن عوف - المقداد وعبد الله بن مسعود) (٤٣).

وهنا أرجو أن أكون قد قمت بذكر وتحليل بعض الأسباب التي جعلت منه أكبر مقطع من إقطاعاته ﷺ فهذا هو الصحابي العظيم... وإن كنت قد أوسعت في ذكر تلك الأسباب فذلك من أجل الإيضاح بالدليل أن الرسول ﷺ يُقطع معظم أصحابه ويخص منهم مالهم أيد طولى في الإسلام والحفاظ على أموال المسلمين منهم الزبير بن العوام رضي الله عنه.

كذلك أقطع ﷺ أرضاً ليست في حوزة المسلمين ولم يثبت لهم عليها يد، فيجوز إقطاعها، وعندما يظفر بها المسلمون يجب تمليكها لمن أقطعت إليه قبل امتلاكها

(٤٢) مسلم صحيح مسلم: فضائل الزيدين العزام حديث ١٦٤٣.

(٤٣) إبن الأثير: المصدر السابق - ج ٢ - ص ٢٠٩ - ٢١٢.

(فقد ثبت في كتب الفقه والحديث والتاريخ أن الرسول ﷺ أعطى الكثير من الأراضي العامرة قبل فتحها) ومثال ذلك:- قد أقطع ﷺ ، أرضاً بفلسطين للداريين لم تكن تحت إمرة وسيطرة المسلمين آنذاك، حيث وفد الداريون عليه ﷺ مرتين قبل وبعد الهجرة، وسألوه أرضاً فكتب لهم كتاباً (هذا ما وهب محمد ﷺ للدارين إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عيون، وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم ومن فيهم إلى الأبد) شهد العباس بن عبد المطلب وكتبه شرحبيل بن حسنه.

وبعد الهجرة كان كتابه ﷺ تأكيداً لما في الكتاب السابق وأكثر تحديداً ودقة للموقع المقطع لهم وكتب سنة (٩هـ/٦٣٠م) على ما قيل وعندما تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة كتب كتاباً للدارين للتأكيد على كتاب وإقطاع رسول الله ﷺ لهم وسلمت لهم عندما فُتحت فلسطين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث عمل على تسليم ما بالكتاب الذي كتبه ﷺ وأكده أبو بكر وأصبحت من ممتلكاتهم لفترة طويلة من الزمن (٤٤).

وأيضا" أقطع ﷺ أبو ثعلبة الخشني أرضا" ببلاد الروم وهي لم تكن يومئذ بأيدي المسلمين، فقال أبو ثعلبة الخشني: يا رسول الله، اكتب لي بأرض كذا وكذا - والأرض هي يومئذ بأيدي الروم - قال: فكأنه أعجبه الذي قال: فقال: ألا تسمعون ما يقول؟ قال والذي بعثك بالحق لتفتحن عليك (لتظهرن عليها يا رسول الله) فُكتب له.

وهنا يلاحظ أن الرسول ﷺ سعد بفطرة وذكاء أبي ثعلبة، من أن أرض الروم ستصبح ملكاً للمسلمين، وهذا ما نبأ به الرسول ﷺ باستمرار لصحابته، وهكذا قام بإقطاعه الأرض التي طلبها، وكتب له بذلك لحين الظفر بها (٤٥).

---

(٤٤) انظر البحث: اقطاع تميم الداري ص ١٥٦-١٥٧.

(٤٥) الماوردي: المصدر السابق - ص ٢٤١.

حميد الله: المصدر السابق - ص ١٣٤.

كما أقطع ﷺ عبد الرحمن بن عوف أرضاً بالشام يقال لها السليل، قال عبد الرحمن بن عوف قطع لي رسول الله ﷺ أرضاً بالشام يُقال لها السليل فتوفي النبي ﷺ، ولم يكتب لي بها كتاباً وإنما قال لي: (إذا فتح الله علينا الشام فهي لك) (٤٦).

كذلك أقطع ﷺ للقبائل في الأرض العامرة وبدأ بتلك التي تجاور المدينة كي يتمكن من إيجاد الظروف الأمنية الملائمة نظراً لكثرة الأعداء المحيطين به من كل جانب، أيضاً أقطع لقبائل تتواجد في الطرق والشعاب التي توصل ما بين المدينة ومكة حتى يأمن جانبهم أولاً، ثم يحثهم على مقاطعة قريش وإضعافها إقتصادياً ثانياً بل يحالفوه إذا ما أراد العودة لمكة المكرمة، وكانت إقطاعاته لهذه القبائل بشكل ترغيبهم في الإسلام، وإقرارهم على أملاكهم السابقة كي يطمئنوا في أعمالهم من زراعة وتجارة، ويكونوا له سنداً إذا ما غزا وقام على محاربة المشركين، ومن وفود القبائل العربية، التي أقطعها ﷺ مما تحت أيديهم من الأراضي العامرة..

كان أول من وَفَدَ على الرسول ﷺ من مضر أربعمائة من مزينه في رجب سنة خمس للهجرة ٥هـ، فجعل لهم الهجرة في دارهم وقال لهم: (أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم فرجعوا إلى بلادهم، ومنهم بلال بن الحارث المزني، وخزاعى بن عبد نُهم... أرجعهم إلى دورهم وأموالهم واعتبر لهم أجر المهاجرين وحسن إسلامهم، وترأس وفد مزينه يوم الفتح خزاعى على رأس ألف رجل منهم) (٤٧).

كما وفد جماعة من بني عقيل على رسول الله، فبايعوا وأسلموا وبايعوه على أن وراءهم من قومهم فأعطاهم النبي ﷺ العقيق (عقيق بني عقيل) باليمامة وهي أرضٌ فيها عيون ونخل وكتب لهم كتاباً من أديم أحمر: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله ﷺ ربيعاً ومطرفاً وأنساً، أعطاهم العقيق ما أقاموا

(٤٦) ابن سعد: المصدر السابق - ج ٣ - ص ١٢٧.

(٤٧) ابن سعد: المصدر السابق - ج١ - ص ٢٩١ - ٢٩٢.

الصلاة، وآتوا الزكاة، وسمعوا وأطاعوا ولم يعطهم حقاً لمسلم) وكان الكتاب في يد مطرف، وبذلك يكون أمرهم على أموالهم وأرضهم وخيراتهم (٤٨).

وجاء وفد همدان إلى الرسول ﷺ على رأسهم سيدهم حمزة بن مالك فقال رسول الله: "نعم الحي همدان، ما أسرعها إلى النصر، وأصبرها على الجهد، وفيهم أبدال وأوتاد الإسلام" فأسلموا، وكتب لهم النبي ﷺ كتاباً بإقطاع محاليف باليمن (خارف - يام - شاكر - حقاف الرمل وأهل الهضب) ويقال إن النبي ﷺ أقطعهم ما سألوه (٤٩).

أيضاً قدم وفد طيء إلى رسول الله ﷺ عام (١٠هـ/٦٣١م) وعدتهم خمسة عشر رجلاً على رأسهم سيدهم: زيد الخيل بن مهلهل من بني نبهان، دخلوا المسجد على رسول الله ﷺ وأسلموا وحسن إسلامهم، فكافأ الرسول ﷺ الوفد بخمس أواق فضة لكل رجل منهم وأعطى زيداً اثنتي عشرة أوقية ونشا، وأقطعه فيداً، وأرضين وكتب ﷺ كتاباً بذلك سماه فيه (زيد الخير) وهذا الاسم الذي عُرف به في الإسلام (٥٠).

من إقطاعاته ﷺ السابقة للقبائل نلاحظ أنها كانت مبنية على عدة أسس من أهمها: التأكيد على حق القبيلة لأرضها، فكان ﷺ يُقطع القبيلة أرضها كاملة، وكأنها شخص واحد وأحياناً يقطع رئيسها (يقصد بذلك كل أفراد القبيلة)، وكان هذا الإقطاع يتم في حالة وجود ترابط وتماسك اجتماعي بين أفراد القبيلة، وإذا كانت القبيلة عكس ذلك، فيكون للإقطاع صيغة أخرى، كي يحافظ على حقوق الجماعة، وحماية الضعفاء منهم، حتى لا يستغلهم الزعماء (الأقوياء)، كانت تتم

---

(٤٨) ابن سعد: المصدر السابق - ج ١ - ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٤٩) ابن سعد: المصدر السابق - ج ١ - ص ٣٤١.

ابن سيد الناس - المصدر السابق - ج٢ - ص ٣٠٧.

(٥٠) ابن سعد: المصدر السابق - ج ١ - ص ٣٢١.

هذه الإقطاعات بدقة متناهية بعد دراسته الشاملة لنفسية كل قبيلة، من حيث القوة، والضعف، ومن حيث الترابط أو التفكك الاجتماعي فإن كانت قوية يُقطعها باسم رئيسها قاصداً جميع أفرادها، وإن كانت مفككة فيقطعها إقطاعاً شخصياً، وكان بذلك ﷺ يقر للقبيلة بملكيتها لأراضيها ونلاحظ أن تلك القبائل التي أرسلت وفودها إلى المدينة وقابلت الرسول ﷺ، أكد لها حقوقها كاملة، حيث كتب لهم بأن أرضهم لهم، وهي أرض عشرية يتوارثونها ويتبايعونها، ويستثمرونها. مؤكداً حقوقهم في ذلك، كأفراد وجماعات، وبذلك يقضي على نزعة الجاهلية في التفكك وهيمنة القوي على الضعيف، وفقدان الضعيف لحقوقه، أيضاً يضمن وقوف القبيلة بجانب المسلمين تؤمن لهم طريقهم، وتصد عنهم الغزاة، وتدفع الشرور والبلاء ويغزون مع رسول الله ﷺ.

مما سبق نلاحظ أن الرسول ﷺ بذل جهوده في السنوات الأولى للهجرة على استمالة القبائل، المجاورة للمدينة، كي يأمن شرهم، كما عمل على موادعة القبائل المقيمة فيما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، كي يستميلها إلى جانبه، وارتبط مع معظمها بروابط الحلف، فأقطعهم أراضيهم وأمرهم عليها، كما لاحظنا في بعض إقطاعاته التي ذكرنا قاصداً بذلك توفير حلفاء له خارج المدينة وفي طريقه إلى مكة، كذلك عمل على محالفة القبائل التي تقيم في طريق قوافل قريش التجارية.

حالف ﷺ من استطاع، ونجح أيضاً في تحييد بعض القبائل الأخرى مثل: (فزازه، وأسلم وغطفان، وهذيل، وتميم وعامر) وقامت قريش بعملية عكسية بتأليب بعض قبائل الشمال مثل: (جزام وبلى وكلب) على طريق الشام ضد المسلمين، ولقد نجح المسلمون إلى حد بعيد لكسب أو تحييد عدد من قبائل الشمال المهمة كي يضعفوا من وضع قريش الاقتصادي، وبعد أن حاصروه وصحابته اقتصادياً، أصبحت الأمور عكسية الآن ولصالح الدولة الناشئة.

من ذلك اتضح لقريش أن الرسول ﷺ أصبح ذو مكانة قوية في وضعه الاقتصادي والأمني، ورأت القبائل أن الرسول ﷺ يركن إلى عوامل الصدق والوفاء، وعدم الغدر لكل من اتفق معه، وذلك أضْعَفَ من وضع قريش سياسياً واقتصادياً، حيث انتشار الإسلام والأمن بين القبائل التي أصبحت موالية للمسلمين تاركة لقريش، وبفقدان قريش لتلك القبائل أدى ذلك لضعفها وزيادة في قوة المسلمين.

وكذلك نلاحظ أن بعض القبائل العربية المحيطة بالمدينة المنورة شعرت بالقوة التي وصل إليها المسلمون، فاندفعن إلى المدينة داخلة في ذلك الدين الجديد، محققة أهدافا" ومصالح من أهمها: أنها أصبحت تأمن على أراضيها وأبنائها في ظل الإسلام، وتحصل على مساعدة من الجيش الإسلامي الناشئ ضد غارات القبائل المعادية لها، لقد كانت تلك المصالح والفوائد مشجعة لدخول معظم القبائل في دين الله، كي تستفيد من تلك المزايا، وبناء على ذلك استطاع النبي ﷺ أن يوحد القبائل بعد تنافرها، ويجمعها بعد تقاتلها، تم ذلك في فترة زمنية وجيزة وسرعة فائقة أذهلت معظم الباحثين والمؤرخين، الذين ما زالوا قيد دراستها حتى وقتنا هذا.

٢- إقطاع المساكن (الدور):

لما قدم النبي ﷺ، تولى زمام الأمور فيها قابلته مشكلة ملحة وطارئة، ألا وهي مشكلة السكن، حيث أن معظم المهاجرين قدموا للمدينة فقراء وضعفاء لا مساكن لهم. وكإجراء سريع ومؤقت أقام ﷺ نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ونظراً لأن عدد المهاجرين كان بسيطاً، فمن اليسير السيطرة على ذلك الموقف بتقديم الحل السريع والناجح فأنزل المهاجرين في دور الأنصار يسكنونها معهم وهذا يعتبر إقطاع إرفاق (إقطاع غير تمليك)، لأنه مؤقت، ولكن عندما تحسن وضع المهاجرين، تركوا دور إخوانهم الأنصار، وابتنوا دوراً جديدة في أرض أقطعها لهم رسول الله ﷺ. ذلك

بمنحه المهاجرين مناطق سكنية داخل المدينة بموافقة الأنصار، والذين وهبوا للرسول ﷺ كل فضل في خططهم بالمدينة قائلين: (إن شئت فخذ منازلنا) وكان ﷺ قد خط دور المدينة على أساس الانتماء القبلي، فوزع الأفراد المهاجرين من أهل مكة على خطط الدور تبعاً للبطون التي ينتمون إليها (٥١).

إن توفير الدور والسكن للمسلمين في مقامهم الجديد، أصبح من الضروريات الملحة، لذلك عمل ﷺ على إقطاع الدور منذ فجر الإسلام، فقد أقطع دوراً في مكة قبل الهجرة، ولكن كان معظم إقطاعاته عند قدومه للمدينة، فأصبح لزاماً عليه ﷺ أن يهيىء أولئك النفر للاستقرار والسكن فأقطعهم المساكن، وأصبح يخطط ﷺ لإقامة المدن والأمصار، وبناء تلك الدولة الناشئة على أسس صحيحة من الإعمار والاستقرار من جميع النواحي الزراعية، والسكنية والاقتصادية والنفسية.

أ- ومن إقطاعاته ﷺ في مكة:

كتب رسول الله ﷺ لعتبة بن فرقد، هذا ما أعطى النبي ﷺ عُتبة بن فرقد، أعطاه موضع دارٍ بمكة يبنيها مما يلي المروة، فلا يحاقه فيها أحد، ومن حاقه فإنه لاحق له، وحقه حق، كتبه معاوية بن أبي سفيان (٥٢).

وأقطع ﷺ داراً للأزرق العساني بمكة فقد قال الأزرق: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني رجل لا عشيرة لي بمكة، وإنما قدمت من الشام وبها أصلي وعشيرتي وقد أخذت المقام بمكة، وكتب له ﷺ بدارٍ عند المروة بمكة وكتب له أن يتزوج من أي قبائل قريش شاء وولده وقد جاءه النبي ﷺ بداره تلك لحاجة قضاها، وذلك في عام الفتح (٥٣).

(٥١) ابن سيد الناس: المصدر السابق - ج١ - ص ١٩٥.
ابن سعد: المصدر السابق - ج ٣ - ص ١٤٤.
(٥٢) ابن سعد: المصدر السابق - ج ١ - ص٢٨٥.
عون الشريف قاسم - نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ - ص ٣٦٢.
(٥٣) الأزرقي: أخبار مكة وما فيها من الآثار ج٢ ص ٢٤٨.

هذان إقطاعان للدور في مكة المكرمة على سبيل المثال، حيث إقطاعها كان محدوداً جداً، إلا في بعض الحالات كالحالتين اللتين ذكرناهما أعلاه، لأن في مكة كان معظم المسلمين يملكون لأرضهم وديارهم ومنازلهم.

ب - ومن إقطاعاته ﷺ في المدينة المنورة:

باشر ﷺ بإقطاع الدور فور وصوله للمدينة المنورة كي يؤمن لهم مساكنهم في مقرهم الجديد وفي الوقت الذي بدأ فيه بإقطاع الدور بالمدينة جعل لأبي بكر رضي الله عنه موضع داره عند المسجد.

وكان منزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة خطة من رسول الله ﷺ، كذلك خط لبني زهرة في ناحية مؤخرة المسجد فجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود هذه الخطة عند المسجد (٥٤).

وفي نفس الخطه خط ﷺ لعبد الرحمن بن عوف (الحش) (٥٥) هذا المكان عبارة عن بستان به نخل صغير بجوار المسجد فالمحتمل أن يكون قد أقطع هذا المكان ليكون داراً له.

كذلك أقطع النبي ﷺ عمار بن ياسر رضي الله عنه موضع داره بالمدينة (٥٦).

وأقطع ﷺ لمحمد بن عبد الله بن جحش الأسدي داراً بسوق الدقيق بالمدينة (٥٧).

---

(٥٤) ابن سعد: المصدر السابق - ج ٣ - ص ١٥٢، وص ٢٧٢.

- الشوكاني: الشيخ الإمام محمد بن علي بن محمد - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار - ج٥ - ص٣٥٣.

(٥٥) الحش: الجمع: حشوش أو الحشيش: وهي أرض بها نخيل صغير أو بستان.

(الرازي: مختار الصحاح ص ٥٨).

(٥٦) ابن سعد: المصدر السابق - ج ٣ - ص ٢٥٠.

(٥٧) ابن الأثير: المصدر السابق - ج ٤ - ص ٧٥.

أما الأرقم بن أبي الأرقم: والذي كان سابع سبعة في الإسلام وهو من كتاب النبي ﷺ وكانت داره على الصفا وهي الدار التي كان يرتادها النبي ﷺ، في بداية الرسالة ومنها كان يدعو للإسلام أما دار الأرقم بالمدينة في بني زريق فهي قطيعة من النبي ﷺ (٥٨).

ويروي الشوكاني أن عَمْرو بن حُريث قال: خط لي رسول الله ﷺ داراً بالمدينة بقوس، وقال أزيدك أزيدك (٥٩).

من ذلك يُلاحظ أنه لما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة أقطع الناس الدور والرباع، وإضافة لما ذكر فقد أقطع ﷺ كلاً من عثمان بن عفان وخالد بن الوليد والمقداد بن الأسود وغيرهم مواضع دورهم، فكان ﷺ يقطع أصحابه هذه القطائع من الأرض غير المسكونة داخل المدينة، وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوها له فكان يُقطع من ذلك ما شاء، وعلى هذا الأساس سار إقطاع الخطط والمنازل في جميع العصور الإسلامية.

٣- إقطاع المياه:

قال ﷺ الناس شركاء في ثلاث: (الماء والكلأ والنار) فإن هذه الثلاث لا تُملك لأحد ولا تقطع لأحد بل هي ملك مشاع لجميع الناس، والحقوق فيها كاملة للدولة، وبالتالي تكون ملكاً للناس.ولكن على الرغم من ذلك إلا أن الرسول ﷺ أقطع بعضاً من الصحابة آبار المياه ومثالاً لذلك:-

فعن مغن بن سعد أن رسول الله ﷺ أعطى أبا بكر بئر حجر وأعطى عمر ابن الخطاب بئر جرم (٦٠).

(٥٨) ابن سعد: المصدر السابق - ج٣ - ص ٢٤٢.
العسقلاني: المصدر السابق - ج١ - ص ١٩٧.
(٥٩) الشوكاني: المصدر السابق - ج ٥ - ص٣٥١.
حميد الله - المصدر السابق - ص ١٦.
(٦٠) ابن سعد: المصدر السابق: ج ٣ - ص ١٩٥.

قال يحيى بن آدم القرشي: سمعت جعفر بن محمد يقول: أعطى رسول الله ﷺ علياً بئر قيس والشجرة، وفي رواية البلاذري قال: عن جعفر بن محمد - أيضا" - أن رسول الله ﷺ أقطع علياً رضي الله عنه أربع أرضين: الفقيرين، وبئر قيس والشجرة (٦١).

كما أقطع ﷺ مُشمرج بن خالد السعدي (في وفد عبد قيس) أقطعه ركيّ وكتب له كتاباً. (الركية: البئر المحفور) (الركي: هو ماء محفورة بالبادية) (٦٢).

ويروي ابن الأثير أن آمنة بنت الأرقم (من المهاجرات) أقطعها النبي ﷺ ركي ماء بالعقيق، فكانت تسمى بئر آمنة وبرّكَ لها فيها (٦٣).

ويروي الشوكاني: أن النبي ﷺ: أقطع صخر بن أبي العيله البجلي الأحمسي ماءً لبني سليم لما هربوا عن الإسلام، وتركوا ذلك الماء ثم ردوه إليهم (٦٤). ثم وفد الحصين بن مُشْمِت التميمي على النبي ﷺ فبايعه بيعة الإسلام وصدق إليه صدقة ماله، وأقطعه عدداً من آبار المياه بالشام من بينها: (الأصيهب - الثماد - المروت - والسديره) وشرط عليه فيما أقطعه إياه أن لا يمنع ماءها ولا يمنع فضلها، ولا يباع ماؤه ولا يُعقر مرعاه (٦٥).

قال: أوفى بن موله التميمي العنبري: (أتيت النبي ﷺ فأقطعني الغُمَيم وشرط عليّ أن أسقي ابن السبيل) (٦٦)، (الغُمَيم: موقع بين رابغ والجحفة في المدينة).

وأقطع النبي ﷺ ساعده التميمي العنبري بئراً في الفلاة يقال لها الجعونية (٦٧)، (الفلاة: موضع بين مكة وبدر).

---

(٦١) البلاذري: المصدر السابق: ص ٢٧.
القرشي: المصدر السابق - ص ٧٨.
(٦٢) محمد حميد الله: المرجع السابق - ص ١٦١.
(٦٣) إبن الاثير: المصدر السابق - ج ٥ - ص ٢٠٦.
(٦٤) الشوكاني: المصدر السابق - ج ٥ - ص ٣٥٢.
(٦٥) إبن الأثير: المصدر السابق - ج ٢ - ص ٣٠.
(٦٦) إبن الأثير: المصدر السابق - ج١ - ص ١٧٦.
(٦٧) العسقلاني: المصدر السابق - ج ١ - ص ١٧٦.

وحينما وفد بنو البكاء من عامر بن صعصعة سنة تسع للهجرة (وكان يرأسهم عبد عمرو الأصم) إلى رسول الله ﷺ وسماه عبد الرحمن وكتب له كتاباً بمائة الذي أسلم عليه (ذي القصة) ويعد عبد الرحمن من أصحاب الصفة (صفة مسجد رسول الله ﷺ) (٦٨).

ولنعد قليلاً لأحاديثه ﷺ عن الماء وحثه على عدم بيعه ومنها:

عن إياس بن عبد المزني قال: (نهى رسول الله ﷺ عن بيع الماء) (٦٩)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (نهى رسول الله ﷺ عن بيع فضل الماء) (٧٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يُباع فضل الماء ليُباع به الكلأ) (٧١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من منع فضل الماء ليمنع به فضل الكلأ منعه الله فضل رحمته يوم القيامة) (٧٢).

هذه الأحاديث وغيرها تدلنا على أن الماء لا يُقطع، وإذا أقطع لا يباع، فكنا نراه ﷺ يقطع آبار الماء لكبار الصحابة دونما أي شرط لأنه يعرف تماماً أن الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين لا يمكن أن يمنعوا الماء ولا يمكن أن يبيعوه فأقطعهم لعلمه تماماً أنهم يفعلون ما يفعله تماماً وما يريده، ومن ناحية أخرى أقطع الماء لأناس آخرين من القبائل اشترط عليهم ألا يمنعوا الماء ولا يبيعوه.

لقد أباح ﷺ الماء والكلأ (المراعي) للناس كافة، وذلك يرجع إلى نزول الأقوام في أسفارهم وبواديهم بالأرض ذات النبات الذي أخرجه الله سبحانه وتعالى للأنعام بلا نصب ولا حرث ولا غرس ولا سقي من أحد، فيقول ﷺ (فهو لمن سبق له) فليس

(٦٨) محمد حميد الله: المرجع السابق - ص ٣١٣.

(٦٩) الترمذي: مختصر الترمزذي/ مصطفى البغا، حديث ١٢٧١ ص ١٧٠.

(٧٠) مسلم: مختصر مسلم/ مصطفى البغا، حديث ٩٧٩ ص ٢٨٣.

(٧١) الترمذي: المصدر السابق، حديث ١٢٧٢ ص ١٧٠.

(٧٢) الترمذي: المصدر السابق، حديث ١٢٧٠ ص ١٧٠.

لأحـــد أن يحتظر أو يحتجز منه شـــيئا دون غيره، ولكن ترعاه أنعامهم ومواشـــيهم ودوابهم معاً، وترد ماءه الذي فيه، وهكذا يصبـح الناس شـركاء في الماء والكلأ، ذلك كما يقول ﷺ (المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر) (٧٣).

٤ – إقطاع المعادن:

المعادن: هي البقـاع التي أودعها الله في بطن الأرض (٧٤)، وهـي بشـكل عام من المواد التي لا يجوز إقـطاعها لما فيها من مصالح وفوائد لعامة المسـلمين، إلا أنه يجوز إقـطاع المعادن، إذا ما كانت ضمن إقـطاع تمليك، أقـطع لصاحبـه وظهرت فيه فيما بعد إلا أن الرسـول ﷺ رفض إقـطاع المعادن المستنبـطة من الأرض، وجعل استغلالها حقاً لمن يردها أولاً.

المعادن قسمان: معادن ظاهـرة وباطنية:

أ- المعادن الظاهرة:

وهـي المعادن التي تكون طبـيعتها المعدنية بـارزة، فسـواء وجد هذا المعدن بيسـر وسهولة، أو احتاج استخراجه إلى جهد وعمل وحفر للوصول إليه مثال ذلك: (الآبـار، الملح، الكحل، والنفط) فهذه كلها تكون مثل الماء العد (٧٥)، وتكون ضمن نطاق ملكية الدولة العامة، ولا يجوز إقـطاعها، والناس فيها شـركاء، فيأخذ منها الفرد بقـدر ما يحتاج، ويجوز لإمام المسـلمين أن يسـتثمرها لصالح الدولة الإسـلامية فهذا إذن لا يجوز إقطاعه، كما حصل فـــي إقطـــاع الأبيض ابن حمّـــال لملح مأرب، حينما علم

(٧٣) ابن سلام: أبوعبيد، مصدر سابق ص ٣٠٧.

(٧٤) الماوردي: مصدر سابق ص ٢٤٧.

(٧٥) الماء العد: هو الماء العذب وهو الذي له مواد تمده مثل (ماء العيون- ماء الأبار) وقيل هو الماء المتجمع، وهو من المعادن الظاهرة، إن أقطع فلم يكن لإقطاعه حكم، والجميع فيه سواء.
(أنظر الماوردي - المصدر السابق ص ٢٤٧).

الرسول ﷺ استرجعه منه لأنه ملح كالماء العد استقطع الأبيض بن جمال بن مرثد السبئي رسول الله ﷺ ملح مأرب فأقطعه إياه، فقال الأقرع بن حابس التميمي: "يا رسول الله إني وردت هذا الملح وهو بأرض ليس فيها غيره من ورده أخذ منه، وهو مثل الماء العد بالأرض (الماء العذب) الذي لا يَنْقَطع وعندما علم ذلك رسول الله ﷺ إستردها منه لأنها مادة لا تُقطع مثل ماء العيون والآبار، وفي ذلك قال ﷺ (الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار) حيث حاجة الناس الماسة لهذه الأشياء الثلاثة وما شابهها، فلو حازها شخص، أو أُقطعت لشخص فيمكنه التحكم في الناس، وهذا لا يجوز حسب الحديث السابق للرسول ﷺ فاستقال الأبيض بن حمّال رسول الله ﷺ في قطيعة الملح فأجابه الأبيض: (قد أقلتك على أن تجعله مني صدقة) قال النبي ﷺ هو منك صدقة وهو مثل الماء العد من ورده أخذه" (٧٦) فمن ذلك يظهر لنا أن المعدن لا يُملك بالإحياء، سواء كان ملحاً أو نفطاً، أو خلافهما، لأن المعادن تتعلق بالمصالح العامة للمسلمين.

ب - المعادن الباطنة:

وهي المعادن المستكنة في أعماق الأرض والتي تحتاج لجهد كبير، وعمل مستمر لإظهار جوهرها والوصول إليها كالذهب والحديد وما شابهها وهذه - أيضا" - لا يجوز إقطاعها كالمعادن الظاهرة. ولكن إذا كانت الأرض مملوكة لشخص ما، وظهر بباطنها معادن فهل يجوز له استغلالها كالأرض تماماً؟ فلن توجد إجابة صريحة بأن ملكية الأرض تمتد إلى كل ما بها من ثروات.

ومن ناحية أخرى (حيث يُقال إنه يجوز إقطاع المعادن) لرواية عبد الله بن عمرو ابن عوف المزني عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ: (أقطع بلال بن حارث المزني

(٧٦) الماوردي - المصدر السابق ص ٢٤٧.

المعادن القَبليّة، جلْسيّهما وغَوريِّها (٧٧) وحيث يصلح الزرع من قدس ولم يعطه حق مسلم (٧٨).

ومن هذا نلاحظ أن صاحب الإقطاع وهو بلال المزني يكون أحق بإقطاعه وله أن يمنع الناس منه، وبذلك يكون هذا إقطاع تمليك، يملك المقطع رقبة المعدن كسائر أمواله في أرضه ويجوز له بيعه في حياته وينتقل إلى ورثته بعد موته. وحيث إن هذه المعادن خرجت من أرضه المملوكة له فأشبهت في ذلك الزرع والمعادن الجامدة، وبذلك يجوز له أن يملكها.

إلا أن خلاصة هذه الآراء هو أن المعادن بشكليها الظاهر والباطن تكون أولى بها الدولة الإسلامية، ولا يجوز إقطاعها ولو أخذنا مثالاً، بأن شخصاً اقتطع أرضاً، وظهر في باطنها نفط"، فالنفط لا يمكن لشخص واحد (وهو صاحب الأرض) أن يقوم بعمل الإجراءات الصعبة والمتتابعة للحصول على النفط ومشتقاته لأن في ذلك تكاليف كثيرة وباهظة لا يقوى عليها الشخص العادي فلذلك يكون من الأوجب أن تكون تلك المعادن خاصة لملكية الدولة وهي التي تستطيع استخراجها بما لديها من فئات خاصة من المتعلمين والمتخصصين في شتى الأمور الفنية.

٥- إقطاع المراعي (الكلأ):

لم يُقطع المراعي بسبب منافعها العامة للمسلمين، ففي إقطاعها لشخص أو لأسرة يكون فيه حرمان للقبيلة كلها، فقد قال: (الناس شركاء في ثلاث: الماء والنار

(٧٧) الجلسي: فيه قولان أحدهما: يقول بأنها أعلى الأرض، والآخر يقوم بأنها بلاد نجد.
الغوري: فيه قولان (أيضاً) أحدهما يقول: إنها أسفل الأرض، والآخر يقول إنها بلاد تهامة.
(أنظر الماوردي - المصدر السابق ص ٢٤٨).

(٧٨) الماوردي - المصدر السابق ص ٢٤٨).
- الشوكاني: المصدر السابق - ج٥ - ص ٣٤٨
- ابن قدامة: المغني: مصدر سابق ج ٥ ص ٥٧١.

والكلأ) (٧٩)، فالمراعي ملك عام ولا يجوز إقطاعها، الاّ أنه ﷺ أقطعها في بعض الأحيان وكان إقطاعه في معظم الأحيان مشروطاً بعدم منع المراعي عن عامة المسلمين.

قدم وفد همدان على رسول الله ﷺ وفيهم حمزة بن مالك من ذي شعار، فقال لهم: (نِعْمَ الحي همدان، ما أسرعها إلى النصر، وأصبرها على الجَهْد، ومنهم أبْدال وأوتاد الإسلام، فأسلموا وكتب لهم كتاباً) بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد رسول الله ﷺ بمخلاف خارف أهل الهضب، وحقاف الرمل، مع وافدها ذي المشعار لمالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها (٨٠) ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، لا يأكلون علافها، ويرعون فيها لهم بذلك عهد الله، وزمام رسوله، وشاهدهم المهاجرون والأنصار) (٨١).

في هذا الإقطاع أشار ﷺ إلى المراعي، فلم يقطعهم أي حق في استغلال المراعي بشكل خاص كاستغلالهم للقطاع نفسه، فقوله: لا يأكلون علافها ويرعون فيها: فهنا أجاز لهم ﷺ أن يرعوا في مراعيها مع المسلمين، فلم يعطهم حق التفرد بالمراعي (٨٢).

كما أقطع ﷺ بني قرة بن عبدالله بن أبي نجيح النبهانيّين:

أنه ﷺ أعطاهم المظلة باليمن كلها أرضها وماءها وسهلها وجبلها حمى يرعون فيه مواشيهم كتب معاوية بن أبي سفيان (٨٣)، فمنها ﷺ أقطعهم المظلة كلها بما

(٧٩) روي الحديث في مسند أحمد بن حنبل، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجة.
(٨٠) الفراع: مفرد فرع: وهي الأماكن المرتفعة من الأرض - أي ما علا الأرض.
(ابن منظور - المصدر السابق ج٢ ص ٣١٢).
الوهاط: مفرد وهط، وهي الأماكن المطمئنة من الأرض، أي ما انخفض من الأرض (أنظر ابن منظور، مصدر سابق، ج٢، ص ٧٦٥).
(٨١) ابن سعد: مصدر سابق ج١ ص ٣٤٠-٣٤١.
- حميد الله: مرجع سابق ص ٢٣٣.
(٨٢) ابن سعد: مصدر سابق ج١ ص ٢٦٧.
- (الماوردي - المصدر السابق ص ٢٧٨).
(٨٣) البلاذري: المصدر السابق - ص ٢٨.

تحوي كحمى والمعلوم أن الحمى: لله ولرسوله، فحيث إنه ﷺ أقطعهم ذلك وجعله حمى فهي محمية لجميع المسلمين يرعون فيه مواشيهم.

لقد حمى ﷺ البقيع في المدينة، ومساحته حوالي ستة أميال مربعة لخيل المسلمين من المهاجرين والأنصار. ومن حديثه ﷺ السابق دليل واضح على عدم جواز اقطاع هذه الأساسيات الثلاثة (الماء والنار والكلأ) نظراً لما لها من فائدة لعموم المسلمين، ولا يجوز لولاة المسلمين أخذ العوض من أصحاب المواشي مقابل رعيهم، فنلاحظ هنا أن إقطاعاته ﷺ في المراعي تكون مشروطة بألا يمنع منها المسلمون.

ومن أهم المواد التي لا يجوز إقطاعها:

الماء ومنه (الأنهار والآبار) والمعادن والكلأ (المراعي) وقد تحدثنا فيما سبق عن هذه الثلاث، والأسواق والطرقات العامة، والشوارع والجسور، والرحاب بين العمران، وهذه جميعها لا تقطع إقطاع تمليك، ولكن جميعها تقطع إقطاع إرفاق، وهو إقطاع الانتفاع، فليس لأحد إحياء تلك المواد لأن المسلمين يشتركون في ذلك كله، وتتعلق به مصالحهم العامة، وكلها أشبه بمساجدهم، والإمام يقطعها لمن يجلس فيها ما يرى، ومن لا يتضرر بجلوسه المسلمون، فكان ﷺ يقطع هذه المواد لينتفع منها كافة المسلمين.

أما الأسواق فلا تقطع، حيث تعتبر أرض الأسواق أرض ارتفاق فلا يجوز إقطاعها وعن الأسواق بشكل عام، وعن سوق المدينة بشكل خاص يقول: (هذا سوقكم - سوق مهزور بالمدينة - فلا يضيق عليكم ولا يؤخذ منه خراج)، وفي رواية أخرى قال: (هذا سوقكم فلا يحتجر ولا يُضرب عليه الخراج)، وقد استعمل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على سوق المدينة وبعد أن فتحت مكة سنة

٨هـ/٦٢٩م استعمل الرسول: سعد بن سعيد بن العاص على سوقها. (٨٤) وفي السوق يكون السابق إلى مكان أحق به.

لقد كان ﷺ يرتاد الأسواق طلباً للمعاش، حتى أن المشركين قالوا إن هذا يتنافى مع رسالته كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ فرد عليهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (٨٥).

ولما هاجر ﷺ إلى المدينة كان يتردد على أسواقها ويتفقد أحوالها ويغير بوحي من الله ما لم يجده مسايراً لمبادئ الإسلام، حتى أوصلها إلى درجة الكمال.

ومما عمله في إصلاح الأسواق الدعوة إلى إعطاء الناس حقوقهم بعدم نقص المكيال والميزان فقال سبحانه وتعالى قول: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ـ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ـ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (٨٦)، ونهى عن الربا وعمل ﷺ الطريقة الصحيحة لتنظيم السوق: فقد أمر أصحابه بالسهولة والسماحة في البيع والشراء والتقاضي فقد جاء في صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (رحم الله عبداً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا اقتضى سمحاً) (٨٧)، وقد نهى ﷺ عن كثير من البيعات التي تتنافى ومبادئ الإسلام (بيع النجش، تلقي الركبان احتكار الطعام، نهى عن التسعير، المحاباة - والمحتكر) وبذلك يكون وضع الأسس الإسلامية الصحيحة في التعامل بين المسلمين في السوق.

أقطع رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار يُقال له سليط، وكان يذكر من فضله

---

(٨٤) السمهودي: نور الدين علي بن احمد - وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج٢ ص ٧٤٥ - ٧٤٧.

(٨٥) سورة الفرقان - الآيتان رقم ٧ - ٢٠.

(٨٦) سورة المطففين - الآيات رقم - ١، ٢، ٣.

(٨٧) ابن سلام: مصدر سابق ص ٢٨٦.

أرضاً، فكان سليط يخرج إلى أرضه تلك فيقيم بها الأيام ثم يرجع فيُقال له: لقد نزل من القرآن من بعدك كذا وكذا، وقضى رسول الله ﷺ في كذا وكذا قال: فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن هذه الأرض التي أقطعتنيها قد شغلتني عنك فاقبلها مني فلا حاجة لي في شيء يشغلني عنك، فقبلها النبي ﷺ فقال الزبير ابن العوام: يا رسول الله أقطعنيها قال: فأقطعها إياه) (٨٨)

هنا يجب علينا أن نتأمل كيف كان حب سليط، وما سليط إلا فرد من أمة، كيف كان حبهم لله ولرسوله، حتى أنهم لم يرضوا أن تشغلهم أرضهم وأموالهم وأولادهم عن مجالسة رسول الله ﷺ والأنس به، والتلقي عنه، ومعرفة ما نزل عليه من آيات الكتاب الكريم، وما حدثهم به من أحاديث عظيمة لها الأثر الكبير في إيقاظ صحوة الأفراد والأمة والتفافهم حوله، فترك ما أقطعه رسول الله ﷺ لأنها تشغله عن مجالسته ومصاحبته. ورد ما أقطعه إياه الرسول ﷺ من أرض، والتي أقطعها الرسول بدوره إلى الصحابي الجليل الزبير بن العوام.

أقطع ﷺ المسلمين في مكة وأقطعهم في المدينة، ولعمل مقارنة بسيطة بين الإقطاعين المكي والمدني، نأخذ نصين مختلفين لإقطاع تميم الداري في مكة والمدينة من حيث الألفاظ والمعنى، مع علمنا الواضح بأن إقطاعات مكة كانت محدودة جداً (٨٩).

وفد الداريون عليه ﷺ مرتين، مرة قبل الهجرة ومرة بعدها وفي المرة الأولى، سألوا رسول الله ﷺ أرضاً فدعا بقطعة من آدم وكتب كتاباً نسخته: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب ذُكر فيه ما وهب محمد رسول الله ﷺ للداريين، إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عينون، وحبرون، والمرطوم، وبيت إبراهيم، ومن

(٨٨) البخاري: مختصر البغا - حديث ٩٤٣ ص ٢٩١.

(٨٩) أنظر البحث - ص ص ١٥٦-١٥٧.

فيهم إلى الأبد) شهد عباس بن عبد المطلب، وخزيمة بن قيس وشرحبيل ابن حسنه وكتب.

(**عينون**: قرية من قرى بيت المقدس في طرف بلاد الشام)

(**حبرون**: هي مدينة الخليل بجوار بيت المقدس بها مقام كل من: إبراهيم الخليل عليه السلام وزوجته سارة، واسحق وزوجته، ويعقوب وزوجته، وسيدنا آدم، وسيدنا يوسف عليه السلام جميعاً).

فلما هاجر ﷺ إلى المدينة، قدم الداريون عليه، وسألوه أن يجدد لهم الكتاب فكتب ما نسخته: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد رسول الله ﷺ لتميم ابن أوس الداري، إن له قرية حبرون وبيت عينون قريتهما كلهما، وسهلهما، وماءهما، وحرشهما، وأنباطهما، وبقرهما، ولعقبة من بعده لايحاقه فيها أحد ولا يلجها عليهم أحد بظلم، فمن ظلم وأخذ منهم شيئاً فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) وكتب علي بن أبي طالب قيل كان ذلك سنة (٩هـ/٦٣٠م).

لقد كانت هذه الوثيقة الأخيرة - والتي كتبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه لتميم الداري، من أهم وثائق الإقطاع النبوي.

بالدراسة التفصيلية والدقيقة لهذين النصين لاحظت أن الإقطاع المدني تميز عن الإقطاع المكي، بأنه يسجل التفاصيل الدقيقة في كتابة الإقطاع من تحديد جغرافية وموقع الإقطاع والتشديد على الأطر العامة للإقطاع، أما الإقطاع المكي فهو عام ولا يهتم بالتفاصيل أو الأوضاع الجغرافية - ويلاحظ ذلك في التغيير الذي طرأ على النص المدني وما به من زيادات وإيضاحات.

ورغم أن المقطع هو النبي ﷺ في الإقطاعين، إلا أنه كان في مكة نبياً وموجهاً،

أما في المدينة فكان بالإضافة إلى ذلك على رأس دولة إسلامية ناشئة له قوته وصحابته وجيشه، لقد كان ذكر وثيقة مكة بسم الدارين، إلاّ أنه بالمدينة ذكر: تميم الداري وأصحابه وعقبه، وفي مكة يدل النص على أن يعطي الداريين حق استغلال الأرض المقطعة لهم في حياتهم أما النص المدني فيعطيهم حقاً وراثياً في استغلال الأرض، في قوله ولعقبة وهذا حق إقطاع تمليك غير قابل للاسترجاع مع التشديد بعدم الاعتداء عليهم، وأن من ظلمهم أو أخذ منهم شيئاً فعلية لعنة الله والملائكة والناس أجمعين علماً بأن ذلك التشديد لم يذكر في النص المكي.

ثالثا: الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي:

لقد تحددت أهداف الإقطاع منذ ظهور الدولة الإسلامية في عهده المبارك، ورأى الصلاح والخير فيما فعل، ورأى أن الدوافع والأسباب التي جعلته ينهج هذا النظام، قد تحقق معظمها إن لم يكن جميعها، فقد اكتملت اللبنات الأخيرة لبناء الدولة الناشئة، وانتشرت مبادئها في أنحاء الجزيرة العربية، وأخذت في الانتقال للأطراف النائية من الجزيرة... فوصلت أخبار هذه الدولة إلى معظم القبائل العربية بالجزيرة العربية القريب من المدينة والبعيد عنها... فأرسل ﷺ رسله وأقطع إقطاعاته لصحابته، وللقبائل كي يضمن للجميع استقرار العيش، كما وصلت كتبه ورسائله إلى الدولتين العظيمتين آنذاك.

وما حققه الإقطاع من أهداف كان واسع الانتشار رغم أن معظمه كان بالمدينة المنورة، إلا أن إقطاعات أخرى كثيرة كانت خارج المدينة حتى وصلت معظم القبائل النائية البعيدة عن المدينة، وعلى أطراف الجزيرة، ونستطيع أن نحدد الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي بين أبناء الدولة الإسلامية، والقبائل العربية المجاورة:

أ- الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي للفرد والجماعة والدولة الناشئة:

كانت الإقطاعات أول الأمر تخص صحابته ﷺ من المهاجرين الذين هاجروا معه، وذكرنا أنهم عانوا الكثير في عيشهم أول وصولهم للمدينة المنورة من فقدانهم في مكة لعقارهم ودورهم ومصادر رزقهم ومن أهم هذه الأهداف التي حققها الإقطاع:-

١- تأمين السكن والدور للمهاجرين:

لقد واجهته ﷺ حين وصوله للمدينة، وتوليه زمام الأمور على أثر تأسيس الدولة الإسلامية مشكلة عاجلة وهامة جداً ألا وهي توفير السكن للمهاجرين، فقد هاجرت تلك العصبة من مكة تاركة خلفها كل ما تملك من عقار ودور وأرض وأموال وكحل سريع لذلك، وضع ﷺ نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والذي عمل على وضع حل مؤقت لهذه المشكلة إذ بمؤاخاته بين المهاجرين والأنصار أسكن المهاجرين مع الأنصار في دورهم.

وبعد ذلك أسس ﷺ نظام الإقطاع كحل دائم لهذه المشكلة فأقطع المهاجرين قطعاً سكنية بموافقة ورضى إخوانهم الأنصار، حيث أنهم وهبوا للرسول ﷺ كل فضل في خططهم بالمدينة فقالوا له: (إن شئت فخذ منازلنا) (٩٠)، ولقد خطط ﷺ دور المهاجرين بالمدينة على أساس الانتماء القبلي كذلك كانت دور الأنصار قد خُطت على هذا الأساس من قبل.

وراعى ﷺ في إقطاع هذه الخطط من دور المهاجرين، عدم التعدي على حقوق الأنصار، مما أدى إلى وجود الثقة وظهور المحبة والسلام بين سكان المدينة وأهلها الأصليين من الأنصار، وسكانها الجدد إخوانهم من المهاجرين، وقد أدى ذلك إلى انتشار العدل والوئام وزيادة الاستقرار، كي يتوجه هؤلاء جميعاً من أجل تأسيس

(٩٠) البلاذري: المصدر السابق - ص ٢٠.

وبناء دولتهم الجديدة بقيادته ﷺ فكانت مشكلة إسكان المهاجرين من أولى وأهم الصعوبات الاجتماعية التي واجهته، فبعد أن أقطعهم وخط لهم الدور، عمل على تشجيع البناء ودعا بالبركة لكل من باع عقاراً أو داراً، حتى يشجع ﷺ على إصلاح الوضع الجديد، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٩١)، فيوصي هنا الله سبحانه وتعالى أن الأرض على حالين سهل وجبل، حيث يبنون في السهول القصور وينحتون في الجبال البيوت، وهذا استخلاف استخلفه الله للقوم الصالحين، فالإنسان خليفة في هذه الأرض ومطلوب منه إصلاحها بالبناء وزرعها وإحياءها ولا ينطلق فيها مفسداً كما حصل مع قوم عاد.

وبتحقيق هذا الهدف الذي سعى إليه ﷺ يصل المهاجرون إلى مرحلة الاستقرار الديني والنفسي، وبعد أن فتح الله عليه ﷺ خيبر فضل أصحاب الهجرتين وإعطائهم منها. ومن إقطاعاته ﷺ لخطط الدور، فقد خطها خاصة وعامة فالخاصة للأفراد والعامة حينما خط من ضمن خططه دوراً للضيافة لاستقبال الوفود والضيوف، كما في دار عبد الرحمن بن عوف، فكانت تسمى: (دار الضيفان) أو (دار الأضياف) (وسميت الدار الكبرى) لأنها أول دار بناها أحد المهاجرين وكان رضي الله عنه قد أعدها ليُنزل فيها ضيفان رسول الله ﷺ - وهذه غير داره التي تخصه بسكنه وهي بجوار المسجد كذلك توجد (دار رملة بنت الحارث الأنصارية)، والتي نزل فيها وفود رسول الله ﷺ ومن تلك الوفود: (وفد غسان، وبني ثعلبة، وعبد القيس، وبني فزارة) (٩٢).

وهكذا أقر الله عيون المهاجرين بإقطاع نبيهم ﷺ لهم الدور الخاصة بهم

(٩١) سورة الأعراف: آية رقم ٧٤.

(٩٢) السمهودي: المصدر السابق - ج ٢ - ص ٧٢٨ - ٧٢٩ - ٧٣٩.

لتؤويهم وأسرهم والدور العامة (وهي بمثابة فنادق العصر الحديث) لاستقبال الوفود والضيوف الذين ينزلون عليه ﷺ وهذه من أعظم الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي العظيم.

٢ - تخفيف المعاناة الاقتصادية عن المهاجرين:

ترك الأنصار رضي الله عنهم تحت تصرف الرسول ﷺ كل أرض موات بالمدينة، وكل ما يحيط بها من أراض خصبة كالعقيق وينبع والفرع والبقيع وخلافها، وكي يكفل ﷺ سبل العيش للمهاجرين أقطعهم من هذه الأراضي - والتي أصبحت تحت تصرفه بموافقة الأنصار كإقطاع تمليك، كي يتمكنوا من استثمارها، وإصلاحها وبالتالي يعملون على إصلاح أحوالهم المعيشية، حيث إن الحاجة للأراضي تتزايد مع تزايد عدد المهاجرين الذي قدموا للمدينة والعدد المتزايد للذين يدخلون الإسلام بعد الهجرة.

روى أسمر بن مضرس قال: "أتيت النبي ﷺ فبايعته فقال: (من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له) (٩٣)، قال: (فخرج الناس يتعادون ويتخطون لقد خرج المهاجرون يتعادون ويتخطون لحجز الأرض البور ليعملوا على استثمارها وإصلاحها، حيث أن الرسول ﷺ فتح لهم باب السبق لأخذ الأرض)..ومن هنا تعم الفائدة للفرد والدولة (٩٤).

بذلك تتحقق أهداف عديدة منها:

تخفيف المعاناة الاقتصادية على المهاجرين وزيادة الموارد الاقتصادية للدولة.

---

(٩٣) أبو داود: مختصر البغا - حديث ٣٠٧١.

(٩٤) ابن سعد: المصدر السابق - ج٧ - ص ١٥.

القرشي: المصدر السابق - ص ٨٥

العسقلاني: المصدر السابق - ج١ - ص ٢٢.

تنمية الموارد البشرية بتحريك المهارات الفردية فيستطيع الفرد المقطع أن يقوم بالاجتهاد للوصول إلى الأفضل، كي يحقق لنفسه ولبيته الموارد المعيشية الطيبة، وبذلك يكون الناتج - أيضا" - لصالح الفرد والمجتمع والدولة، وإشباع طموح الفرد من حب المال.

وحيث أن الدولة كانت منشغلة بتنشئة الأفراد والأمة على تعاليم الإسلام فقد عملت على تنمية مواردها الاقتصادية المختلفة بمنح وإقطاع الأفراد الإقطاعات المختلفة كي تتمكن من التهيؤ لمواجهة الأعداء من المشركين واليهود المتربصين بها في كل اتجاه فأوكلت تلك الإقطاعات للأفراد، وبذلك يحقق الفرد ما لديه من طموح في إشباع غريزة حب المال، حيث إن الدين الإسلامي دين الفطرة، فالفرد يحب المال وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾(٩٥)، فمن تلك الآيات نلاحظ أن الإنسان مفطور على حب المال، وذلك يدفعه ويحثه على العمل الجاد، وبذل الجهد في إعمار الأرض وإصلاح البور منها كي يحقق خلافة الله له فيها.

وبعد جمع المال وجهنا سبحانه وتعالى لطريقة إنفاقه والاستفادة منه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٩٦)، لذلك يجب على المسلم توظيف مال الله في المجالات التي شرعها لنا سبحانه وتعالى ويحذرنا من الوقوع في محارم الله.

---

(٩٥) السور على الترتيب:
سورة الفجر - آية رقم ٢٠
سورة العاديات - آية رقم ٨
سورة الكهف - آية رقم ٣٤.
(٩٦) السورتان على الترتيب:
سورة البقرة - آية رقم ٣
سورة آل عمران - آية رقم ٩٢.

٣- التأليف على الإسلام:

كان التأليف على الإسلام موقوتاً بتغلغل العقيدة في قلوب المسلمين الجدد، حتى إذا ما استقر الإيمان في قلوبهم، فلا يعطون إقطاعاً ولا مالاً، باعتبارهم أصبحوا من غير المؤلفة قلوبهم وثبت حبهم لله ولرسوله، فلا يطمعون في أية إقطاعات أو هبات تزيد من إيمانهم. ومن المؤلفة قلوبهم والذين أقطعوا لتثبيت العقيدة والإيمان في قلوبهم: فرات بن حيان العجلي، والأقرع بن حابس التميمي وعيينه بن حصن الفزازي، صفوان بن أمية.

أما فرات بن حيان فقد سبق وأن ذكرت في بداية هذا الفصل أن النبي ﷺ أقطعه من موات اليمامة، وقد حضر فرات خيبر سنة (٧هـ/٦٢٨م) ولم يقطعه منها، فقد ثبت إيمانه وحسن إسلامه، وقال عنه الرسول ﷺ حين أقطع المؤلفة قلوبهم: (إن من الناس ناساً نكلهم إلى إيمانهم فرات بن حيان).

والأقرع بن حابس التميمي: من زعماء بني تميم من أشراف العرب في الجاهلية والإسلام، وهو من المؤلفة قلوبهم، أسلم وحسن إسلامه، وفد على النبي ﷺ في وفد بني تميم، وقال الأقرع: (إني أتيت النبي ﷺ من وراء الحجرات فقلت: يا محمد: (والله إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين فقال: (ذلكم الله عز وجل) شهد الأقرع وعيينه ابن حصين مع الرسول ﷺ فتح مكة وحنينا والطائف عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وقال ﷺ لقد تألفت الأقرع ليُسلم، وحسن إسلامه وأعطى عيينة بن حصين (من زعماء غطفان) مائة من الإبل، وقيل إن الرسول ﷺ أعطاهما من سهمه الذي يخصه من الغنيمة) (٩٧)، وذلك لأن إيمانهما كان بـه ضعف فأراد ﷺ أن يتألفهما بـذلك العطاء على الإسلام.

(٩٧) ابن سلام: مصدر سابق ص ٣٣٤.

عن ابن اسحق أن أحد الصحابة قال يا رسول الله: أعطيت عيينه بن حصين والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيُل بن سراقه الضمري فقال: (أما والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقه خير من طلاع الأرض).

فالرسول ﷺ أقطع هذين الصحابيين لأنه كان يعلم بنظره الثاقب أن بإيمانهما ضعفاً، فأراد أن يتألفهما ويرغبهما بذلك العطاء السخي على الإيمان كي يثبت في قلبيهما وقلوب أمثالهما.

كذلك أعطى ﷺ صفوان بن أمية بن خلف بين جبلين فأسلم وقال صفوان: (لن يعطي هذا إلا نبي)، وعن ذلك قال سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال: (كان رسول الله ﷺ أبغض الناس اليّ فلم يزل يعطيني حتى كان أحب الناس إليّ)، وأيضا" كذلك شهد مع خالد بن الوليد حرب اليمامة، وحرب أهل العراق وفتح الأنبار، وشهد مع شرحبيل بن حسنة دومة الجندل، واستعمله عبد الله بن عامر على جيش سيرّه إلى خراسان، ذلك في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وروى البخاري في تاريخه الصغير (أن الأقرع وعيينة استقطعا أبا بكر رضي الله عنه أرضاً فقال لهما عمر) إنما كان النبي يتألفكما على الإسلام فأما الآن فأجهدا جهدكما وقطع الكتاب رضي الله عنه (٩٨).

وهكذا لاحظنا كيف كان ﷺ يتألف أولئك النفر على الإيمان والإسلام إلى أن دخل قلوبهم وحسن إيمانهم، فهذا هو إقطاع التأليف على الإسلام فهذا الإقطاع ضروري وهام لتثبيت العقيدة في قلوب بعض الذين يدخلون الإسلام لأول مرة، وبعد ذلك يوكلون إلى دينهم وإيمانهم، فلا حاجة لهم بالإقطاع فأصبح منهم المجاهدون والعلماء، الذين عملوا في سبيل الله ونشر الدعوة.

---

(٩٨) العسقلاني: المصدر السابق - ج١ - ص٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤، وج٣ - ص٣٥٠
ابن سعد: المصدر السابق - ج ٤ - ص ٤٤٩ إبن الأثير: المصدر السابق - ج١ - ص ١٢٧
ابن سلام: المصدر السابق - ص ١٥٢ - ٢٨٧ - ٣٣٤ - ٣٣٥.

وفي أحد المواقف نلاحظ أن الأنصار غضبوا عندما أخذ الرسول ﷺ يوزع بعض الغنائم ويعطي بعض العطايا للمهاجرين والمؤلفة قلوبهم ولا يعطي الأنصار، واعتبروا أنفسهم أن الرسول ﷺ حرمهم من الغنيمة، وبلغ الرسول ﷺ قول أحدهم (إذا كانت الشدة نُدعى وتُعطي الغنائم غيرنا) فجمعهم ﷺ قائلاً لهم (أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبوا برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم) قالوا: بلى يا رسول الله رضينا، فقال: (لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لأخذت شعب الأنصار) (٩٩).

وهكذا اتضحت الحكمة النبوية للأنصار عندما عمل ﷺ على إقطاع المؤلفة قلوبهم ترغيباً في الإسلام، وحسن إسلامهم كما شاهدنا العديد ممن أقطعوا وأصبحوا أهل خير وجهاد وعلم في سبيل الله. فمثل تلك الإقطاعات كان يمنحها رسول الله ﷺ لأولئك النفر، طالما لم يكن فيها نقض للكتاب والسنة - أي يجوز إعطاؤهم إن لم يتضمن ذلك تحليلاً لحرام أو تحريماً لحلال.

٤ - إصلاح الأراضي واستثمارها:

هذا من الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي وهو إقطاع الأراضي البور (الموات) واستصلاحها، لما في إصلاحها وإعمارها من فوائد للفرد والمجتمع والدولة الإسلامية بما يفرض عليها من حقوق لبيت مال المسلمين. فالأرض الموات هي الأرض المهملة الصالحة للزراعة (عادي الأرض) وهذه تحتاج إلى جهد ونفقة لإحيائها ومع أن الإحياء - كما سبق ذكره - لا يحتاج إلى إذن الإمام، إلا أن الإقبال على الأرض أدى إلى تقييد ذلك بإذن ولاة الأمر وبقيد زمني للإحياء وهو ثلاث سنوات، حتى يتم ضبط الأمور ولا يسير في اتجاه الفوضى.

وهذا النوع من الإقطاعات للأراضي البور يكون بمثابة إقطاع تمليك وإن لم

---

(٩٩) البخاري: فتح الباري - ج١ - الأحاديث رقم ٤٣٣١ - ٤٣٣٤ - ٤٣٣٧ .

يستطع إحياءها خلال ثلاث سنوات، فتُستَرجع منه وتقطع لمن يقدر على إحيائها، فحين وصوله ﷺ للمدينة جعل له أهل المدينة (كل أرض لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء) (١٠٠)، فقد أقطع ﷺ الكثير من الصحابة من موات الأرض، فالأرض الموات من أحياها بإذن الإمام- ولو كان ذمياً ملكها- ولا يجوز إحياء القريب من العامر فيترك ذلك لأهل القرية كمرعى لدوابهم ومنافع أخرى لهم.

لقد عُني ﷺ بإصلاح الأرض فقد حث المسلمين على الزراعة والغرس، ورغب المسلم بأن يمنح أرضه لأخيه يزرعها دون مقابل، فالزراعة بها الخير الكثير، ومتعددة الفوائد للزارع ولإخوانه المسلمين وللطير والبهائم فهي من أبرك الأعمال.

إن إقطاع الموات جلب الخير الكثير على المسلمين، جلب عليهم إعمار الأرض وإصلاحها، جلب الخراج للدولة الناشئة، ويسعد الفرد ويلبي طلباته الخاصة والعامة... وتكون تلك الأعمال خيراً في إسعاد المجتمع، وتلبية حاجاته.. فعلى المسلمين أن يدركوا أهمية الزراعة ويتفقهوا في حكم تعمير الأراضي وإصلاحها ويعرفوا فضل الزرع والغرس. فإن أدركوا ذلك فسوف تتحول أراضيهم الميتة إلى سهول خضراء.. وستدب الحياة في رمالها، وستصبح بيوتهم وشوارعهم ومدنهم كمزارعهم. كلها حدائق غناء، ومزارع فيحاء بواسطة المعدات الحديثة حتى تعم الفائدة جميع المسلمين في كل مكان، ويحل الخير، ويزول الفقر والذل، وما لدينا من أراض تدر خيراً كثيراً لا نستطيع أن نحصيه إذا ما توفرت سبل الإخلاص وأن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ويقول أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ويقول أيضاً: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ

---

(١٠٠) إبن سلام: المصدر السابق - ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ويقول أيضاً: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾(١٠١).

وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة" (١٠٢).

فالزراعة أقرب إلى التوكل وأدعى إلى التخشن وقوة للجسم لما فيها من الحركة والنشاط فهي كطلب العلم والجهاد في سبيل الله.

٥- تأمين وضع المجتمع الإسلامي الجديد وإصلاحه:

تم ذلك بإقطاع المهاجرين في بداية الأمر من أراضي المدينة التي تركها الأنصار تحت تصرفه، ثم أكمل تلك الإقطاعات بأن أقطعهم من بني النضير بعد إجلائهم عن المدينة في السنة الرابعة من الهجرة / ٦٢٥م ذلك أدى لتأمين قوتهم اليومي، واستقرار حياتهم الاقتصادية والمعيشية، وحينما أراد إقطاع المهاجرين لم يفعل ذلك من رأيه بل عمل على مشاورة الأنصار بقوله ﷺ لهم: (ليست لإخوانكم المهاجرين أموال فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتم أموالكم، وقسمت هذه فيهم خاصة فقالوا: بل إقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت). بهذا المثال الرائع للتضحية العظيمة، والأخوة الفريدة من نوعها من الأنصار تجاه إخوانهم المهاجرين.. نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى

---

(١٠١) السور على الترتيب:

سورة السجدة - آية رقم ٢٧.

سورة الأعراف - آية رقم ١٠.

سورة هود - آية رقم ٦١.

سورة الملك - آية رقم ١٥.

(١٠٢) مسلم: المصدر السابق - المساقاه - ج٣ - حديث رقم ١١٨٩.

أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١٠٣)، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرا) (١٠٤).

لقد قال سبحانه وتعالى في إجلاء بني النضير: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ _ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ _ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ (١٠٥).

هذا ما أفاء الله سبحانه وتعالى على رسوله من أرض خصبة ومثمرة، قال تعالى: ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١٠٦)، لقد كانت أراضي بني النضير مما أفاء الله على رسوله، وهي خالصة له فقسمها بين المهاجرين، وأقطعهم من تلك الأراضي العامرة والخصبة ذات النخيل والزروع المختلفة.

لقد أقطع عدداً كبيراً من الصحابة على رأسهم كل من: أبي بكر الصديق وعلي ابن أبي طالب والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وخلافهم من الصحابة رضي الله عنهم وكانت جميع إقطاعاته للمهاجرين إلا إثنين من الأنصار (سهل بن حنيف وأبي دجانه) ذكرا له فقرهما فأعطاهما.

(١٠٣) سورة الحشر - الآية رقم ٩.

(١٠٤) البلاذري: المصدر السابق - ص ٣٤.

(١٠٥) سورة الحشر - الآيات رقم ١، ٢، ٣.

(١٠٦) سورة الحشر - آية رقم ٧.

من هذه الأرض الخصبة أقطع معظم المهاجرين، وقد ذكرت بعضا من هذه الإقطاعات في بداية هذا الفصل... لذلك بدأت أمور كبار الصحابة بالاستقرار المعيشي والاقتصادي هكذا عمل ﷺ على تأمين وضع المجتمع الإسلامي الجديد بالمدينة ذلك برضى الأنصار... لتفادي الخلافات، فعمل بتلك الإقطاعات على استقرار هذا المجتمع، وانتشار العدل، واستتباب الأمن، واستقرار الوضع المعيشي الجديد.

٦- قيام المنافسة العادلة بين المهاجرين و الأنصار:

لقد كان مجتمع المدينة إبان الهجرة النبوية الشريفة يتكون من المهاجرين ليس لديهم ما يملكون، والأنصار يملكون كل شي، فلما أقطع ﷺ المهاجرين بحب ورضى من الأنصار، أصبح الطرفان يعملان في مجالات متشابهة في الزراعة، والتجارة والسوق، فحثهم ﷺ على المنافسة العادلة في تلك الأعمال وغيرها.

فقد قال ﷺ : "من احتكر فهو خاطئ"

وقال ﷺ : "لا يبيع بعضكم على بيع أخيه"

وقال ﷺ : "من غشنا فليس منا" (١٠٧).

كان ﷺ يتعسس أحوال السوق بنفسه مع بعض صحابته وإذا وجد ما لم يعجبه يحث البائع على النصيحة، وكان تجار المدينة عند قدوم الرسول ﷺ للمدينة من أسوأ الناس كيلاً فأنزل سبحانه وتعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ـ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ـ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ (١٠٨) فأحسنوا الكيل، وحرم الربا

---

(١٠٧) الاحاديث على الترتيب:

مسلم: مصدر سابق ج٣ حديث ١٦٠٥ ص ١٢٢٧.

مسلم: مصدر سابق ج٢ حديث ١٤١٢ ص ١٠٣٢.

الترمذي: مصدر سابق ج٣ حديث ١٣١٥ ص ٥٩٧.

(١٠٨) سورة المطففين - الآيات رقم - ١، ٢، ٣.

الذي كان منتشراً، وهكذا بدأ ﷺ بالعمل على وضع أسس السوق، لتنتشر الأمانة والعدل، ويصبح الكيل والميزان عادلاً صحيحاً، وأزال فيما بينهم عوامل الحسد والحقد والإضرار ببعضهم، كي تبدأ المنافسة العادلة بين أهل المدينة في سوقهم وفي عملهم وأرضهم. لقد أقطع ﷺ عدداً من كبار الصحابة مثال ذلك: أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب - والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف.

ومن الصحابة الذين أنفقوا الكثير وأقطعهم الرسول ﷺ تعويضاً لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه معروفاً بالتجارة، وعندما بُعث النبي ﷺ كان عنده أربعون ألف درهم، فكان رضي الله عنه يعتق منها، ويقوي المسلمين حتى قدم المدينة مهاجراً وماله منها إلا خمسة آلاف درهم، فقد أعتق كلاً من: بلال بن رباح، وعامر بن فهيرة وأم عُبيس وزنيره والنهدية وابنتها وخلافهم من الصحابة (١٠٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: ما نفعني مال قط بقدر ما نفعني مال أبي بكر، فبكى أبو بكر فقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟

قال أنس رضي الله عنه: (أُتي النبي ﷺ بمال من الجزية من البحرين فقال انثروه في المسجد فكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ فجاءه العباس رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً فقال: خُذ، فأخذ أكثر مما يستطع حمله وأراد أن يرفعه عليه رسول الله ﷺ أو بعض الصحابة فرفض الرسول، ذلك فنثر منه ثم أراد حمله ولم يستطع، وتم ذلك أكثر من مرة إلى أن حمل ما استطاع حمله بنفسه على كاهله فانطلق، فما قام رسول الله ﷺ من مجلسه وتم منها درهم) (١١٠)، ومن المعروف أن العباس أعتق بالإضافة إلى أخيه عُقَيل بن أبي طالب أعتق أخاه نوفل بن الحارث وأعتق سبعين عبداً.

---

(١٠٩) أبو يوسف: المصدر السابق - ص٦١

ابن سعد: المصدر السابق - ج٣ - ص ١٧٢.

(١١٠) البخاري: فتح الباري - ج ٦ - ص ٣١٠- الحديث رقم ٣١٦.

لقد أمضى ﷺ حياته في العمل لصالح المسلمين منتهجاً النهج القرآني، فكان يجمع بين الأسوة الحسنة، والأخلاق العالية، والعواطف النبيلة... وبذلك يكون ﷺ قد حقق الكثير والعديد من الأهداف بإقطاعاته المختلفة وعمل بذلك تعويض الصحابة رضي الله عنهم عما فقدوه من أموال وعقارات.

ب- الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي مع القبائل العربية لصالح الدولة الإسلامية:

بدأ ﷺ منذ عامه الأول للهجرة بالعمل على إضعاف قريش سياسياً واقتصادياً واستمر ذلك طيلة السنوات الست التي سبقت صلح الحديبية الذي تم في (ذو القعدة ٦هـ/ مارس ٦٢٨م).

لقد استفاد ﷺ من غزوة الخندق (الأحزاب) (ذو القعدة ٥ هـ / إبريل ٦٢٧م) حيث جمعت قريش حلفاءها من القبائل (غطفان. سليم، أسد، فزارة، أشجع) بالإضافة إلى اليهود، لقد لاحظ ﷺ كيف جمعت قريش كل هذه القبائل لمحاربة دين الله ورسوله والمؤمنين، وهنا استفاد ﷺ من علاقته الإيجابية (بقبيلة خزاعة)، حيث أخبر بعض رجالها الرسول ﷺ بعض خطط الأحزاب، كما لاحظ ﷺ كيف استفاد من نعيم بن مسعود الأشجعي في فض بعض حلفاء قريش من حولها، لمعرفته ما للقبائل من أهمية استراتيجية في دعوته (١١١).

بدأ ﷺ في موادعة قبائل وبطون كثيرة من (بني بكر، مزينة، وجهينة) واتصل بالقبائل القاطنة على الطريق التجاري بين مكة والشام لتأمين فتح ذلك الطريق لتجارة وجند المسلمين الفاتحين، وإغلاقه في وجه قريش، فقد أدى ذلك إلى سيطرة المسلمين على طريق تجارة مكة - الشام، واعترف كبار تجار قريش بأن محمداً ﷺ عمل على الضغط عليهم اقتصادياً عبر هذه الطريق.

(١١١) إبن هشام: السيرة النبوية - ج٣ - ص ٢٢٩ .

لقد وادع الرسول ﷺ العديد من القبائل إلى جانبه فقد أصبحت (بنو خمرة ومدلج وبعض من جهينة وخزاعة) إلى جانب المسلمين إما إسلاماً أو موادعة، إلا أن قريش ردت على ذلك في محاولة باستغلال بعض قبائل نجد مثل (فزارة وأسلم وغطفان، هذيل، تميم وعامر) ولكن المسلمين بقيادة محمد ﷺ نجحوا في تحييد هذه القبائل ما عدا القليل من بطونها خاصة (فزارة)، وحاولت قريش أيضا" تأليب بعض قبائل الشام على المسلمين مثل (جذام. بلى. وكلب) على طريق الشام التجاري ولكن المسلمين نجحوا في كسب معظم هذه القبائل القاطنة في الشمال.

لقد رمى الرسول ﷺ مما سبق إلى تحقيق عدة أهداف هامة منها:

١- ضرب حصار اقتصادي على قريش، حتى يضعفهم اقتصادياً، لأن قوة قريش في اقتصادها وتجارتها - فقد اعترفت بنجاح الضغوط الاقتصادية عليها، وأرسلت أحد أعمدة التجارة وهو سهيل بن عمرو لمصالحة ومهادنة المسلمين.

٢- كان الرسول ﷺ ينظر من ناحية موادعة القبائل وتأمين الطريق الهام بين مكة والشام إلى إدخال معظم القبائل في الدين الإسلامي وتقوية الدولة الجديدة، وإقامة حكم الإسلام، وقد سعى لذلك بالموادعة وبالحروب.. والسرايا - حتى تحقق هدفه مع معظم تلك القبائل لقد أعطى ﷺ كتاب أمان لقوم من قبيلة جذام على أن ينتقلوا بمواشيهم في شمال شرقي المدينة المنورة، إلا أن رهطاً آخر من جُذام تعرضوا لقوافل المسلمين على طريق الشام، مما دعاه ﷺ في إرسال سرية بقيادة زيد بن حارثة (في جمادى الآخرة ٦هـ/٦٢٧م) لتأديبهم.

٣- بعد صلح الحديبية تحرك ﷺ مباشرة لنشر الإسلام بين القبائل لتحقيق ذلك، وقد قيل إن من دخل الإسلام في فترة هدنة الحديبية أكثر مما كان في الإسلام، وقد أدى هذا إلى زيادة قوة المسلمين وإلى الضعف المستمر لمكانة المشركين في مكة.

٤- سعى ﷺ إلى تأمين مراكز جديدة للمسلمين في الشمال فكما ذكرت دخل الكثير من القبائل الإسلام ووادع بعضهم بعضاً مما أدى إلى تأمين طريق جند الجهاد الذين سوف يتحركون صوب الشمال فاتحين مبشرين بدين الله الجديد، وتأمين طريق تجارة المسلمين مع الشام، فيظل هذا الطريق حيوياً بالنسبة للمسلمين، خصوصاً قبيلة فزارة التي كانت تتعرض لتجار المسلمين والبضائع الواردة لهم من الشام.

لقد حقق ﷺ تلك الأهداف بما فعله مع القبائل ورؤسائها ومن الأهداف التي حققها كانت ذات أهمية عظيمة لأمن واستقرار الدولة الإسلامية الناشئة هي ما قام بعمله مع القبائل:-

أولاً: إقرار الرسول ﷺ أهل الذمة:

فقد أمنهم على أموالهم، وعقائدهم ومؤسساتهم الدينية، وأثرهم على أعمالهم وأراضيهم، ذلك في ظل الإسلام على أن يؤدوا ما عليهم من جزية ولا يغدروا بالمسلمين.

وأخذ ﷺ في إرسال كتبه مع رسله إلى القبائل والملوك يدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا فالجزية، فقد صالح على الجزية العديد من أهل القبائل والقُرى منهم: أهل تيماء، وتبوك، ونجران، وخلافهم.

أرسل لأهل نجران كتاباً جاء فيه: (من محمد رسول الله إلى أساقفة نجران، باسم إله إبراهيم واسحق ويعقوب أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم أذنتكم بحرب.... والسلام) (١١٢).

---

(١١٢) حميد الله: مرجع سابق وثيقة ٩٣ ص ١٧٤.

وأرسل ﷺ كتاباً آخر لأسقف بني الحارث بن كعب، وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم، ورهبانهم، أن لهم ما تحت أيديهم من قليل أو كثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانهم، وجوار الله ورسوله لا يُغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهانته، ولا يغير حقاً من حقوقهم، ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه فانصحوا وأصلحوا فيما عليهم، غير مثقلين بظلم ولا ظالمين كتب المغيرة (١١٣).

بعد هذه الكتب أتى رسول الله ﷺ وفد أهل نجران السيد والعاقب (١١٤)، فسألاه الصلح فصالحهما عن أهل نجران على ألفي حلة في صفر، وألف حلة في رجب وعلى أن يأخذ منهم ما أعطوا من سلاح أو خيل أو ركاب أو عرض من العروض بقيمته قصاصاً من الحلل، وعلى أن يُضيفوا رسل رسول الله ﷺ شهراً فما دونه وعليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، إن كان باليمن كيد وجعل لهم ذمة الله وعهده، واشترط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملونه، وعليهم الجزية (١١٥).

بهذا تركهم ﷺ على نصرانتيهم وأرضهم آمنين، وأن يدفعوا الجزية وإن أبوا دفعها فعليهم الحرب... وفعلاً دفعوا الجزية وكانوا أول ما أعطوا الجزية، من أهل الكتاب هم نصارى نجران. وهكذا صالح ﷺ "أهل نجران" على الجزية وفيهم النصارى والعرب والعجم. كذلك صالح ﷺ أهل اليمن على الجزية وفيهم العرب والعجم.

مما سبق نلاحظ أنه ﷺ كان على حق وصواب في موادعة أهل نجران أهل الذمة

---

(١١٣) مصادر هذه الفقرات هي: إبن سعد: المصدر السابق - ج١ - ص ٢٦٦

أبو يوسف - المصدر السابق -ص ٧٢ - ٧٣.

(١١٤) السيد: هو الشخص الذي يقوم بشؤونهم وأمورهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه: (الأيهم)

العاقب: هو أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم، ويأخذون رأيه واسمه: عبد المسيح.

(أنظر ابن هشام: مصدر سابق ج١ ص ٥٧٣).

(١١٥) البلاذري: المصدر السابق - ص ٧٥ - ٧٦

ابن هشام: المصدر السابق - ج١ - ص ٥٧٣.

فآمنهم وأقطعهم أرضهم... وصالحهم، وأعطاهم ما يريدون، وأعطوه ما يريد... فأمن شرهم واستفاد من ضرب الجزية عليهم.. وإلا فالقتال، ذلك تصديقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١١٦)، ففي ذلك الصلح تنفيذ لآيات الله المحكمات فالله سبحانه وتعالى يريد مقاتلة أهل الكفر أو إيمانهم أو دفعهم الجزية وهم صاغرون.

ثانيا: دعا النبي ﷺ للحضارة والبعد عن البداوة:

لأن ذلك يؤدي إلى استقرار المسلمين وتجمعهم في ظل الدعوة لنشرها - الذود عنها - وفهم أصولها والعمل على بناء الدعائم الجديدة لهذه الدولة لذلك أغدق وأقطع ﷺ على المسلمين الوافدين الجدد من خارج المدينة وهم من القبائل العربية لإدخالهم في الدين الجديد، وانصهارهم في المجتمع النقي ولتحفزهم لمحاربة ومناوأة المشركين واليهود والمنافقين، الذين وقفوا لمقارعة الدولة الإسلامية الناشئة.

فقد كان ﷺ يسعى باستمرار لتوطين القبائل والأعراب وإخراجهم من طور البداوة والبعد، إلى القرب والاستقرار بين جنبات المجتمع الإسلامي الحضاري الناشئ، وليس هدفه ﷺ هو الانتقال من مقر تلك القبائل أو ترحل للمدينة، حتى تصبح في نطاق الحضارة، بل كان هدفه من ذلك أن ترتبط تلك القبائل بالمدينة لكي يكونوا على صلة دائمة بالأمة الإسلامية، وجماعة المسلمين والشرائع التي تنزل عليهم، والأحاديث النبوية التي تروى بينهم بكرة وأصيلا... فقد قال ﷺ عن قبيلة أسلم (خزاعة) إن أسلم ليسوا بأعراب، هم أهل باديتنا ونحن أهل حاضرتها (١١٧).

بذلك الأسلوب الذي انتهجه ﷺ انحصرت البداوة، وتغير التركيب الاجتماعي

(١١٦) سورة التوبة: آية رقم ٢٩.

(١١٧) ابن سعد: مصدر سابق ج١ ص ٣٥٤.

- محمد حميد الله: مرجع سابق ص ٢٧١-٢٧٢.

للعشائر، حيث تحول جزء كبير من العرب إلى حياة الاستقرار وانصهرت القبائل باعتناقها الإسلام - في المجتمع الجديد، حيث أصبحت تخضع لسلطة دولة مركزية شاملة يرأسها ويقودها النبي ﷺ.

وبعد أن بدأت المدينة تزدحم بالوافدين الجدد، وبدأ الإسلام يعم جزيرة العرب، أوقف ﷺ الهجرة للمدينة على أن تبقى كل قبيلة في مكانها ويكفي لدخولها الإسلام أن تقيم الصلاة وتؤدي الزكاة، مع احتفاظها بنظامها والذي ألزمه ﷺ للحد من تدفق المهاجرين من القبائل العربية التي دخلت الإسلام للمدينة، عدة أسباب من أهمها.

- مواجهة الضائقة الاقتصادية التي ألمت بهم، بسبب عدم توفر الطعام الكافي، حيث كانت تمر عليهم أوقات لم يكن طعامهم سوى التمر والماء وأحياناً خبز الشعير، وهذا ابتلاء من الله سبحانه وتعالى، لمعرفة قدرة المسلمين ومدى تحملهم لقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين ﴾ (١١٨).
- جعل القبائل مسلمة في مكانها، حتى تتمكن من الدفاع عن المدينة في أماكن تواجدها، وتأمين قوافل المسلمين التجارية، وحملاتهم الجهادية ويكونوا بمثابة نقاط استراحة ودعم للجند والقوافل. كما حصل في وفد مزينة في شهر رجب سنة (٥ هـ/٦٢٦م) وعددهم أربعمائة رجل جعل لهم الهجرة في دارهم وقال: (أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم، فرجعوا إلى بلادهم)، ودفع ﷺ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعي منهم وكانوا يومئذ ألف رجل، وكانوا نعم جند الفتح.وكانت كل قبيلة تصل إلى هذه المرحلة من الإسلام تحصل على

(١١٨) سورة البقرة: آية رقم ١٥٥ .

كتاب منه: تحصل منه بإقراره ﷺ على سيادتها في منطقتها وأرضها وحقوقها، وكان ﷺ يقطعهم ويقرهم على أرضهم ولن يقطع أحداً أرضاً ليست له.. بهذا استطاع ﷺ من إدخال القبائل الإسلام والمشاركة فيه عن بعد أو قرب، كيفما تشاء القبيلة، أو كيفما يحدد لها ﷺ دورها في الدفاع عن هذه الرسالة العظيمة، على أن لا تقف ضد المسلمين بل تحارب معهم في حال وقوع حرب مع أي من المشركين والمنافقين واليهود.

هكذا حقق ﷺ العدل - وأدخلهم الإسلام بإقطاعهم، أرضهم لهم حقوقهم وعليهم واجباتهم.

ثالثاً: عمل ﷺ على إنهاء الحروب والخلافات:

التي كانت قائمة في الجاهلية بين القبائل العربية المتناحرة على الأرض والحمى والكلأ والماء، لقد كانت أيام العرب في الجاهلية مرآة صافية لأحوالهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم وشأنهم في الحرب والسلم وفضائلهم وشيمهم، والوفاء والانتصار، وما يهمنا هنا ما كان يدور بينهم من حروب طاحنة ومستمرة تصل إلى عشرات السنين، وينتج عنها الخسائر التي لا تعد ولا تحصى خلال جولاتها المتباينة والمتتابعة.

لقد بدأ ﷺ بإصلاح حال الأنصار في المدينة بالإصلاح بين الأوس والخزرج وما أن استطاع السيطرة الكاملة على الوضع الجديد بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حيث أزال الخلافات نهائياً بإحلاله للوئام والأمن والسلام بين القبائل، من جانب آخر عندما قدم حُريث بن حسان الشيباني رئيس وفد بني بكر إلى الرسول ﷺ مسلماً سأل الرسول ﷺ أن يكتب له كتاباً بينهم وبين بني تميم بالدهناء لا يجاوزها إلينا منهم إلا مسافر أو مجاور، فقال: يا غلام اكتب له بالدهناء، فتصدرت امرأة من

وفد بني تميم تدعى: قيلة بنت مخرمة معترضة على هذا الكتاب، لأن الدهناء وطنها ودارها، قائلة: (يا رسول الله إنه لم يسألك السوية في الأرض إذ سألك، وإنما هذه الدهناء عندك، مقيد الجمل، ومرعى الغنم، ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك) فقال ﷺ موقفاً الكتابة: (إمسك يا غلام، صدقت المسكينة، المسلم أخو المسلم، يسعهما الماء، والشجر، ويتعاونان على الفتان) (١١٩).

فكتب ﷺ بالدهناء لبني بكر وبني تميم، وبذلك عمل على فض النزاع الطويل بين القبيلتين، وحل بينهما الأمن والسلام والمودة، ودخلتا الإسلام، وقضى على الحروب، فوثائق الإقرار لتلك القبائل بأن أرضهم لهم يملكونها ويستثمرونها على ألا ينازعهم أحد فيها، ذلك في ظل الإسلام.

ومثالٌ آخر لفض النزاعات القبلية وإقرارهم على ما باليد، أن كتب ﷺ كتاباً لبني أسد حتى لا يعتدوا على الطائيين، الذين أقرهم على ما أسلموا عليه من أملاكهم وجاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي إلى بني أسد، سلام عليكم، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: فلا تقربن مياه طيء وأرضهم، فإنه لا تحل لكم مياههم ولا يلجن أرضهم إلا من أولجوا، وذمة محمد ﷺ بريئة ممن عصاه وليقم قضاعي بن عمرو) وكتب خالد بن سعيد، (وقضاعي بن عمرو: من بني عذرة كان عامل النبي ﷺ على بني أسد) (١٢٠).

رابعاً: حافظ ﷺ على حقوق القبائل المجاورة للمدينة:

كقبيلة مزينة. لقد كان في قبيلة مزينة أناس يغصبون المارة ويقطعون الطريق، ويتصدون للقوافل بنهبها وبث الرعب في ركبانها، وما أن بدأت رسالته ﷺ وهجرته

(١١٩) ابن سعد: المصدر السابق - ج١ - ص ٢٦٩ - ٢٧.
الشوكاني - المصدر السابق - ج٥ - ص ٣٥٢.
(١٢٠) ابن سعد: المصدر السابق - ج١ - ص٢٩١.
العسقلاني: المصدر السابق - ج٥ - ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

وفد وفدهم، وكان أول من أوفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة، وذلك في رجب سنة خمس للهجرة ٦٢٧م فجعل لهم ﷺ الهجرة في دارهم قائلاً لهم: (أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم فرجعوا إلى بلادهم).

ورغم أعمالهم المشينة إلا أن الرسول ﷺ كتب لهم كتاباً وصفهم فيه بأنهم "عباد الله العتقاء" ومنحهم شروطاً مقبولة مقابل دخولهم الإسلام، وأسلم هذا الوفد، وحسن إسلامهم، ولقد كافأهم ﷺ بصفتهم الوفد الأول الذي قدم إليه بعد الهجرة، فاعتبرهم في عداد وثواب المهاجرين رغم أنهم لم يهاجروا، فقال لهم: (أنتم مهاجرون حيث كنتم) (١٢١).

وقد أقطع ﷺ بلال بن الحارث المزني إقطاعاته، ذكرته في مواطن الإقطاعات في بداية هذا الفصل، وكان قد أقطعه ﷺ العقيق وهو العقيق الذي يقع في أرض مزينة، وليس عقيق المدينة، اجمع (١٢٢)، فالعقيق وادٍ طويلٌ عريض تسكن على جانبيه قبائل عربية منها قبيلة مزينة، فقد أقطعهم وأقر لهم ما تحت أيديهم، وحافظ بها على حقوقهم، وفصل بينهم وبين القبائل التي تجاورهم، ولم يعط ﷺ حق أحد لأحد... وهذه من أهم السمات والأهداف التي حققها الإقطاع النبوي، فحافظت كل قبيلة على أملاكها وأرضها لا تعتدي على أحد ولا أحد يعتدي عليها... وهكذا شيمته مع معظم القبائل فقد كان ﷺ عادلاً محقاً في كل تصرفاته وإقطاعاته، وما نجده في وفد مزينه، والذي تكوّن منه يوم الفتح لواء خاص سمي لواء مزينة، يتكون من ألف رجل شاركوا كافة المسلمين في فتح مكة في الثامنة للهجرة ٦٢٩م فهذه مزينة أول قبيلة دخلت الإسلام وحاربت مع المسلمين، فتلك أمور عظيمة حققها الإقطاع النبوي.

---

(١٢١) ابن سعد: المصدر السابق - ج١ - ص ٢٩١.
عون الشريف قاسم: المصدر السابق - ص ٢٢٣.
(١٢٢) أنظر البحث ص ١٦٦ - ١٦٧.

خامساً: التأكيد في الإقطاعات النبوية على ما باليد:

لضمان ولاء هذه الأقوام والقبائل كما حصل في (إقطاع اليمامة)، لقد كانت قريش تستخدم معظم حنطتها من اليمامة، وحاول ﷺ الوصول لهذه المنطقة والسيطرة عليها إما موادعة أو إسلاماً كي يتمكن من الضغط على قريش اقتصادياً، ومن ناحية أخرى كانت اليمامة تتمتع بموقع استراتيجي هام ذلك بعلاقتها القوية مع الدولة الفارسية، فهذه العلاقة مع قريش ومع الفرس والموقع الاستراتيجي جعلوا منها موقعاً هاماً يتطرقه ﷺ للضغط على كل من قريش والفرس اقتصادياً وتجارياً، لما لهذه القوى من أهمية على اثر تقدم الدولة الإسلامية مستقبلاً كان مجاعة بن مرارة بن سلمى زعيماً من زعماء اليمامة، وهو من ضمن الذين عمل الرسول ﷺ على تأليف قلوبهم للإيمان ببعض الإقطاعات والمنح، فقد سأل رسول الله ﷺ أن يقطعه من موات اليمامة.

وتروي بعض المصادر التاريخية أن بعضاً من تلك الأهداف التي سعى إليها ﷺ تحققت، وبالفعل فقد أوقفت اليمامة إرسال الحنطة إلى قريش مما أدى بأهل مكة إلى مخاطبة النبي ﷺ يطالبونه بالتدخل من أجل ذلك قائلين: (إنك تأمر بصلة الرحم، وقد قطعت أرحامنا وقتلت آباءنا بالسيف وأبناءنا بالجوع) واستجابة لهم فقد كتب ﷺ لأهل اليمامة بألا يوقفوا عن أهل مكة الطعام، وقد بعث ﷺ سليطاً ابن عمرو العامري بكتاب إلى هوذة بن علي شيخ اليمامة وثمامة بن آثال باليمامة قائلاً فيه سيظهر ديننا إلى منتهى الخف والحافر (١٢٣)، ويدعو فيه إلى الإسلام ليسلم وأن يجعل له ما تحت يديه من ملكه.

---

(١٢٣) الخف: يكون للإبل: الحافر: يكون للخيل والبغال والحمير من الدواب وهو كالظفر للإنسان، والمقصود هنا بمنتهى الخف والحافر أي إلى ما يبلغ الإبل والخيل من الأرض، ويدل على مدى اتساع الدولة الإسلامية كما رأى رسول الله ﷺ، (أنظر حميد الله - المرجع السابق - ص ٥٩٦).

ولقـد كان لمجاعة الدور الكبير في إخماد فتنة اليمامة في حروب الردة وإعادة الأمور إلى نصابها (١٢٤).

هذه الأهداف التي حققها الإقطاع النبوي لدى القبائل خصوصا المجاورة منها للمدينة المنورة، والرابضة في المواقع الحساسة والاستراتيجية، فقد أمنت الجيوش المسلمة المنطلقة في طريقها الطويل والصعب.

ومن أجل دراسة الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي، واستقصاء أهدافه ونتائجه، لا بد لنا من مقارنته ليس فقط بالإقطاع الجاهلي، والذي سبق دراسته وإنما أيضا" بالإقطاع الأوربي في العصور الوسطى حتى تأتي الصورة متكاملة.

---

(١٢٤) البلاذري: المصدر السابق - ص ١٠٢ - ١٠٣.

- عون الشريف قاسم: المصدر السابق - ص ١١٤ - ١١٥.

الفصل الرابع

الإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى

الفصل الرابع

الإقطاع الأوربي في العصور الوسطى

أولاً: نشأة الإقطاع الأوربي وأسباب ظهوره.

ثانياً: أركان المجتمع الإقطاعي الأوربي.

ثالثا: المجتمع الأروبي في ظل الإقطاع.

رابعا: خصائص النظام الإقطاعي الأوربي.

خامسا: عوامل وأسباب انهيار الإقطاع الأوربي.

قسم المؤرخون قصة تاريخ البشرية أقساماً ثلاثة هي:

العصور القديمة - العصور الوسطى - العصور الحديثة

من ذلك نلاحظ أن العصور الوسطى عصر من عصور التاريخ تلت الأزمنة القديمة (العصور القديمة) وسبقت العصور الحديثة وقد دعُيت العصور الوسطى بالعصور المظلمة.

لقد تساءل المؤرخون حول بداية ونهاية العصور الوسطى ووضعوا لذلك أبعاداً زمانية ومكانية، متباينة، ولاشك في أن كل موقف من تلك المواقف المختلفة حول البداية أو النهاية، يمكن الدفاع عنه، لأنه يكشف عن جزء من الحقيقة، ولكن الحادث الحاسم والذي أُرخت به بداية العصور الوسطى كان يتمثل في عبور القبائل الجرمانية البربرية، والذي أدى لسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في سنة ٤٧٦م، وما نتج عنه من زعزعة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في شتى أنحاء الإمبراطورية.

إن الاختلاف بين المؤرخين في وضع تاريخ حقيقي ومحدد لبداية تلك العصور هو أمر طبيعي، فمن تحديد ذلك الزمن، تداخلت عوامل كثيرة ومتشابكة، هيأت الظروف للدخول للعصور الوسطى، ولم تكن هذه العوامل إلا أحداثاً وقعت خلال عشرات السنين، فكانت عوامل بدء العصور الوسطى كثيرة لكن أهمها الذي ذكرناه آنفاً، وهو سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية على يد القبائل البربرية (١).

أما نهاية العصور الوسطى فقد أُختلف أيضا" فيه، وقد أجمع معظم المؤرخين على أنه كان يتمثل في سقوط مدينة القسطنطينية عام ١٤٥٣م على يد الإمبراطورية الإسلامية العثمانية، وبالرغم من كل الاختلافات في تحديد بداية ونهاية العصور

(١) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها دار النهضة العربية: بيروت: ص ٢٢

الوسطى إلا أن معظم المؤرخين أجمعوا على أن أقرب الفروض إلى الصحة والواقع، وإلى الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي قامت في أوروبا آنذاك، أن العصور الوسطى تبدأ في القرن الخامس للميلاد، وانتهت في حوالي القرن الخامس عشر للميلاد، وإن كانت الأسباب والعوامل التي مهدت لها، وتلك التي أدت إلى زوالها تسبق في الواقع قيامها، وتستمر بعد انتهائها بقرون عديدة (٢).

إذن بين الغارات البربرية الكبرى في القرنين الرابع والخامس للميلاد، وبين فجر النهضة الأوربية الحديثة في القرن الخامس عشر مضت ألف سنة من عمر الزمان، أطلق عليها اسم "العصور الوسطى" (٣).

ومما امتازت به العصور الوسطى هو انتشار الديانة المسيحية في أوروبا وبالذات داخل روما نفسها، حيث إنها انتصرت على الوثنية كذلك نما في تلك العصور النظام الإقطاعي الأوربي، ومنه ظهرت الفروسية (الفروسية كانت من ابتداع الكنيسة، وكان البابا أربان الثاني (Urban II) هو صاحب فكرة الفروسية، معتقداً بأن الفرسان هم جنود الله، أو جنود الكنيسة، وكانت الحرب مع غير المسيحيين تعتبر من أهم واجبات الفرسان، فالفارس الكامل: هو الجندي الذي يعيش في ظل نظام ديني مكرساً كل جهوده لقضية الكنيسة المقدسة، فدفاع الفارس عن الدين وعن الكنيسة يُلقن له باستمرار، ويحرز الفارس التقدير والاحترام إذا ما قاتل من أجل البابا ضد إمبراطور غير عادل (٤)، ولقد امتازت العصور الوسطى - أيضاً" - بالقسوة التي امتاز بها النبلاء الذين كانوا يسيؤون كثيراً في معاملة عبيدهم وأقنانهم.

---

(٢) جوزيف نسيم يوسف: نفس المرجع: ص٤٤.

(٣) نور الدين حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا: الطبعة الأولى دار الفكر: دمشق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م: ص٣.

(٤) ديفز: هو (H.W.C.Davis): أوروبا في العصور الوسطى: ترجمة عبد الحميد حمدي محمود: الطبعة الأولى: الاسكندرية: ص١٠٧.

أولاً: نشأة الإقطاع الأوروبي وأسباب ظهوره:

تعود الجذور التاريخية لأصول هذا النظام إلى عهد الإضطرابات السياسية التي صاحبت إنهيار الإمبراطورية الرومانية، وذلك قبل بدء الغزوات الجرمانية بوقت قصير، فلقد كانت الأوضاع السياسية المتردية، والأزمان الاقتصادية تهدد الفلاحين بالانهيار الكامل، لذا لجأ الفلاح الضعيف إلى جاره الغني القوي، يسلمه أرضه مقابل حمايته، ودفع الأعداء عنه، ثم يسلمها له ليقوم بفلاحتها كمستأجر (لأرضه) بعد أن يكون قد فقد ملكيتها، وفي ظل هذا النظام ذي الطابع الزراعي، كانت الوحدة الأساسية التي تنقسم إليها الأرض هي الإقطاع (٥).

وقد وجد عند الرومان قبل سقوط إمبراطوريتهم نظام عُرف باسم (الحماية) أساسه تسلط القوي على الضعيف، ووجد عند القبائل الجرمانية نظام عرف باسم (التبعية) وفيه يرتبط شخص بآخر، وكان هذا النظام قبل بدء العصور الوسطى أي كانت توجد بذور للإقطاع والهيمنة والسيطرة في نهاية العصور القديمة، وما أن غزت القبائل الجرمانية الإمبراطورية الرومانية، وسيطروا حتى عملوا على تنمية هذه الأوضاع، وقد ساعدت الفوضى التي حلت بالإمبراطورية الرومانية بسبب تلك الغزوات تأصيل وتنمية النظام الطبقي والذي كانت بوادره موجودة لدى الطرفين الروماني والجرماني، حيث تطور ذلك في المجتمع الجديد ووصل إلى ما عرف (بالنظام الإقطاعي) والذي نحن بصدد دراسته من معظم جوانبه، ولقد كان المجتمع الأوربي في تلك الأوقات يتكون من ثلاث طبقات:-

١. طبقة النبلاء المحاربين.

٢. طبقة رجال الدين.

---

(٥) حياة الناصر الحجي: ملاحظات حول نظام الإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى: المجلة العربية للعلوم الإنسانية (جامعة الكويت) العدد الثاني: المجلد الأول ١٩٨١م: ص١٢٢.

٣. طبقة العاملين والفلاحين بدرجاتهم المتفاوتة (٦).

وليس من شك في أن هؤلاء البرابرة الجرمانيين، الذين دخلوا إلى الإمبراطورية الرومانية جلبوا معهم الكثير من عناصر التنظيم القبلي، وهذا المجتمع يقوم على أساس احترام رئيس القبيلة أو العشيرة، والفرد يمتاز بميول قوية من العصبية، إضافة إلى ذلك فإن استخدام الرقيق كان أمراً مألوفاً عند القبائل الجرمانية وتلك العناصر جميعاً ذات أهمية عظيمة في تأسيس التنظيم الإقطاعي (٧).

لقد جلب الجرمانيون معهم بذوراً للنظام الإقطاعي، فقد كانت هناك بذورٌ أخرى في المجتمع الروماني - أيضاً - من ذلك نلاحظ أن نظام الإقطاع الأوروبي يعتبر بمثابة التقاء وامتزاج بين العناصر الاقتصادية الرومانية القديمة المنهارة، والعناصر الجرمانية الجديدة المنتصرة.

لقد سار الفرنجة من السلالة الميروفنجية في القرنين الخامس والسادس الميلادي (٤٨١ - ٧٥٢) على مبدأ تقسيم الملك بين أبناء الأسرة، وكان هذا من أكبر عوامل تفككهم، وقد أدى هذا التقسيم وتكراره من ملك إلى آخر (كل ملك يقسم الملك لأولاده) إلى الصراع بين أبناء الأسرة الحاكمة، ومثال ذلك ما حصل عقب وفاة الملك كلوفيس، مؤسس الأسرة الميروفينجية ٥١١م، حيث قسم ملكه بين أبنائه الأربعة، والتقسيم الآخر الذي حصل ٥٦١م. هذه الإقطاعات والتقسيمات تمت في عصر السلالة الميروفينجية قبل ظهور الإسلام.

ثم تطور الإقطاع الأوروبي في العصر الكارولنجي (٨) (٧٥٢ - ٨٩١م) وذلك حينما احتاج بيبن الثاني (Pippin II) وابنه شارل مارتل (شارل المطرقة) إلى عدد كبير من

(٦) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق: ص ٩٠.

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى (النهضة العربية والنظم): جـ٢: ص ٤٨.

(٨) الكارولنجيون: خلفوا الدولة الميروفنجية فيما بين الفترة (٧٦٨م - ٨٩٩م) (١٥١هـ - ٢٨٦هـ) أسسها في القرن الثامن الميلادي بيبن القصير، وأعلن نفسه ملكاً عليها ١٣٤هـ/٧٥١م وتوج ابنه شارلمان (١٨٤هـ/٨٠٠م)، وبلغت في عصره أوج عظمتها ثم قسمت بين أبنائه وأخذت في الضعف والانحلال. (انظر السيد الباز العريني: تاريخ العصور الوسطى: ص ٢٥٦-٢٥٧).

الفرسان، فأكثر من الأتباع، ومنح الضياع والإقطاعات، حتى يستطيع الفارس أن يجهز نفسه حربياً، وكانت معظم الإقطاعات تُعطى تمليكاً، حيث كانت بعض تلك الإقطاعات تُمنح للفرسان من الأملاك الشخصية للملكين سابقي الذكر.

وأكثر شارلمان (٨٠٠م - ٨١١م) من تلك المنح والإقطاعات لدرجة أن أولئك الأتباع قاموا بمنح بعض إقطاعاتهم لأتباع آخرين، فتكونت طبقة ثالثة من أتباع الأتباع، ثم تطور الإقطاع في فترات الغزو الخارجي من النورمان والصقالبة (٩)، ودخل صغار الملاك والأتباع ضمن طبقة المحاربين الممتازين التابعين لكبار السادة، فانشغلوا بالحروب المتتابعة، وهذا الانشغال أدى بهم بأن الجؤوا أملاكهم وأعادوها إلى السادة الكبار، ثم استردوها منهم كإقطاع وعُرفت هذه بعملية الإلجاء(**Feudalization**)، ويجب علينا أن نعلم السبب من إكثار شارل مارتل من الفرسان، حيث كان يبني جيشاً منهم لمحاربة المسلمين في الأندلس، لذلك تطور الإقطاع في هذه المرحلة بإسداء الإقطاعات للفرسان حتى من أملاك شارل مارتل نفسه، وإغداق القطع الوفيرة عليهم كي يدخلوا قطاعات فرسانهم لمحاربة المسلمين.

إن الإقطاع الأوروبي هو مرحلة واقعية، وتجربة عملية فرضتها الحوادث على المجتمع الإنساني عامة، والمجتمع الأوروبي خاصة ذلك في العصور الوسطى، وكانت الدوافع لقيام هذا النظام عديدة من أهمها: الاستعاضة عن الحكومات المركزية التي انهارت وضعفت، وحاجة القرية إلى الأمن والإستقرار التي عجزت عن تقديمه لها تلك الحكومات المنهارة (١٠).

---

(٩) **النورمان:** هم الشماليون: وهم الفيكنج، ويتألفون من الرانيين والنرويجيين وكانوا يقطنون اسكنديناوة، وحوض البطليق، ويدينون بالوثنية وغزوا غرب اوروبا مشيعين فيها الفوضى والدمار، ثم دخلوا المسيحية (أنظر هارتمان. ل.م، وباراكلان. ج - الدولة والامبراطورية: ترجمة: جوزيف نسيم يوسف: ص١٢٢).

الصقالبة: (:(هم مجموعة الشعوب المنتشرة في أوروبا الشرقية، تنحدر من الشعوب الهندو أوروبية، ويقطن الشرقيون منهم روسيا وأوكرانيا، والغربيون في بولونيا وسلوفاكيا، والجنوبيون في صربيا وكرواتيا وبلغاريا - (ويعملون في فلاحة الأرض) (انظر لويس المعلوف: المنجد في الاعلام: ص٣٤٦).

(١٠) محمود سعيد عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى: الطبعة الأولى: دار النهضة العربية: بيروت: ص ٦١.

فقد مهدت هذه العوامل لظهور ونمو الإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى، فنتيجة انهيار الحكومة الرومانية المركزية على أيدي القبائل الجرمانية عام ٤٧٦م، أدى ذلك الانهيار إلى فوضى عمت أنحاء الإمبراطورية، وبالتالي عجز القادة الجرمانيين عن تحقيق قيام حكم مركزي قوي، وساعد ذلك على ازدياد النزاع بين أبناء الإمبراطورية الأصليين من الرومان والجدد من الجرمانيين، وأدى ذلك النزاع وتلك الحروب لظهور النظام الإقطاعي.

مما نتج عنه عزوف المجتمع الأوروبي عن تلك الحكومة والتي لم تستطع أن تؤمن لهم أرزاقهم وحرياتهم وأمنهم، فبحث أفراد ذلك المجتمع عن ذلك الأمن المفقود والاستقرار الحائر فلجؤوا إلى أقاليم بأطراف الإمبراطورية للبحث عن السادة والنبلاء لحمايتهم وتأمين أرزاقهم.

كذلك من العوامل والمقدمات لظهور الإقطاع الأوروبي، هو قيام الإمبراطور الكارولنجي شارلمان، بتحويل الكثير من مراكز السلطة المركزية لنوابه في الأقاليم مما جعلهم أهل الرأي والقوة في تلك المناطق، أيضا" عمل هؤلاء الأباطرة على تقسيم الأملاك بين أبنائهم من بعدهم، ومنحوهم إبراءات الإعفاء والتي تعفو صاحب الأرض من تدخل كل من القضاة والماليين من موظفي الدولة، فأخذ هؤلاء الأبناء، يكونون حولهم الإقطاعات الكبيرة والمترامية.

وبعد زوال شخصية الإمبراطور شارلمان، مهد ذلك لنمو الإقطاع في ذلك العصر، بسبب ما برز ممن تبعه من الأباطرة من تراخٍ في الحكم أدى إلى ضعف مضطرد في الإدارة المركزية ساعد على نمو الإقطاع في أطراف الإمبراطورية.

أيضا" مهد لظهور ونمو الإقطاع، غزوات الشماليين والونداليين (١١) للإمبراطورية الكارولنجية في القرنين التاسع والعاشر الميلادي، وهؤلاء ممن

(١١) الشماليون: أنظر التعريف في هامش رقم (٩).

اعتادوا على المعيشة القبلية، والتفافهم حول زعمائهم الذين كانوا يغدقون عليهم الإقطاعات المختلفة خصوصاً إقطاع الأراضي كي يبقوا ملتفين حولهم.

وفي القرن السابع ظهر اضطراب بين ملوك الفرنجة، أدى ذلك وخلافه (من أحداث واضطرابات) إلى الاختلال في الأمن، الذي حل في قلب الإمبراطورية الفرنجية، وازداد الأمر سوءاً بزيادة الاضطرابات، وفقدان الحكومة المركزية، السيطرة على الأمن وحماية المواطن، أدى ذلك بدوره إلى ظهور ونمو فريق من رعايا هذه الإمبراطورية، يمتازون بالثراء والقوة، حيث لجأ إليهم المواطن الذي فقد أمنه وسبل معاشه، فأصبح هؤلاء الأثرياء أقوى من الحكومة المركزية وكان لهذه الخدمة التي يقوم بها أثرياء هذه الطبقة، هو خدمات مختلفة يقدمها أولئك المواطنون الضعفاء لتلك الفئة الثرية والغنية، فأصبحت تلك الفئات تخدم بعضها، فأصبح الناس نوعين هما: السادة والأتباع، فصار الممنوح تابعاً لكرم وسخاء سيده المانح، فمن تلك الأحداث نشأت وظهرت بذور وأصول الإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى.

ومن الأسباب التي أدت لظهور هذا النظام كما سبق وقلنا هو البحث عن الحماية، وقد ذكر ذلك على متن الصفحات السابقة فعندما تم القضاء على الدولة المركزية، استقال حكام الأقاليم بأقاليمهم، وبحث صغار الملاك عمن يحميهم، ويحمي ممتلكاتهم، لذلك لجأت تلك الفئة من صغار الملاك إلى حكام الأقاليم فعزز الملوك والنبلاء نفوذهم بجمع أكبر عدد ممكن من الأتباع فمنحوا كثيراً من أراضيهم لأتباعهم.

ثانياً: أركان المجتمع الإقطاعي الأوربي

عند تعريف نظام الإقطاع الأوروبي نلاحظ بأنه شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديني، ظهر في أوروبا الغربية في نهاية

العصور القديمة وبدأ ينمو ويزدهر في بداية العصور الوسطى، ولمعرفة ذلك النظام يجب علينا دراسة أركانه وعناصره الثلاثة الرئيسة والتي يتكون منها هذا النظام وهي: (القرية والدومين وعملية النمو الإقطاعي) كي نتمكن من إيضاح صورة هذا النظام الذي كان قائماً بين جنبات المجتمع الغربي في العصور الوسطى:

١- الجماعات القروية (القرية):-

يتكون غالبية المجتمع الإقطاعي من الفلاحين، الذين هم عمادة ذلك المجتمع، فمنهم استمد البابا ورجال الدين والملوك، ونبلاء وسادة ذلك المجتمع حاجياتهم من مأكل ومشرب وملبس. وكان هناك ترابط قوي بين الفلاحين، ذلك لأن إصلاح الأراضي وزراعتها يتطلب ذلك الترابط والتعاون المستمر، كانت القرية في العصور الوسطى عبارة عن بيوت الفلاحين، ودكاكين أصحاب الحرف التي تبيع لمجتمع تلك القرية حاجياته ولوازمة.

والكنيسة تتوسط منازل الفلاحين، كل ذلك في منطقة واحدة والتي تحيط بها الأراضي الزراعية، والمناطق المشاعة لرعي الماشية، ثم الغابات والمروج ذات الحشائش الكثيفة والتي تستعمل كعلف للماشية، وكانت كل تلك المناطق تحت سيطرة رجل واحد هو السيد الإقطاعي، أما الفلاح فيعيش في بيت صغير سيىء البناء، به ما يناسبه من الأثاث البسيط الذي يستعمله في حياته، وحوله قطعة أرض يزرع فيها ما يستعين به على قوته اليومي من خضار وبقول، ويقوم بزرع حصته من الأرض الزراعية في قطع مختلفة المساحات، مبعثرة في أرجاء القرية، وعند وفاته (الفلاح) تقسم حصته بين ورثته، مما يزيد من بعثرة تلك الأرض وصعوبة إعمارها وإصلاحها، هذا هو الركن الأول من الأركان التي قام عليها المجتمع الإقطاعي الأوروبي (١٢)

(١٢) كوبلاند. ج.و وفينو جرادوف.ب: الإقطاع في العصور الوسطى: ترجمة: محمد مصطفى زياده: ص ٨، ٩، ٤، ٤٢.

٢- الدومين:-

وهو الركن الثاني من الأركان التي انبنى عليها المجتمع الإقطاعي ومعنى مصطلح الدومين في العصور الوسطى: هو أملاك السيد الإقطاعي من أراضٍ وإبعاديات، ويشير الأستاذ كوبلاند الذي كتب مقالاً تاريخياً عن أصول الإقطاع في العصور الوسطى، إلى وثيقة فرنسية كتبها الأسقف براترانوس أسقف مدينة لمان الفرنسية ٦١٥م ورد فيها: (جميع ما تحت يده من إقطاعات محصياً أكثر من ثمانين ضيعة أو قرية إقطاعية تخصه، وهذا يدل على التملك المفرط لإقطاعيي وسادة ونبلاء تلك العصور).

كذلك لقد ثبت من وثائق مماثلة أن عصر الفرنجة فيما بين سنتي (٤٥٠-٧٥٠م) انتشر فيه أعداد كبيرة من السادة الإقطاعيين الذين يملكون المساحات الواسعة، وبدأ نظام الدومين الإقطاعي ينتشر بسرعة في القرن التاسع الميلادي وفي ظل ذلك عاش أولئك التابعون للسيد الإقطاعي خاضعين له تمام الخضوع من جميع النواحي حيث له الحق في فرض الضرائب، والقضاء والحكم والإدارة المحلية، على أولئك الفلاحين التابعين له ذلك في كل الأوقات سواء كانت الحكومة المركزية ضعيفة كحكومة الميروفنجين أو قوية كحكومة الإمبراطور شارلمان (١٣)، هذه الأملاك والأوضاع العامة تبين لنا السيطرة الكاملة والتامة من الإقطاعي على أتباعه، وبعد الحكومة سواءً كانت قوية أو ضعيفة عما يحدث في تلك الدومينات والإقطاعات وكأن تلك الدومينات لم تكن ضمن أرض وأملاك الحكومة المركزية.

٣- عملية التطور الإقطاعي:-

إن عملية التطور الإقطاعي تعني تنازل السلطة المركزية في الدولة عن حقوقها

---

(١٣) نفس المرجع: ص ١٠ - ١٤.

وواجبـاتها بسبـب ضعفها وعجزها عن مواجهة الأخطار المحيطة بها، مما دفع الملك إلى اختيار بعض ذوي النفوذ والبـأس ليُنعم عليهم بحقـوق وامتيازات في مناطق معينة مقابل شروط خاصة (١٤).

استغرقـت عملية تطور النظام الإقـطاعي مدة أربـعة قـرون كانت فيه أوروبـا الغربية تعيش إضطرابات اجتماعية، وأحداثاً سياسـة متتالية، لذلك كانت سـنوات هذه القـرون هي العصور المظلمة لعدم وجود أي كاتب معاصر لتلك الفترة، ولتسـهيل فهـم هذه الفتـرة، قسمهـا الباحثـون لثلاثة عصور كي تصبح أقل غموضاً وأكثر وضوحاً (١٥).

أ- عصر التمهيد للنظام الإقطاعي:

إن حصيلة من العوامل هي التي سـاعدت على التمهيد لتطور النظام الإقـطاعي في أوروبا خلال العصور الوسطى، فمن هذه العوامل:

حـركة التطور العام نحو المحلية والبـعد والعزوف عن الحكومة المركزية الضعيفة والمنهارة، ثم ما أنشـأه الأبـاطرة الكارولنجيون، يعمل على التطور نحو المحلية وزيادة النشـاط الإقطاعي، حـيث خول الإمبراطور شـارلمان لنوابـه الإقـليميين، مما سـهل السبيل لقيام النظام الإقطاعي (١٦).

وكان ما قام به هؤلاء الأبـاطرة من تقسـيم الملك لأولادهم من بـعدهم وما سـاروا عليه من منح بـراءات الإعفاء، والتي جعلت الأراضي بـعيدة عن عمال القـضاء والضرائب، وما أن توفي شـارلمان الذي كان يُظهر قـوته ومركزيته في الحكم حـتى تعرضت إمبراطوريته لغارات الشـماليين، فزوال شـخصيته شـارلمان بقـوته الحربـية

(١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق: ص ٢٥٩.

(١٥) كويلاند وفنيو جرادوف: المرجع السابق: ص١٥ .

(١٦) نفس المرجع: ص ١٦-١٧ .

وضعف ما تبعه من الأباطرة، وتلك الغزوات من الشماليين والونديين الذين اعتادوا الحياة القبلية والالتفاف حول زعيمهم، فذلك عامل خارجي وقد سبقته عدة عوامل داخلية كلها آذنت بالتمهيد لظهور النظام الإقطاعي والذي استغرق مدة القرنين السابع والثامن.

ب - عصر النمو الإقطاعي:

كانت العلاقات السائدة في ذلك العصر بين الأفراد هي نوع خاص من العلاقات الشخصية التي تنشأ بين القوي والضعيف، ومصدر تلك العلاقة الأرض، في ذلك العصر كان المجتمع الأوروبي قلقاً ويمر بفترة صعبة ومعقدة، حاول الناس في مدة القرنين التاسع والعاشر الميلادي أن ينظموا أنفسهم كجماعات محلية من أجل الأمن والسلامة لهم ولعائلاتهم وذويهم.

ت - عصر النضج والكمال:

لقد شكل هذا العصر مدة القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي ولقد امتاز العصر بانعدام الحكومات المركزية في غرب أوروبا، وتحول ولاء الجماعات إلى السادة المحليين، والذين أسسوا أسراً إقطاعية كبرى، كذلك مما إمتاز به هذا العصر أن من يملك الأرض يملك الحكم والسلطان، ومن ذلك نشأت علاقة مميزة بين السيد والمحكوم، ضمنتها تعهدات مشتركة والتزامات متبادلة بين الطرفين، وأصبحت الحكومة المحلية هي الحكومة المسيطرة على الأمور.

لقد وصف المؤرخ الفرنسي (جيرار) المجتمع الإقطاعي في هذا العصر بقوله: "إن الأرض أساس المجتمع الإقطاعي فمن تملك أرضاً صارت له أحقية في السلطة والحكم، بحسب ما بيده من الأرض سواءً أكانت هذه الأرض قطعة صغيرة أم كبيرة" (١٧).

(١٧) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق: ص٢٠ - ٢١ ص ١٠٢ - ١٠٣.

ذلك التطور والنمو البطيء للنظام الإقطاعي في عصر تمامه وكماله، يشبه في بنائه شكلاً هرمياً على رأسه الإمبراطور - الملك - طبقة الدوقات - الكونتات - البارونات - ثم الفرسان وفي نهايته الطبقة السفلى من الأقنان وعبيد الأرض ويبدو أن هذا المجتمع نشأ من أعلى إلى أسفل وهذا أمر غير طبيعي لأن أي بنيان صحيح يبدأ من القاعدة ثم يتصاعد ويعلو، هذا هو المجتمع الإقطاعي بأركانه الرئيسة الثلاثة، يربطه التشابه العام في مختلف الأقاليم الأوروبية، مع وجود اختلافات بسيطة باختلاف البلاد والظروف والأزمان.

ثالثا: المجتمع الأوربي في ظل الإقطاع:

يتكون المجتمع الأوربي في العصور الوسطى الإقطاعية من أربع طبقات هي: طبقة رجال الدين، طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وطبقة الدومين من الفلاحين والمزارعين، والمرأة، وسوف أقوم بدراسة تلك الطبقات التي يتكون منها هذا المجتمع في العصور الوسطى، والتي كانت متباعدة تماماً عن بعضها من حيث الوضع الاجتماعي والاقتصادي.

فكل شيء في هذا المجتمع ترتبط حيازته للأرض بنوع من الخدمة، فالكنيسة تحوز أراضيها نظير ما عليها من صلوات وخدمات روحية تقوم بتأديتها من أجل طبقات المجتمع والفرسان والجنود المحاربين، يحوزون أراضيهم نظير قيامهم بخدمات حربية مختلفة من أجل سيدهم الإقطاعي، أيضا" المستأجرون للأرض، يحوزون أراضيهم مقابل إيجار يقومون بدفعه نقداً أو خدمة أو عيناً، لصاحب الأرض التي استأجروها منه، ويقومون بخدماتهم الزراعية لسيدهم الإقطاعي، مقابل حفظهم على قطعة من الأرض يستطيعون أن يعيشوا عليها (١٨).

---

(١٨) كوبلاند وفنيو جرادوف: المرجع السابق: ص ١١٥ .

١- طبقة رجال الدين:-

يتربع على قمة هذه الطبقة البابا فالكرادلة والأساقفة، ثم رؤساء الأديرة، فرجال الدين والكهان.

فقد كانت هذه الطبقة تابعة لكنيسة روما الكاثوليكية التي يرأسها البابا، ويتحدثون باللاتينية، حيث كانت كنيسة روما تمتاز بنظام شامل خاص بها من حيث استقلالها في التشريع والقضاء ولها محاكمها ونظامها وحصانتها، فأصبحت الكنيسة ذات سيطرة كاملة شاملة دينياً ودنيوياً، كان ذلك في بداية العصور الوسطى، وقد نشب خلاف عظيم بين الامبراطورية والبابوية، انتصرت في النهاية الكنيسة البابوية، وترتب على ذلك تغير حياة رجال الدين من بساطة وتواضع إلى انغماس في الحياة الدنيا وشهواتها، حيث زادت اقطاعياتهم، وأصبح الهم الوحيد لرجال الدين زيادة أملاكهم، ونتج عن ذلك حكم رجال الدين للإقطاعيات الكبرى، وقيادتهم للجيوش وعاشوا في الازدواجية بين رجال الدين والأمراء الإقطاعيين، ومن ثم أصبح الفلاحون عبيداً للسادة الجدد من رجال الدين والكنيسة (١٩).

فالملاحظ هنا من رجال الدين، تركوا أمور الكنيسة وانتقلوا إلى الحياة الدنيا بالبحث عن زيادة إقطاعاتهم من الأرض، والبحث عن أعداد أخرى من الفلاحين والأقنان لخدمتهم... فانصرفوا عن الأمور الدينية للأمور الدنيوية.

٢- طبقة المحاربين (النبلاء والفرسان):-

من معالم أوربا العصور الوسطى النظام الإقطاعي، ومن معالم النظام الإقطاعي الفروسية.وهي تكون نسبة عددية ضئيلة من المجتمع الإقطاعي ويعتبر هذا المجتمع مجتمعاً حربياً، فلذلك عمل سادة هذا المجتمع الجمع بين اقتناء الأرض

(١٩) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق: ص ٩١.

والثروة باعتبارهما شرطين للقوة التي يتطلبها المجتمع الحربي، فمن سماته الحرب والعنف، فالسيد يحمي تابعيه، ويساعدهم في كل أمورهم التي يريدون، والمُقطع يعامل سيده بالمثل فيقدم له المساعدة والمشورة.

وتتكون هذه الطبقة من: (الأحرار. والأشراف. والنبلاء) الذين اتخذوا الحرب درباً لحياتهم، فحاربوا في العصر الجرماني بفرق المشاة، وفي القرن التاسع للميلاد حاربوا كفرسان، يمتطون ظهور خيلهم، ثم تطورت قدراتهم القتالية، وملابسهم الحربية، من حلل حديدية تمتاز بالزرد وبالخوذات لحمايتهم، ويحملون الدروع والسيوف والرماح، واتخذ الفارس لنفسه مساعداً أو مساعدين، كي يساعداه في ارتداء ملابسه الحديدية، ويحمل له سيفه حتى يمتطي صهوة جواده، ويتلقن هذا المساعد أصول الفروسية وإذا ما كبر ورشد نُصب فارساً في حفل بكنيسة القرية، ثم يتدرج هذا الفارس في مناصبه حتى يصل إلى طبقة الأشراف مستقلاً عن باقي الطبقات... ثم أصبحت الفروسية مهنة لا يمارسها إلا النبلاء وذوي السلالات العريقة، وكان لزاماً على الفارس أن يكون شجاعاً، وفياً لأصدقائه، محترماً للعهود، وحين انتصاره يعامل خصمه معاملة كريمة، ومن صفاته أيضاً الولاء الكامل لسيده، صادقاً في معاملاته، فكان لزاماً على ذلك الفارس أن يتحلى بتلك الصفات.

وتعتبر الفروسية من ابتداع الكنيسة، فقبل أن يصبح الفارس فارساً كان واجباً عليه أن يقوم بتأدية القداس الديني المعهود به لذلك فكان الجميع يعتبرون أن الفرسان هم جنود الله، أو جنود الكنيسة حيث إن حربهم مع غير المسيحيين يعتبرونها من أهم الواجبات الملقاة عليهم.

لقد دامت الفروسية فترة ثلاثة قرون من العاشر حتى الثاني عشر وقد شاهدت حياتهم الكثير من الوحشية، والأحقاد والظلم، وحيث أن الفارس قد تعلم آداب السلوك والشهامة والصدق، فقد أصبح بعض تلك الصفات للمجتمع الإقطاعي

نفسه إلا أن العنف والقسوة والظلم كانت أكثر انتشاراً في ذلك العصر (٢٠).

مما سبق نلاحظ أن الحروب الإقطاعية كانت ذات تكاليف ونفقات باهظة فالملابس الحديدية مثلاً، والفارس الكريم الشجاع، والفارس القوي، والتابع الذي يساعده وبعض الخدم المرافقين للفارس، والطعام الكافي لتلك المجموعة وحيواناتهم، وجل هذا العبء يكون على الفارس، وأقله وكل فوائده للسيد الإقطاعي.

٣- طبقة الأقنان (الفلاحين)

القن: هو الفلاح الذي يعيش على قطعة الأرض التي منحها إياه سيده، وهو مربوط بأرضه ولم يستطع الانتقال عنها وليس له الحرية في الزواج من خارج الدومين إلا بإذن سيده، وإذا تزوج أو جاءه مولود، أو مات له ميت، فعليه أن يقوم بدفع مبالغ معينة من الأموال رمزاً لتبعيته، فالعلاقة هنا بين القن وسيده ذات شقين، لأنها في الواقع تبعية اقتصادية وعبودية شخصية معاً (٢١).

لقد كان الفلاحون في بداية الأمر يعملون في أرضهم ولحسابهم الخاص، ونظراً لازدياد الحروب وانعدام الاستقرار والأمن ولأسباب أخرى، جعلت ذلك المزارع، بأن يضع نفسه وأرضه وما يملك تحت رحمة سيد إقطاعي، ليضمن لقمة عيشه وأمنه وسلامته، فتلك الفئة التجأت للفرسان المحاربين، أو لرجال الدين لحمايتهم، وتلك هي أدنى طبقات المجتمع الإقطاعي وكان ملقى عليها العبء الأكبر من الصفات من متطلبات هذا المجتمع وأسياده.

ومن أهم الأعمال التي يقوم بها الفلاح للدومين هو أن يقوم بحرث أرض سيده، بمحراثه وثيرانه، ويعزق له الأرض، ويغطي البذور، وينقل المحاصيل، وأن يقيم الأسوار، ويعمل على صيانة السدود والقنوات والخنادق، ورعي الأغنام والمحافظة

(٢٠) المرجع السابق: ص ٩٠.

(٢١) محمود سعيد عمران: المرجع السابق: ص ٦٣.

عليها وجز صوفها ويقوم السيد الإقطاعي باستدعاء أهل القرية أيام جني المحصول، ويقدم لهم وجبات الطعام، وهكذا نلاحظ أن الدومين والسيد الإقطاعي يعيشون على خدمات تلك الطبقة من الأقنان الفلاحين، فعمله ينمو، ورزقه يزيد، من قوى وجهد القرويين والفلاحين (٢٢).

لقد فرضت طبيعة نظام الضيعة الإقطاعية روح التعاون على فلاحيها، خاصة أيام الحرث والحصاد، لأن الفلاح الواحد لم تكن لديه الإمكانيات المادية التي تمكنه من العمل بمفرده في موسمي الحرث والحصاد.

علاقة السيد الإقطاعي مع الأقنان (الفلاحين):-

وحيث إننا بصدد الحديث عن تلك الطبقة الثالثة (المهانة والمرهقة) فواجب علينا أن ندرس العلاقة، والالتزامات والواجبات الملقاة على عاتق تلك الطبقة تجاه أسيادهم، وكانت ترتكز على ثلاثة مواضيع تتمثل في الخدمات والمكوس (الضرائب) والاحتكارات).

أ- الخدمات:

وفيها يتم تسخير الأقنان في فلاحة مزرعة سيدهم الإقطاعي فيقومون بحرثها وتسويتها، وبذرها وإروائها، ويتم تجهيزها بالكامل لتصبح جاهزة لإنتاج النوع المطلوب من الزراعة، ويعمل الفلاحون على الخدمة الأسبوعية لهذه الأرض، وحيث المتابعة الأسبوعية المستمرة حتى يصل المحصول لموسم الجني الحصاد.

ويوجد نوع آخر من السخرة هو السخرة الفصلية أو الموسمية، وهي الدور الذي يقوم به الفلاح بخدمته لأرض سيده الإقطاعي في مواسم جمع المحصول وحصاده، وهي تبدأ بنهاية الخدمة (السخرة الأسبوعية)، وقد أدى ذلك إلى ثورة الفلاحين في

(٢٢) كوبلاند وفنيو جرادوف: المرجع السابق: ص ١١١-١١٤.

معظم الدول الأوروبية وسبب تلك الثورة هي أن الفلاحين كانوا في تلك الفترة بأمس الحاجة لجني وحصاد لمحصولهم الذاتي، فيذهبون لجني محصول سيدهم، تاركين محاصيلهم للخراب، وفوات الأوان في جلبها، وقد زالت هذه الخدمة حينما أخذ الفلاحون في دفع ثمن نقدي لإعفائهم من هذه الخدمة، وكذلك فرض السيد الإقطاعي على أقنانه سخرة من نوع آخر، فيقوم بتكليفهم بإنشاء طريق، أو حفر خندق، أو إصلاح وترميم جسر وخلاف ذلك من الأعمال الشاقة والصعبة (٢٣).

ومن أنواع الخدمات الأخرى الأجور (**Rents**) وهي تتضمن جميع الحقوق التي تتصل بالأرض وعلى الفلاح أن يؤديها، وقد كشفت الوثائق والسجلات التاريخية في العصور الوسطى عن بعض تلك الحقوق، التي فرضت على الفلاحين، فقد أُعطي لكل فدان قسم من الخدمات اللازمة، والمطلوبة للهيئات المختلفة. فمثلاً: طُلب من الفلاح أن يدفع نقوداً عن فدان ما، وغلة عن فدان آخر، وبقيمة غلة فدان آخر يتم ترميم دير معين، وهكذا تؤدّى هذه الحقوق بين النقد والعين، فبقيت هذه الأجور كحمل ثقيل أرهق كاهل الفلاح لفترة طويلة من الزمن (٢٤).

وتوجد خدمة أخرى، وهي من الأسس الرئيسة التي قام عليها النظام الإقطاعي وهي الخدمة العسكرية حيث يلبي الفلاح مطالب سيده الإقطاعي لمساعدته والقتال في صفه، وتقديم المساعدات المالية لتلك الحملات العسكرية وبجانب ذلك، توجد خدمات كثيرة أخرى لم يتسع المجال هنا لذكرها يجب على الفلاح أن يؤديها.

ب- المكوس والضرائب :

كثيرة ومتعددة تلك الضرائب والمكوس التي فرضها السيد الإقطاعي على فلاحيه

(٢٣) نفس المرجع: ص ٤٩ .

(٢٤) نفس المرجع: ص ٤٨ .

وأقنانه، فمنها مثلاً ضريبة العشر وهي ضريبة فرضت على الفلاح لدفعها على ما تنتجه أرضه من محاصيل زراعية مختلفة، ويدفعها - أيضاً - من ماشيته، وبالإضافة لضريبة الماشية اشتقت ضريبة أخرى على مشتقات إنتاج الماشية، وسميت ضريبة الجبن، يدفعها الأقنان مقابل رعي ماشيتهم في مراعي سيدهم، وتدفع ضريبة الأسماك مقابل السماح لهم بالصيد في نهر أو بركة خاصة لسيدهم الإقطاعي، كذلك ضريبة الفحم تُرسل للدير فيرسلون عدة أقفاص من الفحم من كل مجموعة معينة من الفحم، وتوجد ضريبة الرأس يدفعها القن سنوياً عيناً أو نقداً، ورغم بساطتها إلا أنها تبقى رمزاً للعبودية والإهانة للفلاحين ويقوم السيد بدفع هذه الضريبة إلى الحكومة، أما ضريبة الميراث فهي تفرض على أبناء وورثة القن في حالة وفاته، وكانت تقرر في أغلب الأحيان فرساً أو ثوراً، وبالإضافة إلى ذلك يرث السيد الإقطاعي جزءاً من تركة المتوفىً، ويأتي نوع آخر من ضرائب ورسوم الإهانة وهي ضريبة الولاية: وهي ضريبة شخصية تُفرض على الفلاح مقابل تبعيته للسيد اللورد، وكان الإقطاعيون يحددون تلك الرسوم في أوقات متباينة، مما جعل الفلاح يتذمر لعدم استعداده لدفع ذلك الرسم والذي لم يحسب حسابه، وقد أدى كل ذلك إلى سخط الفلاحين على سادتهم وثورتهم عليهم، وهذا يعتبر من عوامل انهيار الإقطاع أيضاً كانت عربة العشور، مألوفة بشق طريقها بين الحقول بقيادة العشارين لتحصيل نصيب السيد اللورد، وقد أثارت هذه الطريقة سخط واستياء الفلاحين، بأسلوبها التعسفي، ورغم أن العشر ليس بالصعب دفعه، ولكن طريقة وأسلوب جمع وأخذ العشر من الفلاحين بالطرق الاستفزازية والمهينة لكرامتهم (٢٥).

وثمة ضريبة أخرى هي ضريبة الوفاة، ففيها بعد وفاة القن مباشرة يستولي سيده على أجود ما تركه من حيوانات باعتبارها ملكاً غير موروث (٢٦).

---

(٢٥) نفس المرجع: ص ٤٨ - ٤٩.

(٢٦) كولتون (ج - ج) عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ترجمة: جوزيف نسيم يوسف: دار النهضة العربية: ص ١٢٢.

وتوجد أنواع أخرى من المكوس والضرائب، فعلى القن أن يدفع غرامة معينة إذا أرسل ابنه إلى المدرسة، أو إذا ألحقه بالكنيسة، ذلك لأن الضيعة سوف تخسر هذه القوة البشرية.

هذه نماذج مختلفة من أنواع المكوس والضرائب المتعددة، والتي فرضت على القن في تلك العصور المظلمة، والتي أدت إلى إجهاض القن وإرهاقه مادياً ومعنوياً، وكان لها الأثر الكبير في انهيار وسقوط الإقطاع الأوروبي آنذاك.

ج - الاحتكارات (Monopolies) :

لقد ألزم فلاح وقن العصور الوسطى، وأجبر على عدة احتكارات يجب عليه أن يؤديها لخدمة سيده الإقطاعي ومنها الطاحونة والمعصرة والفرن.

فعلى الفلاح حينما يجمع غلته وما تنتجه أرضه من الحبوب أن يذهب لطحنها في طاحونة سيده، ولو كانت تبعد عنه كثيراً أو قليلاً، وقد كان الطاحن من أبغض شخصيات المجتمع الإقطاعي لسوء معاملته للفلاحين، ويجب عليه أن يخبز خبزه في أفرانه، وأن يعصر نبيذه في معاصره، بعدت أم قربت، ويبيع محصوله بمقتضى موازين ومكاييل سيده، ومقابل كل ذلك يدفعون الأجر الاحتكاري المفروض عليهم له.

سواء كان هذا الأجر غلة أو نبيذاً أو خبزاً أو نقداً وقد سببت معاملة أولئك (الطحان والخباز والعصار) الكثير من المضايقات للفلاحين، فربما - كما سبق ذكره - تكون الطاحونة بعيدة فتزيد سفراً طويلاً مكلفاً ومتعباً، وقد سببت تلك الاحتكارات القلق والمتاعب والاستبداد للفلاحين، وقد أصبح الطحان أبغض شخصيات المجتمع الإقطاعي لسوء معاملته للفلاحين، ويوجد خلاف هذه الاحتكارات، كالبئر وخلافه ولكن اقتصرنا على ذكر الثلاثة السابقة، وفيها الأدلة الكافية لاحتقار واحتكار الفلاح والقن في العصور الوسطى من سيده الإقطاعي (٢٧).

(٢٧) كوبلاند وفنيو جرادوف: المرجع السابق: ص ٥١-٥٢ .

مما سبق نلاحظ أن حالة الفلاح في العصور الوسطى الإقطاعية، كانت صعبة وعصيبة، لكن ذلك لم يرجع إلى مجمل ما فرض عليه من خدمات، واحتكارات وضرائب. ولكن سبب ذلك يرجع إلى الأسلوب التعسفي في طلب وتنفيذ تلك الحقوق، فمثلاً الطريقة السيئة التي تمر بها عربة العشور، وأسلوبها في جلب تلك العشور، وأسلوب الطحان الذي أصبح أسوأ شخصية في مجتمع العصور الإقطاعية، وما إلى ذلك من الأساليب المهينة لكرامته والمنهكة لماديته، ورغم كل ذلك فقد رضي الفلاح بالمعيشة تحت سلطان تلك الحكومة المصغرة لسيده الإقطاعي.

والفلاح - أيضاً - كان معدوم الثقافة والمعلومات، ولم تتجاوز خبرته قريته أو القرية المجاورة، فتعاسته وإذلاله كانت مما امتاز به العصر الإقطاعي من سلبيات، والذي أرغمه على ذلك عدم توفر القوة التنفيذية لتطبيق القوانين، وبسبب قلة الأمن أو الغرامة، وجعل القضاء - في كل الأوقات والقضايا لصالح السيد الإقطاعي.

كان الفلاح أول من يتضرر من أزمات المجاعة، وأول من يُصاب بويلات الحروب، وشق عليه أن يستمر في أرضه وعمله حينما نشبت حرب المائة عام (١٣٣٧. ١٤٥٣م) وكانت جيوشها إقطاعية فذهب من تلك الويلات والحروب فاراً إلى الغابات، أو إلى إحدى المدن المسورة ليقيم فيها سنوات طويلة، فتلك النكبات والويلات حسب جام غضبها على الفلاح، وكلما ازدادت سلطة الحكام نمواً وقوة، وحلت الحكومة المركزية محل الإقطاع، والجيوش النظامية محل الجيوش الإقطاعية، وتوقفت حروب الإقطاعيين، أصبح بذلك الفلاح متمتعاً بحماية الدولة له، ويعيش في أمن نسبي وفي حياة أقل فوضى وأكثر هدوءاً.

٤- مكانة المرآة في المجتمع الإقطاعي:-

كان للمرأة في ذلك المجتمع مكانة ثانوية، فكان الرجل حينما يود الزواج يختار

زوجة ذات أملاك من الأراضي، ويطلب منها زوجها أن تضع له مولوداً ذكراً أو يفسخ الزواج.

وكانت المرأة تحت وصاية والدها ثم زوجها، أما الأرامل منهن فتكون تحت وصاية سيدها أو أكبر أبنائها.

وكان للكنيسة دور متناقض عن المرأة، فقد أعلنت أن المرأة لا تستحق إلا الاحتكار والمهانة نظراً لما قامت به من إغراء لسيدنا آدم عليه السلام، ومن الناحية الأخرى اعتبرتها الكنيسة ممثلة للسيدة مريم العذراء، وبهذا تكون المرأة جديرة بالاحترام والتقدير، من هنا نرى ازدواجية رأي الكنيسة في المرأة، وقد أيد بعض الإقطاعيين ضرب الرجل للمرأة إذا خالفته ووافقت الكنيسة ذلك الرأي (٢٨).

ورغم كل السلبيات التي تم ذكرها عن المرأة، إلا أن دورها في المجتمع والضيعة الإقطاعية كان كبيراً وعظيماً، وحيث أن نساء الإقطاعيين تمتعن بقسط وافر من الراحة واللهو، إلا أن الفلاحات كنّ على عكس ذلك، يشاركن أزواجهن لقمة العيش، فقامت في منزلها بتهيئة الطعام والشراب واللباس، وربت الأغنام وجزت صوفها ونسجته كملابس لأفراد الأسرة، وربت الدواجن والحيوانات، واستخرجت مشتقاتها وصنعت الجبن والزبدة، وساهمت في بناء الكوخ وقطع الأخشاب وجمع المحصول، وهكذا نلاحظ أنه كان للمرأة دور متباين ومتناقض في بعض الأحيان، وكان دورها مختلفاً فيما لو كانت زوجة للفلاح أو زوجة للإقطاعي أو عاملة بالكنيسة، وكل ذلك يؤدي لدور متكامل لها في المجتمع رغم صغره و محدوديته.

ولكن رغم تلك الأدوار التي كانت تقوم بها المرآة، إلا أنه يجب عليها أن تتهيأ لتحل محل زوجها، الذي ربما يذهب للاشتراك في إحدى الحروب أو يسافر في رحلة مع سيده الإقطاعي أو يموت، أو خلاف ذلك، فقد كانت المرآة ماهرة في كل الأحوال

(٢٨) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق: ص ٢٩٧-٢٩٨ .

في ذلك العصر، فكانت تعرف نظم القانون الإقطاعي، وزراعة المحاصيل، وإدارة الضيعة (٢٩).

رابعاً: خصائص النظام الإقطاعي الأوروبي:

من دراستنا السابقة للنظام الإقطاعي الأوربي، نلاحظ أنه يعتبر نظاماً عدوانياً، يحمل بين طياته المساوئ الكثيرة إلا أنه أيضاً له مميزات ومحاسن، ونحن هنا بصدد دراسة بعض محاسنه ومساوئه.

فمن أهم المميزات والمحاسن التي امتاز بها هذا النظام هو أنه كما يقول الأستاذ كوبلاند (وهو من مشاهير مؤرخي العصور الوسطى): "إن ذلك النظام الإقطاعي كان من عوامل الإستقرار في تلك العصور لأن الحروب الكثيرة والمستمرة في أوربا بين ذوي الأطماع والمغامرين، اصطلى بنارها الناس جميعاً" ذلك بسبب فقدان الإدارة المركزية، والدولة القوية المهابة الجانب فأصبح الناس في ضنك، وكل منهك يحاول أن يحمي نفسه بنفسه وإلا هلك في خضم ذلك المجتمع الفوضوي الذي لا يرحم القوي فيه الضعيف، وقد أدى ذلك إلى تخلي الضعفاء ولاسيما الذين يملكون أرضاً عن أرضهم إلى أولئك الأقوياء نظير حمايتهم لهم، ثم أُقطعت لهم من جديد (٣٠).

فتلاحظ من ذلك أن هذا النظام من حيث نشوؤه ارتبط بظروف القارة الأوربية الحربية، فهو نظام أوجدته الفوضى والحروب، وعدم الاستقرار، وضعف الحكومات المركزية.

ومن مميزات ذلك النظام هي حماية السيد الإقطاعي لإفصاله وأراضيهم، حيث أن هذا النظام قام على أساس العلاقة الشخصية بين السيد الإقطاعي

(٢٩) ج.كرامب.أ.جاكوب: تراث العصور الوسطى: جـ٢: مركز المرأة في العصور الوسطى: ترجمة: عبد الحميد حمدي: ص٥٨٨.

(٣٠) كوبلاند وفنيو جرادوف: المرجع السابق: ص٤.

وفصيله، فكان التعاون الحربي من الأسس والمبادئ الأولى لهذا النظام، وفي أوقات القحط والجفاف كان الاعتماد كلية على ما يوجد في مخازن حبوب السيد الإقطاعي، للقضاء على الجوع، ولم يكن في مصلحة الإقطاعي أن يدع رجاله وأفصاله، الذين يفلحون أرضه يموتون جوعاً، في الوقت الذي كان فيه الإنتاج يفيض ويودع ذلك الفائض بمخازن الإقطاعي لحين الحاجة، ومن ذلك يصبح السيد الإقطاعي أكثر هيمنة على أفراد قريته.

ومن ضمن العلاقة الحسنة بين السيد وفصله، بأن يتعهدا لفصل ألا يشن غارة على سيده، أو يفش سراً له، أو يعرض قصوره للخطر، أو يسيء إلى سلطته القضائية، أو شرفه أو أملاكه، أو يقيم عقبات تعرقل أعمال سيده، كما كان يجب على الفصل (التابع) أن يسدي النصح والمساعدة لسيده الإقطاعي ما أمكنه ذلك.

ومن إيجابيات ومميزات ذلك النظام أنه ونظراً لكثرة الحروب الخاصة والمستمرة، وما ينتج عنها من قتلى وأمراض وفساد، فقد اعتبر رجال الكنيسة أن ذلك دليل على غضب الله، لذلك ظهرت (هدنة الله) وفيها تكون الأيام من ليلة الجمعة إلى صباح الاثنين من كل أسبوع هدنة، وكانت تحرم التعرض بأي أذى لرجال الدين والفلاحين (ودعي الناس للقسم باحترامها) وتمنع إتلاف الأرض المزروعة أو سرقة الماشية (٣١)، وكان السيد الإقطاعي أقل تعسفاً مع أتباعه، مما كانت عليه الإمبراطورية مع أتباعها، وكان يدافع عنهم ضد ظلم وإجحاف الإمبراطورية إياهم.

كان أيضاً مبدأ الشورى، فقد كان يلتزم الفصل بالحضور إلى مقر سيده الإقطاعي على نفقته الخاصة إذا ما استدعاه لاستشارته في مصالحهم المشتركة، وكان مبدأ الشورى متوافقاً مع المنهج الإقطاعي، لكن في نهاية المطاف يكون الأمر للسيد الإقطاعي ومما كان يستشيرهم فيه مثلاً: في اختيار زوجة له أو لابنه، أو زوج

(٣١) نفس المرجع: ص ٨١-٨٢.

لابنته، ويستشيرهم قبل الإقدام على حرب أو المشاركة في حملة، وكان الفصل يستشير سيده في اختيار زوجة له أو زوج لابنته.

هذه بعض المحاسن والمميزات لهذا النظام، ولكنها بالإجمال محاسن هامشية، وليست ذات شأن بالنسبة للمساوئ.

والمساوئ لهذا النظام كثيرة جداً ففي كل خطوة إساءة وفي كل بند إساءة، فهو نظام إقطاعي سيئ السمات، فكل ما فيه سيئ، فإذا أمعنا النظر فيما كُتب عن الإقطاع الأوربي سواء فيما تم تسجيله على صفحات هذا البحث أو ما سجل في كتب التاريخ نجد ذلك يرجع إلى عدم وجود دولة متكاملة (كما هو في دول العصر الحديث) فكل قرية إقطاعية تعيش وكأنها دولة في حد ذاتها وكل قرية لها إقطاعيوها وسادتها، ولها قنها وفلاحوها وقوانينها، أيضاً لم يكن هناك أمة أو قومية أو جيش قومي، إذ تعدد اختلاطها فبعضها روماني والآخر بربري، وكل فئة من هذه الفئات نجدها تنطق بلغة تختلف عن الأخرى، فانعدام اللغة الواحدة أيضا" يؤدي إلى تفتت تلك التجمعات وتباعدها، وهذا كله يؤدي إلى الاختلاف في التقاليد والذات القومي والآداب العامة، في ذلك المجتمع أيضاً انعدام توفر رأس المال أو الثروة العامة بمفهومها اليوم، بل كانت الأغلبية تعيش في ظلال الفقر المالي والفقر العلمي، مما جعل ذلك المجتمع عرضة للويلات والنكبات والحروب والأمراض (٣٢).

وكان لذلك المجتمع الضارب في المحلية عادات وتقاليد ألفتها واطمأنت إليها عقول أهل الإقطاع، وإن بدت لنا غريبة، لقد كان ذلك المجتمع غريباً في أمور كثيرة، فمنها على سبيل المثال إذا وقعت جريمة فتظهر عدة تساؤلات منها: على من يقع التكليف بالقبض على المجرم؟! ومن يحاكمه إذا ألقي القبض عليه؟! وكيف يكون تنفيذ الحكم؟ فهذه أمور محيرة في هذا النظام.

---

(٣٢) نفس المرجع: ص ٢٥ .

ولو تطرقنا إلى المحاكم التي شكلها الإقطاعيون، لوجدنا أنه لكل إقطاعي محكمته الخاصة به، ومن مهام هذه المحكمة النظر في جميع القضايا المتعلقة بتوزيع أراضي السيد بين أتباعه، ويكون قاضيها الوحيد هو السيد الإقطاعي أو وكيله، ولا يمكن استئناف قرار المحكمة لأنه نهائي، ويكون بطبيعة الحال لصالح القاضي وهو السيد الإقطاعي.

ومن أعمالها الرئيسة الحصول على الضرائب والمكوس التي لم يدفعها الأقنان بالطرق العادية، وتوقيع العقوبات والغرامات على المذنبين وفيها حكم الإعدام، والشخص الذي يحكم عليه بالإعدام تؤول أملاكه وأراضيه لسيده الإقطاعي، ومن الغرامات التي تفرضها المحكمة الإقطاعية على الأقنان تزيد ثروته ونفوذه على أقنانه وفلاحيه.

من ذلك نلاحظ أنه في ظل الدولة الإقطاعية لا يوجد قانون عام، كما أن الحقوق بجميع أنواعها تكون للسيد، ولم يحصل التابع إلا على القدر اليسير من حقوقه، وفي قانون التشريع القضائي: "أن للبارون جميع الحقوق القضائية في إقطاعة ولا يستطيع الملك أن يعلن سلطته في هذا الإقطاعي بدون موافقة البارون، كما لا يستطيع البارون بدوره أن يفرض سلطانه على أرض تابع من أتباعه دون موافقة هذا التابع" (٣٣).

هذه مادة من مواد قانون التشريع القضائي للمحاكم الإقطاعية ومنها يكون البارون هو السيد في إقطاعه، فقد عمل الإقطاعيون نتيجة عجز السلطات المركزية على القيام بمهمة القضاء العام وفيه يمارسون أعمالاً منها العدالة، ومصادرة الرجال والممتلكات للأغراض الحربية، وفرض ضرائب على التجارة والنقل، وسك العملة (٣٤).

---

(٣٣) نفس المرجع: ص ٩٨.

(٣٤) بيار وآخرون: موسوعة تاريخ أوروبا: ترجمة: انطوان الهاشم: جـ١: ص ٢٧٥.

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان السيد يملك الأرض وأدوات الإنتاج، وينظر إلى عبيده نظرة السلعة فله الحق في بيعهم أو قتلهم، أو يستخدمهم كيفما يشاء، فيكلفهم بالأعمال الشاقة، ويسومهم سوء العذاب، ويقيدهم بالسلاسل، وكل هذه الامتهانات وغيرها، أدت بثورة عبيد الأرض كي يتخلصوا من هذا النظام الظالم والذي سمته العنف، في أوقات القحط كان الاعتماد الكلي على ما يوجد بمخازن السيد الإقطاعي للقضاء على الجوع، وتعويض النقص الذي يحصل لدى الفلاحين من الحبوب الغذائية، وكان من مصلحة السيد مد يد العون لفلاحيه، كي لا يموتون جوعاً، ورغم ذلك إلا أنه كان المتحكم الوحيد في أرزاقهم وحياتهم، وهذا أدى لتذمر الفلاحين من ذلك (٣٥).

كان المجتمع الإقطاعي في العصور الوسطى مجتمعاً محلياً غير قابل للحركة أو التطور، كالمجتمعات الحديثة وذلك لأسباب عديدة منها الصراع القائم بين العامة والأسياد وقوقعة الأسياد حول أنفسهم وأرضهم وعبيدهم.

وكان إثقال كاهل العبيد بالضرائب والمكوس، والواجبات الملزمة لهم والخدمات الإجبارية المطلوبة منهم على مدار السنة كالخدمات الأسبوعية والفصلية والعسكرية، والضرائب المختلفة كضريبة العشر والميراث والولاية والرأس والفحم، وعربة الأعشار التي كانت تمر بين العبيد بكل غطرسة وغرور، وتأخذ منهم الأعشار بكل صلف وتجبر، والطحان وما أدراك ما الطحان كان من الشخصيات السيئة في تلك العصور، فهذه الحياة الشاقة والمليئة بالمتاعب والآلام بما تحمل من ضرائب وأوامر وخدمات، واحتكارات والتي أثقلت كاهل عبيد الأرض في ذلك النظام، ومن الأمثلة الأخرى لذلك هي أن يقوم القن بدفع الغرامة لسيده الإقطاعي في سبيل الحصول على موافقته بزواج ابنته، وهذه من وسائل العبودية الواضحة من السيد لقنه، وأدت إلى التحكم المباشر للسيد على قنه.

(٣٥) مصطفى الهمشري: المرجع السابق: ص٢٩.

بعد ذلك يأتي: يمين الولاء (يمين الإخلاص)، ويعتبر يميناً تعاقدياً، فيه يركع التابع أمام سيده في حضرة حاشيته ويقول: "أقسم بأن أكون لك مخلصاً موالياً، إخلاص التابع وولائه لمتبوعه، وأتعهد بالقيام بذلك مادمت تابعاً لك، مقيماً على إقطاع من أرضك" ومقابل ذلك اليمين يُقلد السيد تابعه: علماً وعكازاً وشهادة تدل على إقطاعية الأرض الممنوحة له والتي تسمى إقطاعاً، وكذلك يوجد يمين ولاء للابن الذي يتولى الإقطاع بعد وفاة أبيه: "إنني أصبح تابعك يا سيدي وأنت ولي نعمتي عن إقطاع كذا وكذا، وإني أعدك بحمايتك والدفاع عنك في الحياة وحتى الموت (٣٦).

ومن أهم المساوئ هو واجب الخدمة العسكرية للأفصال في جيش سيدهم، وهذه أهم علاقة بين الطرفين، فحينما تنشب الحرب بين الملك وأعدائه، يتعهد السيد الإقطاعي بالاشتراك فوراً مع فرسانه في هذه الحرب، دونما قيد أو شرط، وكان التزام الفصل بالخدمة العسكرية من أهم مواد وبنود العقد الإقطاعي، وقد عانت أوربا الكثير من حروب النبلاء الإقطاعيين (٣٧).

خامساً: عوامل وأسباب انهيار الإقطاع الأوربي

لقد ظهر النظام الإقطاعي الأوربي في فترة زمنية غير آمنة للأوروبيين، ثم نما وترعرع ووصل إلى ذروته في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، وفي ذلك العصر حلت المسيحية محل الوثنية، والقبائل الجرمانية محل الإمبراطورية الرومانية القديمة، فعلى إثر هذه المتغيرات كان لزاماً على الناس بشكل عام أن يبحثوا عن مكان للاحتماء فيه، فالتجؤوا إلى السادة الإقطاعيين للنجاة من تلك الفوضى، وفي أواخر العصور الوسطى تحجر هذا النظام، وبدأ يضعف، ولقد تداخلت عوامل مختلفة وعديدة، في بعضها، أدت إلى انهيار وزوال هذا النظام الإقطاعي بطريقة بطيئة،

(٣٦) كوبلاند وفنيو جرادوف: المرجع السابق: ص ٦٤.
- جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق: ص ٩٨.
(٣٧) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق: جـ٢: ص٢٦٣-٢٦٤.

بعضها مباشر والآخر غير مباشر، وبعضها داخلي والآخر خارجي، سوف أقوم بذكرها في نقاط عديدة من أهمها :-

١- ضعف نفوذ رجال الإقطاع في أواخر العصور الوسطى:-

لقد احتكر رجال الإقطاع من السادة واللوردات الثروة لأنفسهم فترة طويلة من الزمن، وفي نفس الوقت وبخط متوازٍ كانت تزداد الثروة بيد الأمراء من مصادر أخرى خلاف الأرض وأخذوا بإستئجار مرتزقة للجيش، وهيمنوا عليه، وعملوا على تحطيم احتكار رجال الإقطاع على الثروة، وعجز الإقطاعيون عن مقارعة أولئك الأمراء، مما أدى في نهاية الأمر إلى ضعف الإقطاعيين، وصعود ونمو فئة الأمراء، وعمل ذلك إلى تدهور وضعف السادة الإقطاعيين، وضعف نظامهم، وتحركه نحو الانهيار، فأصبحت الثروة بيد الأمراء، فسيطروا على جيش قوي، واستخدموا موظفيهم للعمل في إداراتهم المدنية، بذلك سيطروا على مجريات الأمور العسكرية، والمدنية، فتخلف الإقطاع وبدأ بطريقة بطيئة بالضعف والانهيار كما حدث في انجلترا وفرنسا.

٢- زوال الإقطاع في كل من إنجلترا وفرنسا:-

لدراسة الطريقة البطيئة التي زال بها الإقطاع في هذين القطرين الرئيسين نأخذ كل قطر على حده:

أ- إنجلترا:

تحرك الملك هنري (١١٤٥ - ١١٨٩ م) نحو تقوية الملكية، على حساب الإقطاعيين، فمن الأعمال التي قام بها من أجل ذلك، أنشأ محاكم خاصة كي يتقاضى فيها أصحاب المنازعات ليصرفهم عن المحاكم الإقطاعية، وأرسل جباته وقضاته يطوفون بالأقاليم لجباية الضرائب، وأحل موظفيه الإداريين مكان الإقطاعيين، وأخذ بتقوية حكومته

المركزية بإقصائه الأشراف عن حكم الولايات حالاً رجاله مكانهم، واتخذ قوانين صارمة بعقاب المخالفين لإجراءاته، ونتيجة لتلك الإجراءات زاد دخل الملك، كل ذلك أدى إلى تقلص النظام الإقطاعي، وتحرك على نفس النهج ملوك إنجلترا الذين تبعوه، فعملوا على إضعاف سلطات الإقطاعيين وإحالتها إلى سلطات الحكومة المركزية وعلى صعيد آخر بنى جيشاً يتكون من المرتزقة والتي تعمل في خدمة الملك، مقدماً لهم أجورهم من خزينة الدولة، والتي كانت تأتي أموالها من الضرائب المفروضة على جميع طبقات المجتمع آنذاك، والتي كانت قبل ذلك مقتصرة على الضرائب التي يدفعها التابع لسيده (٣٨).

ثم تكون البرلمان الإنجليزي الذي يتألف من شقين: مجلس اللوردات (يتكون من البارونات) ومجلس العموم (ويتكون من العمال وباقي طبقات الشعب) والمعروف أن طبقة اللوردات هم أصحاب الأملاك التي تمتاز بالتقاليد القديمة، وتحافظ على الإقطاع.

ب - فرنسا:

كانت الإقطاعية الفرنسية قوية جداً، وتم الحفاظ على ذلك النظام حتى قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩م، وفيما بين العصر الإقطاعي وقيام الثورة الفرنسية استمر النظام الإقطاعي.

فقد عمل ملوك كابيه في فرنسا في فترة حكمهم (١١٠٠ - ١٢٢٣م) كملوك إقطاعيين، فقد فقَد أولئك الملوك كل سلطاتهم، سوى الهيبة التي بذلتها الكنيسة، حيث أدركت الكنيسة أن الحياة لن تستقيم إلا في ظل القانون والنظام، إلا أنهم ظلوا مستمرين في زيادة إقطاعاتهم حيث ظهرت قرب باريس تسع قوى ملكية تخص آل كابي، وبدأ استصلاح الأراضي، ومع ظهور المدن نمت التجارة، وبدأ الاقتصاد

(٣٨) السيد الباز العريني: تاريخ اوروبا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية: ص ٥٠٣ - ٥٠٤.

النقدي بالظهور فأصبحت تجبي الضرائب نقداً ، وامتدت إقطاعات فرنسا بيد الدوقات من الملوك الكابتيون ، وفي عهد الملك فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤م) جعل عدداً من المحاسبين والمحامين ، الذين ينتمون إلى الطبقة الإقطاعية يشرفون على حكومته ، أيضاً في عهد لويس الحادي عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣م) استمروا على الإشراف على الحكومة ، وأمدوا ملوك فرنسا في تلك الفترة الزمنية بالأموال اللازمة لاستمرار وبناء الدولة (٣٩).

واستعان ملوك فرنسا برجال القانون الذين ساندوا القوة المركزية وقضوا على النفوذ الإقطاعي ، وأخيراً استبدلت فرنسا كمملكة بعد صراع عنيف دار بين ملوكها المتعاقبين ، أصبحت فيه السيطرة للملوك ، وأخيراً استطاع الملك من انتزاع ولاء كافة الإقطاعيين بصفته ملكاً لا بصفته كبيراً للإقطاعيين ، وهكذا قويت سلطة الحكومة المركزية الفرنسية ممثلة بالملك (٤٠).

٣- انتعاش التجارة وظهور طبقة التجار:

أخذت التجارة في الانتعاش في نهاية العصور الوسطى ، عما كانت عليه في بدايتها ، حيث كانت في أضيق الحدود ، وكان من أهم أسباب انتعاشها : الاحتكاك المباشر بين أوروبا والشرق الأقصى ، وبين أوروبا والعالم الإسلامي إبان فترة الحروب الصيلبية ، لاحتياج كلا الطرفين لمنتجات الطرف الآخر ، فزاد ذلك من النشاط التجاري ، وزيادة حركة النقل ، مما أدى للرواج والانتعاش التجاري ، وقد نتج عن تلك الحركة التجارية والاستقرار الأمني زيادة عدد السكان ونمو المدن وفقدان القرى ، والإقطاع لمكانتها السابقة فهجرها الفلاحون. ومن ذلك ضعفت مكانة السيد الإقطاعي ، وفقد نفوذه ، فنشطت الطبقة المتوسطة (طبقة التجار والصناع والفلاحين) حيث كانوا تحت سيطرة

---

(٣٩) السيد الباز العريني: المرجع السابق: ص ٥٢٩ .

(٤٠) محمود سعيد عمران: المرجع السابق: ص ٧٨ .

الإقطاعيين، وتحركت هذه الطبقة نحو الاستقلالية والأفضلية والتفت حول السلطة المركزية، فأخذ النجم الإقطاعي بالخبو والأفول، وتمردت هذه الطبقة الجديدة على النظم الإقطاعية وضرائبها المتعددة، فتحالفت مع الملك من أجل تأمين خطوط نقل تجارتها داخل وخارج المدن، وأخذت تمد الملك بالأموال لتأييد سلطته وتقوية نفوذه، وسيطرته الكاملة على الدولة المركزية فكان لها الدور الرئيس في زوال الإقطاع وأفول الإقطاعيين (٤١).

٤- تطور أساليب القتال وزوال عصر الفروسية في نهاية العصور الوسطى

في الوقت الذي بدأت فيه الحكومات الملكية المركزية في تثبيت سيطرتها على أمور الدولة، وحلت محل الإقطاعات والمحليات، أخذت على عاتقها بدفع أجور القوات العسكرية، وذلك بعد تدفق الأموال عليها من التجارة، والضرائب التي فرضت على عموم السكان، فقامت تلك الدول بتطوير قوات المشاة، وتزويدهم بالرماح والأقواس والسهام، والنبال التي كانت تنفذ داخل دروع فرسان العصور الوسطى الإقطاعية، ثم تطورت على شكل الأسلحة كالمدفع والبندقية والبارود وبتلك الوسائل العسكرية المتطورة والمخترعات الحديثة قوي الجيش الملكي، الذي أصبح قوام الحكومة المركزية وأخذ يحاصر فرسان الإقطاع في استحكاماتهم وقلاعهم وقضى عليهم بطرق مختلفة منها المواجهة والحصار، وهكذا تمكنت الحكومات المركزية من ضرب الفروسية الإقطاعية والأشراف والقضاء عليهم في حصونهم وقلاعهم، التي لم تستطع المقاومة، وأصبحت القلعة مجرد قصر وسكن للإقامة. من ذلك نلاحظ أن الفروسية قد بدأت في الزوال والانتهاء، فبدأ الفارس يفقد مكانته العسكرية والاجتماعية والسياسية، وبالرغم من كل ما أصيبت به الطبقة الارستقراطية إلا أنها تتباهى بتقاليدها وأصولها وفروسيتها، إلا أن الواقع

(٤١) محمود سعيد عمران: المرجع السابق: ص ٧٧ .

يدلنا على انتهاء وزوال الفروسية بقلاعها ودروعها وعظمتها، وحلت محلها الجيوش الحديثة ذات الأسلحة النارية، وهكذا تم كسر العمود الفقري للإقطاع الا وهو الفروسية والفرسان.(٤٢).

٥- الحروب الصليبية:

الحروب الصليبية هي حملات شنها المسيحيون الأوروبيون على العالم الإسلامي استمرت فيما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر، من أهدافها الاستيلاء على بيت المقدس من المسلمين، وإيقاف مد الانتصارات الإسلامية بجانب حب المغامرة والأسفار، هذه الحروب والحملات التي قام بها اولئك الصليبيون ضد المسلمين أدت إلى نتائج سلبية وإيجابية ومن تلك النتائج: تكوين جيش أوروبي مسيحي مركزي قوي، عمل على القضاء على آخر مراكز الإقطاع، حيث انضم الأقنان والفرسان والإقطاعيون لتلك الجيوش آملين في توسيع نفوذهم، وفيها قتل العدد الكبير من هؤلاء الإقطاعيين فانكمشت الإقطاعية وضعفت قوتها.

واغتنم الفلاحون والأقنان هذه الفرصة فانضموا إلى جنودها حيث وجدوا منفذاً ومخلصاً لهم في عبودية الإقطاع، وبذلك قلت العمالة الإقطاعية، ومن نتائج هذه الحروب أيضاً انتعاش الحركة التجارية، وظهور الطبقة المتوسطة على حساب الطبقة الإقطاعية، كذلك نمو المدن وتطورها، مما فتح باباً أمام هجرة أقنان القرى إلى المدن، وأخذ كبار الإقطاعيين بتحرير أقنانهم بشروط خاصة، وعوضاً عنهم يقومون باستئجار عمالٍ من الأحرار لفلاحة أرضهم، فبدأ كل ينطلق صوب هدفه المنشود، وظهرت عملية إحياء الأرض البور، وزاد الإنتاج، وساعد كل ذلك على هدم النظام الإقطاعي تدريجياً وهكذا عملت الحروب الصليبية على سقوط وانهيار النظام الإقطاعي.

---

(٤٢) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق: ص ١٣٠-١٣١.

٦- الحروب الإقطاعية:

إن النزاع الدائم والمستمر والذي كان يؤدي إلى قيام الحروب بين أمراء الإقطاع أنفسهم وبين الأمراء والفلاحين أحياناً، كان من الأسباب التي أضعفت من شأنهم، لقد سادت الحروب الإقطاعية، وعجز الأفصال وسادتهم عن حفظ النظام وانتشرت الفوضى لفترة طويلة من الزمن، وكانت على حالتين:

أ - الحروب الإقطاعية الداخلية:

عمل النظام الإقطاعي على حماية السيد لفصله وكان الفصل يشترك في قوة فرسان سيده ونجد أن قيام النزاع المستمر بين السادة الإقطاعيين، وبين أفصالهم على الأرض، قيام حروب مستمرة وطاحنة بين أمراء الإقطاع أنفسهم.

كان من أهم نتائجها انهيار وسقوط ذلك النظام، ولم يكن هناك من السلام سوى القليل على مدى عصور التمهيد والنمو والإكمال للنظام الإقطاعي، لقد بذلت الكنيسة والملوك والبارونات كل ما لديهم من سلطة لمنع وإيقاف هذه الحروب، دون جدوى، فعمت الفوضى في تلك العصور، إلا أن الحروب بمعناها المألوف كانت نادرة الوقوع، وقد كانت معظمها على شكل مبارزات بين الفرسان، وتعتمد أيضاً على شن الغارات على أراضي إقطاعي آخر بقصد السلب والنهب وتلك الحروب التي تنشب بين الأفصال وأمراء الإقطاع ساعدت على زيادة الفرقة بين الأطراف المتقاتلة وقتل فيها العديد من الأفصال وسادتهم وساعدت على الانهيار البطيء لذلك النظام.

ب - الحروب بين المدن المتضامنة والإقطاعيين:

وهذا النوع من الحروب كان أشد من سابقتها، ومن أمثلة ذلك: ما قامت به مدينة ميلان الإيطالية لمحاربة، إمبراطورية الدولة الرومانية المقدسة (فردريك بارباروسا) وكان من نتائج تلك الحروب أن انتصرت مدينة ميلان، وأرغم الإمبراطور على تحقيق

مطالبها في نهاية الأمر.

ومن تلك الحروب أيضاً ما قامت به العصبية الهنسية (٤٣) من محاربة الإقطاعيين واللوردات، وأضعفت من قوتهم وتواجدهم وبانتصارها على الإقطاعيين حققت مطالبها، وأضعفت من التواجد الإقطاعي، مما أدى مع العوامل الأخرى في النهاية إلى تفكك ذلك النظام وانهياره.

٧- حرب المائة عام (١٣٣٧م - ١٤٥٣م) (٧٣٩هـ-٨٥٧هـ)

قامت هذه الحرب بين بريطانيا وفرنسا على فترات متقطعة، لمدة طويلة من الزمن، وسببها الرئيس هو امتعاض ملوك إنجلترا المتزايد من تقديم ولائهم لفرنسا، وسيطرة فرنسا على أجزاء كبيرة من إنجلترا فأدى قيام هذه الحرب إلى دخول عدد كبير من الإقطاعيين من الطرفين فيها، وتكونت جيوش مركزية قوية، ذات أسلحة نارية حديثة استخدمت في محاربة الإقطاعيين، ودك قلاعهم وحصونهم فأسهم ذلك في القضاء على الإقطاع وتدعيم النفوذ الملكي الفرنسي، وكان من ضحايا هذه الحرب العدد الكبير من الإقطاعيين، وأفصالهم، وأخذ النظام الإقطاعي في الضعف والاحتضار في كل من فرنسا وانجلترا.

وبسبب ذلك أيضاً فقدت الأرض قيمتها، وتدنت أسعار المنتجات الزراعية، وانخفضت موارد الإقطاعيين وازدادت ديونهم، وانتشرت الأوبئة وزادت عملية الهجرة من القرى الإقطاعية التي بدأت تزول إلى المدن التي بدأت تنشأ وتكبر، وفي

(٤٣) **العصبة الهنسية:** سميت بهذا الاسم نسبة إلى لفظ (Hansa) بمعنى اتحاد التجار و المحاربين وهي عبارة عن تحالف تجاري قوي بين المدن الممتدة من شمال بحر البلطيق من مدينة نوفجورود في روسيا حتى مدينة بروجر (بروج) في بلجيكا، مارست نفوذاً سياسياً بالإضافة لنفوذها الاقتصادي، وأنشأت قوة بحرية ضخمة لحماية تجارتها و محاربة الإقطاع، وقامت بدور حضاري في شمال أوروبا شقت القنوات والترع ورصفت الطرق، وبعد سقوط الإقطاع انحلت هذه العصبة لزوال الأسباب التي قامت من أجلها، (انظر سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى: جـ١: التاريخ السياسي: ص٥٩٢ - ٢٩٦).

نهاية هذه الحروب انتهجت الأمم المتحاربة نهجاً جديداً في الحياة، فإنجلترا حولت أنظارها إلى زيادة قوتها البحرية، وتوسيع تجارتها عبر البحار، وفرنسا التي أنهكتها الحرب استعادت قوتها تحت حكم كل من شارل السابع ولويس الحادي عشر فعملا على إبادة ما تبقى من النظام الإقطاعي، وإعادة الملكية المركزية من جديد، وهكذا نجد أن نهاية حرب المائة عام حولت المملكتين من النظام الاقطاعي إلى النظام المركزي الجديد. (٤٤).

٨- ظهور النقابات الحرفية في المدن:

في ظل تلك التطورات في القارة الأوروبية ظهرت النقابات المختلفة حيث كان لأصحاب كل مهنة أو حرفة نقابة خاصة بها، لها قوانينها ونظمها وأموالها، وكان لها نفوذ سياسي واقتصادي، ومن أمثلة تلك النقابات، نقابة الجزارين، والبائعين، والخبازين، والنساجين، والنجارين، والسائقين، والأطباء وخلافها، ومن مهام هذه النقابات رعاية مصالح أفرادها، وتنظيم شؤونهم تجارية وصناعية أو اقتصادية ومهنية، فأصبح هذا التنظيم النقابي يعمل ضد الإقطاع، وعمل على تنظيم شؤون المدينة أيضا" فقويت، وأصبحت مرهوبة الجانب، وأصبح الناس يطالبون بحقوقهم كاملة اقتصادية وسياسية ودستورية، وتذمر من ذلك النبلاء الإقطاعيون حيث التجأ أقنانهم وفلاحوهم إلى تلك النقابات، وظهر نظام الكومونات (٤٥) ووقف الجميع متحدين ضد النظام الإقطاعي والإقطاعيين مما أدى إلى ضعفهم ثم زوال نظامهم. (٤٦)

---

(٤٤) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق: ص ١٣٣ - محمد شفيق غربال (وآخرون): الموسوعة العربية الميسرة: جـ١: ص ٧٠٣.

(٤٥) **نظام الكومونات:** هو حكم محلي يقوم بين مجموعة من المدن وبين سكان مدينة واحدة، وهو مناقض للنظام الإقطاعي، وتستند ثرواتها على التجارة، عكس الإقطاع الذي يعتمد على الزراعة. - (أنظر السيد الباز العريني: المرجع السابق: ص ٥٤٠.

(٤٦) كرامب وجاكوب: تراث العصور الوسطى: جـ٢: ترجمة: محمد مصطفى زياده (وآخرون): ص ٦٢٦.

٩- أعباء الالتزامات المالية والمادية الملقاة على الفصل:

ألقت المكوس والضرائب الإقطاعية عبئاً كبيراً على كاهل الفصل، فقد كانت الضرائب ومنها ضريبة الحلوان مثلاً وهي تساوي أحياناً قيمة دخل الإقطاعي في عام كامل، وإن لم يستطع السيد جمع ذلك المبلغ لتسديد تلك الضريبة يقوم بجمعه من أفصاله على أن يقوم الفصل بتسديد ذلك فيما بعد، كذلك ضريبة الضيافة وضرائب أخرى متعددة ومتنوعة نقدية وعينية، تثقل كاهل الفصل.

وتؤثر على أوضاعه المالية والاجتماعية المنهارة أصلاً، وقد كانت الالتزامات الملقاة على الفصل من شقين:

أولهما: يشمل المعونة التي يفرضها السيد الإقطاعي على أفصاله كحق ثابت بمقتضى العرف والتقاليد.

وثانيهما: المعونة التي يطلب السيد من أفصاله أن يجاملوه بها دون أن يكون فيها شيء من الالتزام، وعلى كل فجميعها ضرائب وملزمة، أثقلت كاهل الأفصال وجعلتهم يتمردون على أسيادهم كلما سنحت لهم الفرصة، وعندما تطورت أساليب التجارة وازدهرت المدن بدأ الأفصال بالهجرة للمدينة تاركين قراهم الإقطاعية بلا خدمة.

١٠- نشأة المدن، وقيام الملكيات المركزية القومية:

نشأة المدن في العصور الوسطى ترجع لأسباب عديدة منها: إحياء حركة التجارة وظهور طبقة جديدة من التجار، وللعامل الجغرافي في أثره الإيجابي في إحياء وتطوير المدن، فالمدن البحرية مثل مدينة جنوه بإيطاليا استمدت أهميتها من موقعها التجاري على البحر، وبعض المدن الأخرى تتحكم بموقع استراتيجي إذ تتحكم في

بعض الطرق الرئيسة كمدينة بولونيا، وما إلى ذلك من أسباب، كاستتباب السلام، والأمن في أوروبا بعد قرون الضعف والفوضى (٤٧).

تكونت المدن الصناعية الكبرى، وأدى الازدهار التجاري والصناعي فيها إلى فقدان النظام الإقطاعي معظم ركائزه، إذ انتقل الفلاحون من القرية الزراعية إلى المدن الصناعية والتجارية، وبدأ الفلاح يستعيد نشاطه وحريته وحلت الملكيات المركزية والقومية محل الملكية الفردية للسيد الإقطاعي، والذي كان يبيح لنفسه كل شيء في حرية العمل والكسب بشتى الوسائل، كالربا، والغش، والرشوة والاحتكار، والاختلاس، والكذب وأكل عرق وجهد الفلاحين، وكل تلك كانت أموراً مشروعة في الإقطاع الأوروبي، والتي زادت بعدما نشأت الملكيات المركزية والقومية.

مما سبق نلاحظ أن كل هذه الأسباب كافية جداً لاندثار وسقوط النظام الإقطاعي الذي استقر في أوروبا لفترة طويلة من الزمن، واستغرق معظم فترة العصور الوسطى فاجتمعت تلك العوامل السابق ذكرها وغيرها على إضعاف وإسقاط ذلك النظام الذي بدأ بطيئاً وسقط بطيئاً، فتلك كانت النتيجة الطبيعية لزوال ذلك النظام.

يعتبر الإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى ظاهرة اجتماعية مر بها المجتمع الأوروبي، اختص بالفروسية، والسيادة الشخصية، والحروب الصليبية، والرهبنة، والديرية والبابوية، والكنيسة... ثم تقلص ودنا وانهار وسقط... كما بدأ ببطء شديد.

إن انقسام ذلك المجتمع إلى طبقات أفقية تتسع تدريجياً كلما نزلنا إلى أسفل، ووجود تلك الفوارق بين طبقاته المختلفة، وتسلط القوي فيه على الضعيف، والغني على الفقير، وانتشار الفوضى بين تلك الطبقات، كل ذلك أدى في نهاية الأمر إلى سقوط هذا النظام واندثاره.

---

(٤٧) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق: ص ٢٢٠ .

من كل ما سبق يتضح لنا أن نشأة وتطور الإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى، تختلف كلياً عما عليه الوضع في صدر الإسلام، كما سنورد الحديث عنه في الفصل الخامس، حيث المقارنة بين الإقطاعات الثلاثة والتي سبق بحثها.

الفصل الخامس

مقارنة بين الإقطاع النبوي

والإقطاعين الجاهلي والأوربي

الفصل الخامس

مقارنة بين الإقطاع النبوي والإقطاعين الجاهلي والأوربي

اولاً : مقارنة بين الإقطاعين النبوي والجاهلي.

ثانيـــاً : مقارنة بين أسباب قيام النظام الإقطاعي النبوي والأوربي.

ثالثـــاً : الإقطاع النبوي وأثره على الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام.

رابعـــاً : الإقطاع الأوربي وأثره على الحياة الاجتماعية في أوروبا.

خامساً : محاسن الإقطاع النبوي و مساوئ الإقطاع الأوربي (مقارنة بين الإقطاعين)

سادساً : الأسس والمواثيق التي تم بـها الإقـطاع في النظامين النبـوي والأوربي.

تمهيد

إن تلك الفترة الزمنية التي ظهرت فيها الرسالة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأجل التسليم كانت تتقاسم الأرض أربع امبراطوريات:-

الامبراطورية الرومانية في أوربا وطرف من آسيا وأفريقيا، والامبراطورية الفارسية، تمتد على قسم كبير من آسيا وأفريقيا، والامبراطورية الهندية والامبراطورية الصينية، وتكاد تكون كل من الامبراطوريتين الهندية والصينية مغلقتين على أنفسهما ومعزولتين عن العالم بمعتقداتهما، لتصبح الامبراطوريتين الرومانية والفارسية هما ذاتي الأثر الحقيقي في الحياة البشرية وتطوراتها (١).

يعتبر القرن السادس الميلادي، من أحط أدوار التاريخ الأوربي ومن أشدها ظلاماً ويأساً، ومن أكثرها سوءاً وجهالة، لقد كانت الظروف السائدة في العالم آنذاك ظروف حرب وتمزق، وقامت بين النظامين العالميين السائدين في ذلك الوقت (الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الساسانية) الحروب المستمرة، ذات الخسائر الكبيرة، وكان من نتائجها أن دبت الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مما زاد من تمزق الامبراطوريتين، لقد كان ذلك العصر عصر العصبية والحقد والحسد، وعدم التسامح، والحروب التي استمرت لأوائل القرن السابع الميلادي بين قارتي آسيا وأوربا، حيث افتقدت أوربا آنذاك للنواحي الأمنية والقانونية والنظام العام.

لقد كانت الإنسانية حينما حلت البعثة النبوية تعاني من الانتحار البشري، فقد نسي الإنسان خالقه، ونسي نفسه، وفقد صوابه، وأصبح غير قادر على التمييز بين الخير والشر، وكان الناس مشغولين عن الدين والدنيا، وبذلك فقدوا كل ما يسعد الإنسان ويخدمه، فقدوا إصلاح ذاتهم، هذا هو الحال التي وصلت إليها الإنسانية، صدق الله العظيم بقوله ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ

---

(١) سيد قطب - ظلال القرآن: جـ٥: ص ٣١٤٢.

لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢).

وهكذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تظهر شمس الإسلام، ونور التوحيد كي تبدد الظلام، وتملأ الدنيا نوراً وهداية.

وأما بالنسبة للعرب آنذاك فقد صور القرآن الكريم حالهم ووصفهم في قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٣).

ويقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، أنها نزلت بشأن الأوس والخزرج حيث إن رجلاً من اليهود ساءه اتفاقهم وألفتهم فذكرهم بيوم بُعاث، وأخذ يحرك فيهم حمية الجاهلية، حتى غضبوا وحملوا أسلحتهم، وتواعدوا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم فجعل يهدّئ من أمرهم ويقول لهم (أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم) (٤) ثم اصطلحوا وتعانقوا وألقوا سلاحهم). (٥)

هكذا كان وضع العرب قبل الإسلام، أعداء متفرقين، متحاربين، في أسوأ حال من الانحطاط الخلقي والاجتماعي والاقتصادي، والاستهتار والظلم وتعسف الحكام وزعماء القبائل، حيث قوانينهم الوضعية الجائرة بحق الإنسان، استمر الوضع العالمي في غربه الأوربي، وشرقه العربي والفارسي على هذه الحال من الاقتتال والتمزق والانحطاط الشامل، حتى أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ برسالة الإسلام التي هي آخر رسالات السماء إلى الأرض، كما أن محمداً ﷺ هو آخر رسل الله إلى الخلق برسالته، فتحولت الأرض في مشارقها ومغاربها من الخراب

---

(٢) سورة الروم: آية رقم (٤١).

(٣) سورة آل عمران: آية رقم (١٠٣).

(٤) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم - جـ١. ص ٤١٨.

(٥) ابن كثير: تفسير العلي القدير: محمد نسيب الرفاعي: جـ١: ص٢٩٧.

إلى البناء، ومن الظلم والظلام إلى العدل والنور، فانتعشت القلوب بالإيمان، وفاقت الإنسانية واستيقظت بعد ذلك إلى النور الرباني، والهداية السماوية.

مما سبق اتضح لنا ما كانت عليه تلك الأمم والشعوب من الظلم، وضياع الحقوق، والتمييز الواضح بين الغني والفقير، والعبد والسيد، والقوي والضعيف، وقسوة الأغنياء على الفقراء، وظلم الأقوياء للضعفاء، فحل بتلك الأمم ما حل من الفرقة والشتات، والتمزق والضياع وظلت في صراع مع نفسها، ومع غيرها إلى أن جاءت رسالة الإسلام العظيمة لتبين للناس الحق من الباطل والعدل من الجور، وتأمرنا بالوحدة وتنهانا عن الفرقة، وتنقل الأمم البشرية من جور وظلم الدنيا وحكامها إلى عدل الإسلام والتزام ولاة المسلمين بأحكامه الخيرة.

أولاً: مقارنة بين الإقطاعين النبوي والجاهلي:

عندما نتناول موضوع المقارنة بين الأنظمة الإقطاعية المختلفة التي كانت سائدة في العصور الوسطى، أي في فترة الرسالة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأجل التسليم، وهي الإقطاع الجاهلي، والإقطاع الإسلامي في العصر النبوي، والإقطاع الأوربي في العصور الوسطى، نبدأ بالإقطاع الجاهلي الذي كان سائداً بين القبائل، والمدن العربية في جزيرة العرب، قبل الرسالة النبوية، وهذا الإقطاع يعتبر بسيطاً ومحدوداً، بسبب التنقل المستمر للقبائل العربية، فتكون الأرض التي تطؤها أي قبيلة عربية حمىً خاصاً بشيخ القبيلة يغدق منها ما يشاء إلى أعوانه وأقربائه، بطريقته الخاصة، وكان في معظم الأحيان يحتفظ بالأرض كاملة لنفسه أو لخاصته، فمن المعروف أن العرب في عصرهم الجاهلي عاشوا قبائل متفرقة متناحرة، ومجتمعات متباينة فهناك المجتمع التجاري والزراعي، كما في مدن مكة والمدينة والحيرة، وهناك المجتمع الرعوي المتنقل خلف منابع المياه وتوفر الكلأ، وبذلك ألف العرب في جاهليتهم أنواعاً مختلفة من الأعمال والبيوع، والتي تهيئ لهم أرزاقاً

لحياتهم ومعيشتهم فمنهم من ألف الزراعة والتجارة، ومنهم ألف الصناعة والرعي، وأخذت أسواقهم تتقبل المنتجات الزراعية والصناعية والحيوانية وفيها يتبادلون منافعهم وأرزاقهم.

لقد تفرد زعماء القبائل بالحمى وهو في العرف الجاهلي الأرض التي تحمى من الناس فلا يرعى فيها إلا بموافقة من حماها (٦) وقيل إن أول حمى في الجاهلية كان (لكليب بن وائل)، فقد كان الحمى في الجاهلية عبارة عن مقاطع كبيرة من الأرض تضم قرى بها آبار وعيون للمياه، وقد أمنت هذه الإقطاعات بالحروب، وبذلك تكون نشأة الحمى من الحروب والغزوات، وهذا هو الإقطاع الجاهلي، وكان مبنياً على الاحتكار بواسطة الأقوى على احتكار الأرض، وظهرت في العصر الجاهلي الملكيات الكبيرة والتي يُستخدم فيها أعداد من الفلاحين الأحرار والعبيد، وكانت العلامات المحددة للحمى واضحة لكل قبيلة في أراضيها ومراعيها، ولا يجوز تجاوز ذلك الحمى وإلا كانت كارثة كبيرة تنتهي بالحروب الطاحنة بين قبيلتين أو أكثر (٧).

وكانت كل قبيلة تتطلع إلى أن تكون في يدها أخصب الأراضي وأغناها وكان السعي عن طريق القوة وهي الطريقة المألوفة آنذاك لتوسيع أملاك القبائل والاحتفاظ بالأراضي الغنية والخصبة.

لقد كره البدوي المتنقل الزراعة بسبب عدم توفر الأرض لأكثر الناس، وعدم توفر المياه لإصلاحها، فصار يكره كل شيء لا يملكه من زراعة أو صناعة أو حرف أخرى، وصارت الزراعة من أهل المدن، وأما سادات القبائل وشيوخها الذين توفرت لهم الأرض والمياه والمال فأصلحوا أراضيهم وزرعوها مثل أهل الحضر تماماً، واستعملوا عبيدهم لاستغلالها، ونظراً للظروف السياسية والاجتماعية المختلفة

---

(٦) جواد علي: المرجع السابق: جـ ٥: ص ٢٦٨.

(٧) نفس المرجع السابق: ص ٢٧٠.

التي كانت مهيمنة على المجتمع القبلي، فلم تزرع مساحات واسعة من الأرض بالحبوب والخضار والنخيل لعدم توفر المياه، وقلة الأمطار وعدم وجود الحكومات القوية التي تستطيع حماية حقوق المزارع وأرضه ومنتجاته. (٨)

كان الإحماء في الجاهلية يتخذه السادة لإبلهم، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك وقال ﷺ (أن لا حمى إلا لله ورسوله) (٩) وبذلك يصبح حمى المراعي لخيل المسلمين المجاهدين، وإبل الصدقة، من ناحية أخرى كان سيد القبيلة يقوم بتأجير الأرض التي استحوذ عليها بحكم منصبه بين قومه - إلى أناس غرباء أو إلى قبائل أخرى مقابل شروط معينة وخاصة يشترطها عليهم (صاحب الأرض) التي استقطعها لنفسه، فيستغل أولئك المستأجرين بموجب تلك الشروط، ويكونون عندئذٍ في حماية وتحت رحمة سيد القبيلة (سيد الأرض) وإذا ما استحسن عملهم واستفاد منهم، يقوم في نهاية الأمر بدمجهم في قبيلته، فينسبون إليها، ويعيشون بين أفرادها، علماً بأنهم غرباء، قد استبد سادات القبائل بالأرض والأمر، وتحكموا في رقاب الأرض، وأقطعوها فيما بينهم، وكان المستأجر يقوم بدفع مبلغ معين أو حصة معينة من الإنتاج إلى الملك أو سيد القبيلة أو لممثليه من العاملين، وكان ذلك يحصل في الإقطاع الأوربي أيضا".

لقد كان المجتمع الجاهلي ينقسم إلى قسمين رئيسين: بدو رُحل، وحضر مقيمين، فكان القسم الأول منهم يربون المواشي، ويرافقون القوافل التجارية ويرتحلون حيث يتوفر العشب ويوجد الماء الضروريان لهم ولبهائمهم.

وأما القسم الآخر وهم الحضر المستقرون في الواحات والمدن الرئيسة بمكة ويثرب والطائف، ويمارسون مهنتي التجارة والزراعة وكانت الحروب والخلافات والمنازعات دائمة ومستمرة في ذلك المجتمع الجاهلي.

---

(٨) نفس المرجع السابق: جـ ٧: ص ٢٧ - ٢٩.

(٩) أبو داود: مختصر سنن أبي داوود: اختصار مصطفى البغا: حديث رقم ٣٠٨٣ - ص ٤٤٤.

وما أن حل ﷺ بينهم حتى جمع شتاتهم، ووحد كلمتهم وكون منهم مجتمعاً إسلامياً جديداً، مترابطاً ناهضاً، واستفاد كل من الطرفين، فالبدو بشجاعتهم في الحروب ومعرفتهم بالدروب يمدون نواة الجيش الإسلامي بالمقاتلين، بينما الحضر الذين يمتازون بعلاقاتهم التجارية مع الأمم الأخرى كانوا يؤلفون القيادة الحكيمة التي تقود العمليات والسرايا، والغزوات العسكرية، فمن هاتين الفئتين تكونت نواة المجتمع الإسلامي في المدينة، ومن هنا ظهرت الأسس الأولى للدولة الإسلامية المترابطة في العقيدة الإسلامية والقيادة النبوية العظيمة، وما أن تكونت لبنات المجتمع الأولى بعد الهجرة حتى أخذ ﷺ يقطع القطائع في الأراضي البور، والمساكن والدور، وينظم المعاملات السليمة للأسواق والتجارة، وبدأت الدولة الجديدة تنطلق موحدة القوى والعزائم، فبفضل هذه الشخصية التاريخية العظيمة الجليلة المؤيدة من رب العالمين، استطاع ﷺ في فترة بسيطة وجيزة أن يبني المساجد والدور للاستقرار ويصلح الأرض للانتعاش الاقتصادي ويكون كتائب الجهاد، فبدت كأنها خلية إعمار وإصلاح وجهاد إن العلاقة بين محمد ﷺ وبين المسلمين، علاقة فريدة من نوعها عبر التاريخ، إنها علاقة أخلاقية كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٠)

أي إن تلك - علاقة رحمة وحب، فقد المهاجرون الكثير من الأموال والدماء والأولاد والزوجات، وتركوا عزهم وأمنهم ومالهم في مكة ليهاجروا مرتين إلى الحبشة ثم رافقوه إلى المدينة المنورة، تاركين كل ما يملكون.

أما الأنصار فقد تكلفوا الكثير، فقد عاهدوه ﷺ في العقبة الثانية على أن يحاربوا كل من يقف في طريق دعوته، مع أنهم كانوا قلة أمام قريش مكة ويهود المدينة، والقبائل المعادية، وعندما هاجروا إليهم شاركوهم أموالهم ودورهم.

(١٠) سورة آل عمران: آية رقم (١٥٩).

وقد تنازلوا للرسول ﷺ عن كل شيء حباً وطاعة، حتى أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١١)

إن ما حققه ﷺ، وقام به يكاد يكون غريباً في هذه الدنيا، لقد استطاع خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن أن يحدث ثورة خلقية، وروحية واجتماعية واقتصادية شاملة، لم يستطع أحد في التاريخ إنجاز مثل ذلك بتلك السرعة المذهلة، فقد أصبح المسلمون شعباً واحداً، وصفاً واحداً وقلباً واحداً، بعد اقتتالهم وتفرقهم ونفورهم في الجاهلية، فذلك الشعب البدائي، المتخلف وغير المستقر، أصبح في سنين قليلة حاملاً مشعل الهدى والحضارة، ظل العالم يستضيء به سنين طويلة.

هذا هو الرجل العظيم، النبي الأمي، الرسول الكريم، والذي سجل له التاريخ أعظم وأنصع صفحاته، لقد وصل إلى ما كان عليه يبتغيه عن طريق الإسلام، لقد لجأ إلى الناس وخاطبهم على قدر عقولهم لقد تحدث إلى الفرد وإلى الزعيم وإلى شيخ القبيلة تحدث إلى هؤلاء المتفرقين والمتنازعين، تحدث إليهم كل حسب علمه وعقله، إلى أن وصل بهم إلى ما يريد، فعند وفاته ﷺ ترك أمة قوية متماسكة مترابطة، قضى فيها على النزاعات العصبية والاقتتال والخرافات، فأقام ديناً واضحاً، قوياً وصرحاً خلقياً قوامه العزة والافتخار، واستطاع في عقد واحد تقريباً أن يرسل مائة غزوة وسرية، وكان من نتائجها توحيد جزيرة العرب أمة وشعباً وأرضاً، كلها تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

هذه هي الشخصية التاريخية العظيمة التي عاشت فترة زمنية بسيطة عملت كل شيء، وحققت كل ما تريد، إنها شخصيته ﷺ، إنها بكل المقاييس العالمية تعتبر

(١١) سورة الحشر: آية رقم (٩).

أعظم شخصية في التاريخ قام ﷺ، بإقطاع الأرض، وخلافها لما فيها من صالح للمقطع إليه وللدولة الناشئة ذات الأعباء الجديدة، وبذلك يكون الإسلام قد أوقف الحمى الخاص في الجاهلية بأن أصبح للجهاد والصدقة، فأصبح في حمى الإسلام المصلحة العامة للمسلمين، خاصة لفقرائهم ومجاهديهم.

لقد جاء الإسلام معجزة كبرى ونقلة عظمى في حياة العرب إذ استطاع في فترة زمنية بسيطة أن ينقلهم من أقوام متنافرين تمزقهم العصبية القبلية، وتبدل حياتهم من أباطيل الوثنية، وأخلاقها المنحلة، إلى مجتمع متماسك يشعر فيه المؤمنون بالعقيدة الواحدة، والأخوة والعدل والتسامح.

وعندما تم توحيد جزيرة العرب ودخلت شعوبها وقبائلها في دين الله أفواجاً انتقل ذلك النور إلى البلاد المجاورة والتي كانت تسيطر عليها امبراطوريتا الروم والفرس والتي كانت غارقة في التناحر السياسي والاقتصادي والإقطاعي والذي عم أوربا وفارس في ذلك الحين أيضاً، وبدأ يشع على تلك الأرجاء نور الإسلام، وعلينا أن نعرف أن الإقطاعات في الجاهلية كانت قليلة ومتناثرة بسبب تنقل القبائل المستمر من مكان لآخر، فلم يكن الإقطاع آنذاك بالواسع الانتشار ولكن عندما ساد الإسلام تلك المناطق القبلية، والمدن الرئيسة قضى بطريقة بسيطة وسهلة على الإقطاع الجاهلي، ،أبدله ﷺ بالإقطاع النبوي الذي فتح أبواب الرخاء والثراء لجميع من دخل الإسلام، لقد قام ﷺ بالتصدي لذلك التسلط القبلي الذي يمارسه القوي على الضعيف، فأصبح الحمى الجاهلي المحدود الفوائد حمىً إسلامياً يُحمى لخيل الجهاد وإبل الصدقة، وفقراء وضعفاء المسلمين بعكس ما كان في الجاهلية، وهكذا قضى الإسلام على حمى الجاهلية وتحجير الأرض والأموال.

مما سبق نخلص إلى أن الإقطاع الجاهلي كان لأفرادٍ أو جماعات (قبائل) وهو ما يُعرف بالحمى، والفائدة فيه كانت تعود للأفراد بعينهم، أو لفئات محدودة، فهي

مصلحة خاصة، ومحدودة الفوائد، ولكن بالنسبة للإقطاع النبوي، فالرسول ﷺ - كما سبق ذكره، في الفصل الثالث من هذا البحث - فقد أقطع الأرض - أيضاً - لأفراد ولجماعات (قبائل)، ولكن كان الغرض من هذا الإقطاع مصلحة المجتمع الإسلامي عامة، وهؤلاء خاصة، ومن أهمها استصلاح الأراضي البور حتى يعود إنتاجها بالخير سواء للأفراد أو للجماعات، أو للدولة عامة، ولذلك عكس (الحمى الجاهلي).

وكان - الإقطاع النبوي - من أجل الترغيب في الإسلام، وهذه من أكبر المكاسب للمسلمين وللمجتمع الإسلامي، وهكذا تحول الإقطاع الجاهلي إلى الإقطاع الإسلامي بطريقته الفذة ﷺ والآن ننتقل لدراسة المقارنة بين الإقطاعين النبوي والأوربي.

ثانياً: مقارنة بين أسباب قيام النظام الإقطاعي النبوي والأوربي

لقد واجهته ﷺ في بداية وصوله للمدينة يرافقه صحابته المهاجرون، صعوبات كثيرة من بينها عدم توفر السكن الملائم، حيث نزل بعضهم ببيوت الأنصار بقباء ثم ضرب ﷺ الخيام في صحن المسجد لتسكن فيها الوفود، وعمل على تشجيع البناء، ودعى بالبركة لمن باع عقاراً أو داراً (١٢).

كذلك واجهته صعوبات اقتصادية كبيرة تمثلت في ضرورة توفير الطعام الكافي للمهاجرين، حيث كانت تمر عليهم أوقات لم يكن طعامهم فيها سوى التمر والماء وخبز الشعير، وكان كل ذلك ابتلاء من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾(١٣) كذلك تدفقت القبائل المجاورة والبعيدة للمدينة للدخول في

(١٢) عبد الله بن ادريس: المرجع السابق: ص ١٠٥.

(١٣) سورة البقرة: آية رقم (١٥٥).

الإسلام، ولمواجهة ذلك التدفق ذكر - حينما قام وفد مزينة في السنة الخامسة للهجرة، وهو مكون من أربعمائة - أن النبي ﷺ جعل لهم الهجرة في دارهم، وقال: أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم فرجعوا إلى بلادهم (١٤)، كذلك كان العامل الديني - عامل التأليف على الإسلام - من أبرز العوامل، فقد رأى ﷺ، وبنظرة الثاقب أن يمنح بعض الإقطاعات لمن يرى في تأليف قلوبهم صلاحاً للإسلام والمسلمين، فقد صلح إسلام كثير منهم، وقاموا بأدوار كبيرة وعظيمة في الفتوح الإسلامية، كما حصل حينما أسلم بنو سليم وخرج منهم ألف في عام الفتح فيهم العباس بن مرداس، وراشد بن عبد ربه السلمي ومنهم من برز في العلوم الدينية مثل أبو رقية تميم الداري رضي الله عنه وخلافه من الصحابة. (١٥)

فوجد أن: عامل الاستثمار الاقتصادي، واستصلاح الأراضي البور (الموات) فيه نفع كبير للمسلمين، لما في ذلك من مصالح لعامة المسلمين وخاصتهم، وعمل ﷺ على مساعدة الفقراء المهاجرين، ومكافأة العاملين بالدعوة والجهاد، لإصلاح حال صحابته من المهاجرين الذين نزلوا بالمدينة فاقدين لكل شيء إلا إيمانهم العظيم بالله وصحبتهم لرسوله ﷺ، فأقطعهم الأراضي لاستصلاحها، ولما بها من فوائد اقتصادية عظيمة، وقد تحدثت عن تلك العوامل والأسباب في الفصل الثالث، (١٦).

ومن الأسباب التي أدت به لتشريع ذلك النظام هي تخفيف العسرة والمعاناة الاقتصادية التي عانى منها المهاجرون، فإقطاعهم الأراضي والدور خفف من تلك المعاناة إلى أن انتهت تماماً، وبذلك يؤدي إلى تأمين وضع المجتمع الجديد وإصلاحه وتماسكه، وكل ذلك - أيضاً - أدى إلى قيام المنافسة العادلة بين المهاجرين والأنصار لتحقيق الخير والرفاهية للمسلمين في موطنهم الجديد، تلك معظم العوامل

(١٤) عبد الله بن ادريس: المرجع السابق: ص ١٠٧.

(١٥) ابن كثير: البداية والنهاية: جـ٥: ص ٩٢.

(١٦) انظر البحث: ص ١٦٣ - ١٦٥.

والأسباب التي أدت لقيام النظام الإقطاعي الإسلامي (في العصر النبوي) - وتلك الأسباب كلها خير فكل ما قام به الرسول ﷺ فيما يخص الإقطاع كان عميم الخير والفائدة على جميع المسلمين وبناء مجتمعهم الجديد فتمكنت من القضاء على الفتن التي ما برحت تظهر فيما بين العرب أنفسهم والعرب مع اليهود ، الذين كانوا يوقدون الفتنة كلما وجدوا ذلك المجتمع ينعم بالأمن والاستقرار ، كان لتلك الأسباب الدور الأكبر في تأسيس الدولة الناشئة الآمنة المطمئنة.... التي أمنت داخلها وكونت كوادرها ، وبدأت في الانطلاق لنشر دعوتها ورسالتها.

أما الأسباب التي من أجلها قام النظام الإقطاعي الأوربي في العصور الوسطى ، فقد كانت مختلفة تماماً عن الأسباب التي ذكرناها لقيام النظام الإقطاعي الإسلامي ، فمن أهم تلك الأسباب الاضطرابات التي صاحبت انهيار الامبراطورية الرومانية ، والتي أدت بدورها إلى الأوضاع السياسية المتردية ، والأزمات الاقتصادية بين ذوي الأطماع والمغامرين ، اصطلى بنارها جميع الناس وذلك بسبب فقدان الإدارة المركزية والدولة القوية المهابة فأصبح الناس - كل منهم - يحمي نفسه بنفسه وإلا هلك في خضم ذلك المجتمع الفوضوي ، الذي لا يرحم القوي فيه الضعيف ، فأصبح الفرد والجماعة في حاجة ماسة للأمن ، وزادت تلك الحاجة حينما قام النزاع بين الامبراطورية الرومانية والغزاة الجرمانيين الجدد.

فأخذ الفلاح والقن يلجؤون إلى الإقطاعيين الذين ظهروا على أثر تلك النزاعات المختلفة وتكون منهم حكام إقليميون ذوي سلطات واسعة كي يحمي نفسه ويؤمن رزقه.

مما سبق نلاحظ أن ذلك النظام قد أوجدته: الفوضى ، والحروب المستمرة ، وعدم الاستقرار ، وضعف الحكومات المركزية ، على أثر ذلك ظهر الإقطاع الأوربي

بسلبياته التي ذكرناها، فقد كانت أسباب قيامه كلها سلبية، لكن معالجة هذه الأسباب وإن كانت قاصرة، أدت إلى إيجابية ليست ذات بال في هذا النظام الإقطاعي، فقد أمن الناس قليلاً على حياتهم، وطمأنهم بعض الشيء على معيشتهم، بعكس الإقطاع النبوي الذي كان دليلاً على الأمن والاستقرار والرفاهية والرخاء للمجتمع الإسلامي عامة في ظل عدل وسماحة الإسلام، وحمايته ورعايته ﷺ لكل من دخل الإسلام.

ثالثاً: الإقطاع النبوي وأثره على الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام

لقد مثلت حياة النبي ﷺ أعمالاً كثيرة ومتنوعة، شاملة وكاملة ذات منهج إسلامي رباني قويم، جامع للحياة الإنسانية بشتى أطوارها فهي قد جمعت بين الأخلاق العالية، والعادات الحسنة، والعواطف الإنسانية النبيلة.

إن الإسلام دين ودولة لم يقتصر على التشريعات الدينية وإنما أوجد مبادئ سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية شاملة، وقد تحدث عن ذلك مصدرا التشريع الأساسيين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن المعلوم أن نظام الحكم عند العرب قبل الإسلام كان قبلياً، حيث كان على رأس القبيلة شيخها الذي يسعى لمصلحته الشخصية أولاً، ثم مصلحة قبيلته، وكان المجتمع القبلي الجاهلي ينقسم إلى طبقات مختلفة: طبقة العرب الأحرار، وطبقة الموالي، والعبيد، والصعاليك (١٧)، وعندما حل النظام التشريعي الإسلامي، حكم ﷺ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكان حكمه عادلاً، لا يفرق بين القوي والضعيف، ولا الغني والفقير، فكل سواسية أمام التشريع الجديد، لقد كانت أعماله وأقواله ﷺ تدل على مساواته بين عامة المسلمين، وضرب المثل بنفسه وآل بيته فشاعت العدالة الاجتماعية، وانتشرت المبادئ الأخلاقية الإسلامية العظيمة بين أفراد المجتمع الإسلامي.

(١٧) انظر البحث: ص ٤٦، ٤٧.

فسار الناس على سنته واطمأنوا لخطواته المتتالية لتهذيب وتربية الأمة الإسلامية، وإصلاحها، وإزالة الفوارق الاجتماعية الجاهلية، بما فيها عصبية كانت تؤدي للحروب المستمرة، ذات النتائج المدمرة، فعاش الناس في أمن واستقرار في ظل مجتمع قويم يسوده القانون الاجتماعي الإلهي... في ظل القرآن الكريم... والسنة الشريفة.

لقد كان ﷺ معلماً للناس في كل أمورهم، رغم ما كان ملقى عليه من مهام جسام، فتربية الأمة وبناء المجتمع المسلم لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وضحها لأمته، هذه أخلاقه وصفاته، التي لم تكتمل في أحد من البشر سواه فهو الأمين والصادق والوفي والكريم والشجاع والزاهد والمحارب، والمتواضع والحكيم والفصيح والبليغ والعابد، لقد جاء رحمة للإنسانية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٨) وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٩) وفي قوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٠) وفي رواية للإمام أحمد يقول ﷺ: ﴿ إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق ﴾. (٢١)

وضع الإسلام أسساً قوية لبناء الأسرة المسلمة حتى يظل صرحاً شامخاً وقوياً، كي يعمل على تأسيس وبناء مجتمع إسلامي مثالي يكون جديراً بقيادة البشرية إلى مواطن السعادة والاستقرار، فكانت إقطاعاته ﷺ تحقق هذه المثل فتعمل على إسعاد الأسرة وترابطها، لقد بلغ المجتمع الإسلامي في المدينة غايته، ووصل إلى أرقى الدرجات الاجتماعية تماسكاً وتعاوناً وحباً، وأفاض ﷺ على ذلك المجتمع من علومه، وروحه، ومن إقطاعاته حتى صفت قلوبهم، واطمأنت وترابطت، وطابت

(١٨) سورة الأنبياء: آية رقم (١٠٧).

(١٩) سورة القلم: آية رقم (٤).

(٢٠) سورة المائدة: آية رقم (١٥).

(٢١) البخاري: الأدب المفرد: حديث رقم: ٢٧٦: ص ٩١.

أنفسهم، ، فأصبحوا كالجسد الواحد، في ترابطهم وتراحمهم، وفي تعاملهم مع بعضهم، وفي غاية الشدة مع الكفار والأعداء، وكل ذلك من أجل إعلاء كلمة الدين، وكلمة المسلمين، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢٢)

هذا هو المجتمع الإسلامي الذي أقطعه ﷺ أرضاً ودوراً وخلافهما لتستقر أوضاعه ويطمئن على دينه، لقد نشأ هذا المجتمع في ظل دولة إسلامية قوية يقودها ﷺ ، تسير على نهج الدين الإسلامي الحنيف، حيث يقول ﷺ: (لا فرق لعربي على عجمي إلا بالتقوى) (٢٣) فقد ألغى ﷺ فوارق الطبقات الجاهلية المبنية على اساس من الدم والجاه والشرف والمال، وأقام بدلاً من ذلك طبقة واحدة هي المؤمنون والمسلمون، الذين يتساوون ولا يتفاضلون إلا بالتقوى وإخلاصهم لعقيدتهم، فشاعت بذلك العدالة الاجتماعية والمساواة، وسقطت الفوارق، وعاش المسلمون الأوائل في ظل مجتمع فاضل مؤمن بالله وبرسوله تسوده العدالة والمحبة والوئام، هذه هي الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام، في عهده المبارك ﷺ .

رابعاً: الإقطاع الأوربي وأثره على الحياة الاجتماعية في أوربا:

اشتمل المجتمع الإقطاعي الأوربي على تنظيمات اقتصادية واجتماعية متباينة في الوقت الذي كان فيها المجتمع الأوربي يتكون من ثلاث طبقات رئيسة: طبقة الملوك ورجال الدين، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان وطبقة الفلاحين من الأقنان والأفصال والعبيد، ويمكننا إضافة طبقة أخرى ألا وهي المرأة.

---

(٢٢) سورة الفتح: آية رقم (٢٩).

(٢٣) ابن حنبل: مسند أحمد: جـ ٥: ص ٤١١ .

وتمثل الطبقتان الأولى والثانية الهيئة الحاكمة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً، فالبابا هو الحاكم الروحي، ويأتي بعده الكرادله والأساقفة ورؤساء الأديرة والرهبان فتلك المجموعة التي تلي البابا تكون رجال الدين والذين يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشبعوا حاجة الناس الروحية، وهم الذين يعيشون في ظل الكنيسة، وقد بدأ هؤلاء الرجال حياة بسيطة متواضعة، قوامها الصلاة والطهارة والبعد عن الدنيا وملذاتها، ثم انغمسوا شيئاً فشيئاً في الشؤون الدنيوية، فأصبحوا يمتلكون الإقطاعات الواسعة، وأصبحت أديرتهم تشرف على العديد من القرى والضياع الإقطاعية، وبالتدريج تحول رجال الدين إلى إقطاعيين.

وأخذوا في معاملة الفلاحين بخشونة وصلافة، ثم ابتدعت الكنيسة نظام الفروسية، فكان على الفارس أن يقوم بعمل قداس ديني معين قبل أن يصبح فارساً وكان البابا أربان الثاني (**Urban**) هو صاحب فكرة الفروسية، معتقداً بأن الفرسان هم جنود الله وجنود الكنيسة، وأن الحرب مع غير المسيحيين تعتبر من أهم الواجبات المفروضة على الفرسان، فالفارس الكامل لدى الكنيسة هو الجندي الذي يعيش في ظل نظام ديني مكرساً كل جهوده لقضية الكنيسة المقدسة.(٢٤)

لقد عملت الكنيسة على تطوير النظام الإقطاعي، لا سيما فيما يتعلق بالإقلال من الحروب والمنازعات بين السادة الإقطاعيين، ونادت بتحريم الحروب في أوقات معينة أطلق عليها "هدنة الله" فوضعت حداً للحروب المحلية لتجميع كلمة سادة أوربا الإقطاعيين نحو تجهيز الجيوش لمحاربة المسلمين في الشام والأندلس، فيما سمي "بالحروب الصليبية" فيما بعد (٢٥).

أما الامبراطور وهو الحاكم الزمني للإمبراطورية، والملوك الذين يتبعونه، ويدينون له بالطاعة والولاء نظير ما اكتسبوه منه من ممالك وإقطاعيات، فكان دوره

(٢٤) ديفز: تاريخ أوربا العصور الوسطى: ص ١٠٧ .

(٢٥) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق: جـ ٢: ص٢٧١ .

يعلو أحياناً ويدنو أحياناً أخرى، لأن البابا كان يقوم بدور كبير كي يقلل من صلاحيته، وكانت تنشأ نزاعات وخلافات وحروب بينهما.

أما طبقة النبلاء والفرسان المحاربين، فكانوا يحكمون ويحاربون، وهذه الطبقة اتخذت من الحرب صناعة لها، ونتيجة لما يقومون به من أعمال عسكرية، فقد ازداد نفوذهم وسلطانهم في المجتمع، فأصبحوا ملوكاً في دوائر إقطاعاتهم، ومن هذه الطبقة يأتي البارون الذي كان يهتم بالحروب أيضاً وهو أعلى فصل من أفصال السيد يؤدي قسماً إقطاعياً خاصاً لسيده مباشرة على أن ينفذ كل ما يطلبه منه من خدمات، خصوصاً الحربية منها، ويمثل أمام المحكمة الإقطاعية التي تنظر في قضايا الأتباع وكان يشترك بحملة صليبية تحت راية سيده، أو مبارزة قضائية لإثبات براءته من تهمة الخيانة أو الإجرام، أو دخول في حلف إقطاعي ضد الملك أو الإمبراطور، أو يقوم بمساعدة الكنيسة في إخماد بعض الحركات الدينية المناهضة لها، وبعد أن هدأت الحروب الإقطاعية والصليبية التي كان يقوم بدور بارز فيها، أصبح وضعه ضعيفاً في ذلك المجتمع. (٢٦)

ثم طبقة الأقنان هذه الطبقة التي تؤلف غالبية المجتمع الإقطاعي آنذاك، تمثل جموع الكادحين المغلوبين على أمرهم، والمحرومين من النفوذ والثروة إلا أن ذلك المجتمع قد اعتمد كلياً على هذه الطبقة من حيث الطعام والشراب واللباس، ومن المعروف أن الزراعة كانت قوام ذلك المجتمع، فهذه الطبقة أحط عناصر المجتمع قدراً وقيمة. (٢٧) ولو نظرنا إلى معيشتهم، لوجدناهم يعيشون في أكواخ من جذوع الأشجار، غُطيت سقوفها بالطين والقش، وكانت قذرة وغير صحية، ولم يتمكن من إضاءتها، حيث إن الإضاءة اقتصرت على الكنيسة، وضيعة السيد الإقطاعي آنذاك، لقد كان الفلاح يعيش عيشة صعبة وسيئة، يعاني من الأمراض والأوبئة، وكل ذلك أدى

(٢٦) كوبلاند: المرجع السابق: ص ٣١-٣٤.

(٢٧) نفس المرجع السابق: ص ١٠.

به للحقد على طبقات المجتمع الأخرى، (٢٨) فهو يعيش على قطعة الأرض التي منحه إياها سيده فلا يملك حرية الانتقال عنها أو بيعها، ولا يحق له الزواج من خارج الدومين، إلا بإذن سيده، وإذا تزوج أو جاءه مولود، أو مات له أحد فعليه دفع مبالغ معينة، رمزاً لتبعيته، وكان يُباع ويُشترى، ويستبدل على أنه جزء من الدومين. (٢٩)

ولإكمال حلقة المجتمع الإقطاعي الأوربي، نتوجه للبحث في أمر امرأة العصور الوسطى، فإذا أراد الرجل أن يتزوج عليه أن يبحث عن زوجة تكون ذات أملاك من الأراضي، ويطلب منها أن تضع له مولوداً ذكراً أو يفسخ زواجه منها، وحينما يموت زوجها تصبح تحت وصاية ابنها الأكبر أو سيدها، أما العمل الذي تقوم به المرأة آنذاك، تعمل على تجهيز الطعام لزوجها، وغزل وصناعة الصوف لعمل الثياب لزوجها وأولادها، وتساعد زوجها في جلب المحاصيل الزراعية، أما عن علاقتها بالكنيسة، فكان دور الكنيسة مع المرأة متناقضاً، حيث أعلنت في بداية الأمر أن المرأة لا تستحق إلا الاحتقار والمهانة، لما قامت به من إغراء لسيدنا آدم، ثم اعتبرتها فاضلة باعتبار أنها ممثلة للسيدة مريم العذراء.

هذه طبقات ذلك المجتمع والتي كانت علاقتها مع بعضها آنذاك سيئة جداً خصوصاً الفلاحين الذين لا يملكون أية حقوق، أو امتيازات في عملهم، فأما الحكام ورجال الدين.... فكان لهم شيء، من هنا ظهرت العلاقات السيئة بين هذه الطبقات إن المجتمع الإقطاعي الأوربي كان يعيش سياسة عدوانية بين طبقاته.

فقد كان السيد الإقطاعي يحاول الإبقاء على جماعته الحربية متماسكة بأن يوجهها إلى بعض المغامرات للفوز بالغنائم، وكانت الحروب الأهلية تنشأ لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها هنا، تقوم بين فترة وأخرى، ومما سبق نلاحظ عدوانية ذلك المجتمع الذي تتسلط فيه الطبقة الحربية على عامة الشعب المكون من الفلاحين،

(٢٨) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق: جـ٢: ص٢٨٨.

(٢٩) كوبلاند: المرجع السابق: ص ٣٦-٣٧.

وهكذا نجد أن هذا النظام فقد مصداقيته، وبدأ ينتابه التمزق والاقتتال ثم الضعف والفتور فالسقوط والاندثار. (٣٠)

من دراستنا السابقة لعناصر المجتمع الإقطاعي الأوربي، والعلاقة التي ينتابها القلق والتفتت، والتي يسودها نوع من العلاقات الشخصية، بين القوي والضعيف، والسيد والفصل نجد أن ثوابت تلك العلاقة هي الناحية الزراعية والعسكرية، وكان ذلك المجتمع يعاني من ظلم الملوك والإقطاعيين واضطهادهم للفلاحين وجور الكنيسة، وطغيان رجال الدين، وكل ذلك أدى إلى تدهور العلاقة الاجتماعية بين عناصر ذلك المجتمع المحلي، والذي كان يعاني أصلاً من التدهور والفساد، ويعيش في ظلمات التعصب والجهل.

ذكرت أن هذا النظام نشأ كحل أو كإجراء لمواجهة الفوضى والأخطار التي واجهت أوربا في تلك العصور، وقد نجح هذا النظام إلى حد ما في مقاومة بعض الأخطار التي أحدقت بالشعوب والمجتمعات الأوربية آنذاك، وذلك بتهيئة الوسائل السلمية لحل المنازعات والخصومات، فقد حاول الجانب القضائي أن يمتص نقمة الفلاحين، حيث قامت محاكم السادة الإقطاعيين بتنفيذ القانون، ونجحت في تقرير العدالة بصورة ما في بعض المشاكل التي تقوم بين السيد وأفصاله، ورغم ما ذكر عن عدالة تلك المحاكم إلا أن النتيجة تكون في أغلب الأحيان لصالح السيد الإقطاعي، حيث يكون هو أو من ينوب عنه رئيساً لتلك المحكمة، لذلك زادت نقمة الفلاحين، وظل الفلاح راضياً بحكم سيده الإقطاعي، مع ما فيه من قسوة وعنف، وتعمد لإيذائه، وإضعاف شخصيته مع قلة دفاع السيد الإقطاعي عن مصالح الفلاح، إلا أن أشد ما نزل بالفلاح من ظلم كان يصدر عن وكلاء السيد الإقطاعي وحراسه علماً بأن وضعهم الاجتماعي لم يكن أفضل من الفلاح، (٣١) وتوسعت هوة

(٣٠) ديفز: المرجع السابق: ص ١٠٠-١٠١.

(٣١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق: جـ٢: ص٢٧٢.

الفرقة بين طبقات ذلك المجتمع، وزاد تنافرها.

هذه بعض النقاط الهامة في العلاقة الاجتماعية لعناصر ذلك المجتمع، والتي ظهرت كسلسلة طبقات مبتدئة من الملك والامبراطور حتى الفصل أو الفلاح، كان مجتمعاً ضارباً في الخلافات والمنازعات، متفتت الجوانب، غريباً في كل شيء في علاقاته في أعماله، وفي اقتصادياته.

خامساً: محاسن الإقطاع النبوي و مساوئ الإقطاع الأوربي (مقارنة بين الإقطاعين)

في الحقيقة قد يتشابه النظامان الإقطاعيان، شكلياً أو اسمياً، من حيث المنشأ، وهو أن أصل كليهما منحة من ولي الأمر ولقد امتاز الإقطاع النبوي بأنه نظام وتشريع ظهر بهذا الاسم لأول مرة في العصر النبوي، وبشكل بسيط، ولهدف إصلاحي عام، وجاء من قبل الحكومة المركزية القوية، التي يقودها ﷺ، ويوجهها دينياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وامتاز هذا الإقطاع بأنه منحة أقطعها ﷺ لأحد المسلمين، ولا يجوز استردادها منه وإعادتها إلا إذا لم ينفذ الشرط الوحيد الذي اشترط لكافة الإقطاعات في الأرض، وهو إصلاحها وإعمارها خلال ثلاث سنوات وإلا فيسترد الإقطاع لبيت مال المسلمين ويمنح لرجل آخر.

وأما الإقطاع الأوربي في العصور الوسطى فهو انقلاب السلطة وانتقال اختصاصات الحكومة المركزية العليا والتي ضعفت، ودب فيها الانهيار إلى إدارة السادة الإقطاعيين المحليين، وهم أصحاب الضياع الواسعة والنفوذ الفعلي في أقاليمهم، ونتيجة لذلك سقطت الدولة وانهارت، وفي العصر الإقطاعي لم يوجد ما يسمى بالدولة، وكان السادة الإقطاعيون يقطعون الأرض إلى أقنانهم وأفصالهم بشروط صعبة وشاقة، وإن لم يتم تنفيذها يسحب منهم الإقطاع، ويحاكمون في

محكمة إقطاعية يكون سيدهم هو رئيسها ، من هذين التعريفين نلاحظ تشابهما اسمياً وشكلياً ، من حيث المنشأ ففي الإسلام منح النبي ﷺ إقطاعات من الأراضي لنفر من صحابته ، وسار الخلفاء الراشدون على نهجه.

وكانت البداية الصحيحة لذلك النهج الاقتصادي الإسلامي الجديد ، والذي يجب أن تسير عليه الأمة الإسلامية طالما بقيت.

أما الإقطاع الأوربي فكان عبارة عن منحة من ملوك الفرنجة في العصرين الميروفنجي (٤٨١م - ٧٥١م) والكارولنجي (٧٥١م-٩٨٧م) وتحولت المنحة إلى إقطاع واعتبره هذا هو من أصول الإقطاع الأوربي ، علماً بأن جذوره كانت ضاربة قبل العصرين السابقَيْ الذكر.

ومما امتاز به الإقطاع النبوي الشمولية ، فبالإضافة لإقطاع الأراضي بنوعيها الموات والعامر ، فقد أقطع ﷺ الدور ، أما المراعي فقد حماها ﷺ لخيل الجهاد (ولعامة المسلمين) والمياه والأسواق أقطعها كإقطاع استغلال في بعض الأحيان ، ووضح ﷺ للمسلمين الطريقة الصحيحة للعمل بالسوق ، ونهى عن التسعير على البائعين ، والحكمة من ذلك هي حماية حقوقهم شريطة أن يلتزموا بما أمروا بالعمل به في السوق ، واتسمت إقطاعاته للدور بالتخطيط ، وكان يلاحظ من وضع تخطيط المدينة واختيار مكانها هو المراعاة التامة والضرورية لتوفير عناصر الحياة والحضارة من الماء والمرعى ، بشكل كاف حتى يمكن توفير أسس المعيشة فيها ، فقد كان أول ما خط ﷺ بالمدينة بعد الهجرة مباشرة مسجدها والذي اختير على أن يكون موقعه بوسط المدينة ، وقد أصبحت تلك الطريقة سنة متبعة عن تخطيط مدن الأمصار الإسلامية فيما بعد ، وانطلقت من ذلك حضارة إسلامية شاملة (٣٢)

---

(٣٢) عبد الله عبد العزيز بن ادريس: المرجع السابق: ص١٠٥.

أما الإقطاع الأوربي فقد كان مقتصراً على الأرض فقط، وكان السيد الإقطاعي يملك الأرض وما عليها من إنسان وحيوان ونبات، وخلاف ذلك وعن ذلك يقول المؤرخ الفرنسي جيرار: ((إن الأرض أساس المجتمع الإقطاعي الأوربي، فمن تملك أرضاً صار له الأحقية في السلطة والحكم)) (٣٣) ومن مساوئ ذلك النظام أن المراعي تعتبر ملكاً للسيد الإقطاعي الذي كان يأخذ الضرائب الخاصة برعي بهائم قنه في أرضه ومراعيه، وبذلك أصبحت حضارة أوربا آنذاك زراعية بحتة، رغم أنه لا توجد حضارة بالمعنى المعروف، وأن الإقطاع يرتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً.

ومن مميزات الإقطاع النبوي أنه ﷺ كما أقطع الأفراد من صحابته أقطع القبائل، وأقر لها ملكها، وعاهدها مبتدئاً بتلك القبائل التي سكنت ما بين المدينة وساحل البحر مثل جهينة وضمرة وغفار، حيث كانت ديارهم في طريق قريش في رحلتهم الصيفية إلى الشام ومصر، فأغلق عليهم هذه الطريق ثم عاهد ﷺ قبائل خزاعة وأسلم وغيرهما ممن سكنوا حول مكة ذلك من أجل تضييق الخناق على قريش وتجارتها، وبذلك يكون قد أقام علاقات ودية معهم حيث أقطعهم أرضهم، وكتب معهم العهود والمواثيق فأمن حدوده من القبائل وأضعف اقتصاد قريش، وحاصرها، وهكذا استطاع ﷺ أن يقر لهم أملاكهم ويعاهدهم أو يحيدهم حيث تألف معظمهم على الإسلام، وجمع كلمة المسلمين فيما بين الأفراد والقبائل ضد المشركين والمنافقين.

وعمل الفرنجة عكس ذلك حينما أقروا مبدأ تقسيم الملك بين أبناء الأسرة، حيث كان أكبر عوامل تفككهم وضعفهم، فقد أدى التقسيم، وتكراره أكثر من مرة بين أبناء الأسرة الحاكمة إلى الصراع الذي احتدم بينهم، كما حصل من تقسيم مؤسس الأسرة الميروفنجية الملك كلوفيس (٥١١ م) بين أبنائه الأربعة، تم تقسيمها في عام

(٣٣) كوبلاند: المرجع السابق: ص ٢١ .

(٥٦١م) بعد وفاة الملك لوثر، ثم تقسيم ثالث في عام (٢٠٢هـ/ ٨١٧م) قام به الملك لويس التقي بن شارلمان، فكل ذلك وخلافه أدى إلى الصراع والتناحر بين الفئات الحاكمة، ومنه يتضح لنا أن الأسس التي بُني عليها الإقطاع الأوربي في العصور الوسطى غير سليمة وعقيمة.

لقد كان الإقطاع النبوي ومنذ نشأته ينمو نمواً صحيحاً، بعيداً عن الانحراف والضياع، في ظل السلطة التشريعية النبوية الصحيحة، فقد أدى ذلك إلى الترابط الوثيق بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، في مؤسسة المؤاخاة الإسلامية والتي أظهرت أعظم صلات الترابط فيما بينها، كذلك أصبح النظام الإقطاعي النبوي بمثابة النواة الأولى لظهور وبناء الاقتصاد الإسلامي والمقيد بنصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة، كذلك أقر النظام الإقطاعي الملكية الفردية، وأساسها أن المال مال الله، والإنسان مستخلف فيه بما يرضي الله عزوجل، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (٣٤).

كما وأن الإقطاع النبوي أقر الحرية الاقتصادية، وقيدها بالحلال والحرام وبالقيم الأخلاقية الإسلامية المنضبطة بالكتاب والسنة وكان نظاماً يعيش فيه الجميع لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، كلها أمة إسلامية كتابها القرآن ولغتها اللغة العربية جيشها إسلامي أنشئ للدفاع عن الدعوة، ونشر دين الله، ثقافة واحدة، وأمة واحدة، ولو تعددت قومياتها، آدابهم الإسلام يتعلمون كل شيء في المسجد ثروتهم واحدة، وعلومهم واحدة، ودينهم واحد أمة واحدة كاملة البناء، مكتملة اللبنات، معلمها وقائدها محمد ﷺ .

أما الإقطاع الأوربي فقد ظهر نتيجة انصهار نظامين كاملين هما النظام الجرماني البربري، والنظام الروماني القديم، واستغرق نمو هذا النظام تلقائياً وتدريجياً وببطء،

---

(٣٤) سورة النور: آية رقم (٣٣).

خلال فترة لا تقل عن أربعة قرون إلى أن بلغ قمته في القرن الثالث عشر الميلادي وهذا يدل على أن نموه كان غير صحيح، ففي تلك الفترة شهدت أوربا الكثير من الأزمات السياسية، والاضطرابات الاجتماعية، والحروب الإقطاعية حتى أن العديد من المؤرخين شهد بأن هذه الفترة كانت أشد ظلمة مما شهدته أوربا أيام سقوط الإمبراطورية الرومانية على يد القبائل الجرمانية، فهذا النظام لم يكن من أجل التنمية والتطوير، بل كان هدفه وتركيزه زيادة رأس المال للسادة الإقطاعيين، على حساب الطبقة العاملة من الفلاحين والأقنان، وكان اقتصاداً محلياً ضعيفاً، لم يقم إلا بتلبية الحاجة الخاصة وفي هذا النظام - أيضاً - لم يكن هناك أمة أو قومية، ولم توجد مقومات للأمة بالمعنى الحديث كاللغة العربية الواحدة، والآداب، والتقاليد، والتراث القومي، ولم يوجد ما يسمى بالجيش، فقد كان تدريب الأفصال على حمل السلاح بصورة بسيطة وبدائية من أجل حماية سيدهم، ولم توجد الثروة العامة أو رؤوس الأموال، بل وجد الفقر المالي، والفقر العلمي، والجهل بأوسع معانيه، كان منتشراً مما جعل ذلك المجتمع عرضة للنكبات والويلات التي تنزل به بين الحين والآخر.

في الإقطاع النبوي لم يفصل الإسلام بين السلطتين الزمنية والروحية بل جاءت السلطتان متلازمتين ترتبط كلاهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً، فالجميع يخضعون لسلطته وقيادته ﷺ.

وفي أوربا كان الصراع قائماً بين البابوية والإمبراطورية في العصور الوسطى مرة تنتصر البابوية على الامبراطورية، ومرة أخرى يحصل العكس، هكذا استمرت هذه الصراعات طيلة فترة العصور الوسطى بأكملها حيث كان المسيحيون ينظرون إلى أن البابا هو خليفة الله على الأرض وأن الحكام والملوك هم أتباعه وعماله وأصبحت الكنيسة مهيمنة على مصائر الأفراد ومقدراتهم، وذلك بعد أن تم وضع عدة نظريات معظمها لصالح البابا وكان من نتائج تلك الصراعات إضعاف المركز

السياسي للإمبراطور لصالح البابا.

في الإقطاع النبوي، تعتبر قطائعه التي أقطعها المسلمين صادرة عنه بنفسه، يقطعها لأسباب عديدة، ذكرت معظمها على صفحات هذا البحث، وهي مؤيدة بالإرادة الإلهية، فتكون ذات حقائق ثابتة، وقدسية عظيمة، أما الإقطاع الأوربي فمصدره بشري غير عادل، يقطع لأسباب وفوائد شخصية يعود على السيد بالمنفعة الخاصة، وليس لها قدسية القرار، ولا صفة الثبات لقد اختص الإقطاع الأوربي نفسه بمساوئ، لم نجد لها بنداً في المقارنة مع الإقطاع النبوي، فمن المعلوم أن الإقطاع الأوربي قام أساساً على العلاقة الخاصة والسيئة بين السيد الإقطاعي وأقنانه، وأساس هذه العلاقة الأرض، وكان العمل بموجب الالتزامات المفروضة على القن ومن أهمها: (الأجور والسخرة والعشور والاحتكارات ورسم الولاية). (٣٥)

لقد عاش الفلاح في ظل النظام التعسفي أسوأ أيامه، وتقبل كل ما كان مقرراً عليه، وكان يئن تحت عبء تلك الواجبات والالتزامات، وفوق كل ذلك فقد عانى كثيراً من (قسوة المعاملة والظلم والجور والاستبداد والطغيان) لقد عاش الفلاح ذلك العصر الظالم داخل قريته مع دابته وأسرته، لا يعرف شيئاً مما يجري حوله، عانى - أيضاً - من عدم استتباب الأمن، ذلك رغم لجوئه لسيده الإقطاعي ليحمي نفسه وأسرته، عانى من عدم إعطائه حقوقه فلم يأخذ منها إلا النذر اليسير.

حلت بالفلاح الكوارث المتتالية من المجاعات والحروب المستمرة التي نتج عنها الأمراض الفتاكة، والتي قضت على الأخضر واليابس، حاول الفلاح - دون جدوى - أن يتخلص من تلك الأعباء أو بعضها، مما أدى في نهاية الأمر إلى ثورته العارمة على تلك الأنظمة الفاسدة، وكسر القيود والأغلال ولم يكن مناص من أن يقوم بذلك في نهاية العصور الوسطى.

---

(٣٥) انظر البحث: ص ٢٣١ - ٢٣٥.

لقد ألقي على الفلاح أعباء أخرى، زادت من مساوئ ذلك النظام الإقطاعي الظالم وأبعدته عن نقاط المقارنة مع الإقطاع النبوي العظيم، فقد ألقيت عليه ضرائب، كانت بمثابة الرمز لعبودية السيد الإقطاعي لأقنانه وفلاحيه، ومن أمثلة تلك الضرائب: ضريبة الماشية، ضريبة الجبن، ضريبة الأسماك، ضريبة الفحم، ضريبة الميراث، ودفع غرامة لسيده حينما يقوم بزواج أحد أبنائه أو بناته، كذلك دفع جزء من دخل أرضه للكنيسة كنوع من الأجرة مقابل ما تقوم به من صلوات من أجل طبقات المجتمع الأخرى (٣٦).

لقد طولب الفلاح بما فوق طاقته، ورضي بكل تلك الغرامات والضرائب والمساوئ والأعباء، المختلفة، فدفع كل ما يطلب منه من تكاليف معنوية كالإيذاء والقسوة والأزوراء والريبة وويلات الحرب، والتي أول ما تنزل مصائبها تنزل به، وما يتبعها من تخريب وتدمير في كل شيء.... فبقي هذا الفلاح في ذله هذا، ومهانته إلى أن قويت الحكومة المركزية بأسباب متعددة تم ذكرها على صفحات هذا البحث (٣٧)، ثم حلت محل هذا النظام الجائر المتعدد المفاسد والمساوئ، وهكذا نجد أن هذه المساوىء اختص بها هذا النظام، وعند مقارنتها مع الإقطاع النبوي نجد أن الشخص الذي يقطعه الرسول ﷺ، يمتاز بكل الحقوق والواجبات التي يمتاز بها عامة المسلمين، فيعيش تحت قانون إلهي عادل ينفذه مع صحابته ﷺ.

سادساً: الأسس والمواثيق التي تم بها الإقطاع في النظامين النبوي والأوربي

تعتبر الأسس التي أقطع بها ﷺ إقطاعات مختلفة في أنواعها، واحدة في جوهرها، أساسها الخير والرفاهية للإنسانية، وتقدم واصلاح الفرد والجماعة

---

(٣٦) انظر البحث: ص ٢٣٣.

(٣٧) انظر البحث: ص ٢٥٢.

المسلمة، ووحدت الناس في ظل أمة إسلامية واحدة وسوف نقوم بدراستها واحدة بعد الأخرى رغم أنها تعتبر متداخلة في بعضها، كان ﷺ في معظم إقطاعاته يكتب وثائق للمقطع إليهم، تكون أماناً لهم بشأن إقطاعاتهم الممنوحة لهم.

فأحياناً يكتب الإقطاع باسم الشخص نفسه كفرد، وأحياناً أخرى يكتب الإقطاع باسم شيخ القبيلة، ويعني بذلك كل أفراد القبيلة، وكان أسلوب الوثائق سلساً فصيحاً جامعاً مانعاً، بعيداً عن الأطناب والتكلف، قصيراً، يتكون عادة ما بين سطر إلى ثلاثة أسطر، معظمها مكتوب على الجلد، وتستفتح بالبسملة، ويليها إحدى هذه الصيغ (وهب له أو أن له أو ما أعطى (ما أنطى)، أنه أعطاه أو هذا ما أقطع) ولنأخذ مثالاً على ذلك، كتاب النبي ﷺ لمجاعة اليمامي هذا نصه: ((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كتبه محمد رسول الله لمجاعة بن مرارة بن سلمى اليمامي إني أقطعتك الغورة، وغرابة والحبل فمن حاجك فإلي)) كتبه يزيد بن أبي سفيان (٣٨).

فمن هذا الكتاب نلاحظ، أولاً: توجيه الكتاب باسم الشخص أو القبيلة ثم يكتب البسملة، ويذكر اسمه ﷺ، (ومعنى ذلك أن الإقطاع منه شخصياً، ثم من حاجك فإلي، أي من خاصمك فعد إلي أو إلى ولي وأمير المسلمين، وإلى ما بوثيقتك، فحقك محفوظ بها للأبد، وإلى ورثتك، هذه عظيمة من عظائم الإقطاع، الإسلامي، ويلاحظ في نهاية الوثيقة كتابة اسم الصحابي الذي سجلها ومن شهد معه ويلاحظ في الوثيقة أنها قصيرة، فكلما قصرت تكون أدق وأوضح، وأقل تعرضاً للتحريف، وبعكس الوثائق الطويلة والتي تكون عرضة للتحريف، فكلما طالت نصوص الكتاب (الوثيقة) كلما تعرضت للتحريف وكثر الاختلاف فيها (٣٩).

وقد كتب تلك الوثائق عدد كبير من الصحابة اختصوا بذلك مثال: علي بن أبي

(٣٨) أبو عبيد: الأموال: المصدر السابق: ص ٢٩٣.
- محمد حميد الله: الوثائق النبوية: المرجع السابق: الوثيقة رقم ٦٩ ص ١٥٧-١٥٨.

(٣٩) محمد حميد الله: المرجع السابق: ص ٣١.

طالب، الزبير بن العوام، أبي بن كعب، معاويه بن أبي سفيان، يزيد بن أبي سفيان والعلاء الحضرمي رضي الله عنهم جميعاً، وكان ﷺ يشهد على الوثائق بعض من حضر كتابتها من الصحابة الآخرين، وتأتي أحياناً في نهاية الوثيقة عبارة: (ولم يعطه حق أحد) أي أن الإقطاع من الرسول ﷺ وهو سيد وأمير وقائد الأمة، لم يعطه حق أي مسلم أو ذمي آخر، واقترح عليه بعض الصحابة أن يضع خاتماً ويكتب عليه (محمد رسول الله) وتم صناعة خاتم له ﷺ يتكون من ثلاث كلمات: (محمد رسول الله) وكان ينهي كتبه ووثائقه بهذا الختم على العهود والمواثيق التي أقطع بها ﷺ للمسلمين (٤٠).

ومن أهم الأسس التي قامت عليها إقطاعاته ﷺ :

١- إقطاعه ﷺ أرضاً زراعية وعامرة من أموال بني النضير وخيبر بعدما أجلاهم عنها لقد كان أمر إجلاء بني النضير لغدرهم بالرسول ﷺ، ونكثهم بعهودهم معه في السنة الرابعة للهجرة، فكانت من صفاياه فقسمها وأقطعها ﷺ للمهاجرين وكان ممن أقطعهم من المهاجرين أبي بكر الصديق، عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وخلافهم من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً.

ولم يقطع من الأنصار إلا رجلين كانا فقيرين، هما سماك بن خشنة (أبا دجانه) وسهل بن حنيف إلا أنه ﷺ لم يقطع المهاجرين إلا بعدما استشار الأنصار قائلاً لهم: ((ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه بينهم خاصة فقالوا: بل قسم هذه لهم ومن أموالنا ما شئت، فنزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى

---

(٤٠) الأعظمي: كتاب النبي ﷺ: المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة: بيروت: ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤١) فقال أبو بكر رضي الله عنه ((جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً)) (٤٢).

أما ما كان من أمر خيبر، فقد دفعها ﷺ إلى أهلها بالنصف، وبعث عبد الله بن رواحة ليخرص ثمرها ونخلها نصفين، ومن النصف الذي يخص المسلمين أطعم منه ﷺ نساءه وعمه العباس، وأطعم وأعطى العديد من المهاجرين مثل: أبي بكر الصديق، عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وولديه الحسن والحسين والزبير ابن العوام، وأطعم بني عبد المطلب، وكتب لهم بذلك وهكذا خففت هاتان المنطقتان من أعباء المهاجرين، والأنصار، فقد أكد وأقر للأنصار على أرضهم واستثمارها، وأعطى المهاجرين من بني النضير وخيبر، دوراً وأرضاً وبعد غزوة بدر وواقعتي بني النضير وخيبر أوقف نظام المؤاخاة ورد المهاجرون للأنصار ما كانوا قد وهبوه لهم من حوائط النخيل وخلافها.

٢- إقطاع متعلق بالقبائل، وهو الإقرار لهم على ما يملكون من قبل، وكان ﷺ يخط بذلك الكتب والوثائق ليضمن بها حقوق الأفراد والجماعات، وقد يرد أحياناً اسم زعيم أو شيخ القبيلة أو الوفد، ويكتب اسمه على رأس الوثيقة ولكن ليس معنى ذلك أن كل ما يرد في الوثيقة يخصه شخصياً، بل لكل أفراد القبيلة نفس الحقوق بالوثيقة وأما اسم زعيم القبيلة الذي ورد في الوثيقة فإنما يعني ذلك أنه ممثلٌ للقبيلة، علماً بأنه استلم الوثيقة الخاصة بقبيلته من الرسول ﷺ (٤٣).

مثال ذلك أن الرسول ﷺ أقطع بلال بن الحارث المزني معادن القبيلة - وهي ناحية الفرع - فتلك المعادن لا يؤخذ منها الزكاة، وهذا نص الكتاب: ((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله ﷺ، بلال بن الحارث المزني أعطاه

(٤١) سورة الحشر: آية رقم (٩).

(٤٢) البلاذري: فتوح البلدان: المصدر السابق: ص ٣١-٣٤.

(٤٣) عون الشريف قاسم: المرجع السابق: ص ٢٥٦.

معادن القبيلة جليسها وغوريها، وحيث يصلح الزرع من قدس، ولم يعطه حق مسلم، وكتب أبي بن كعب)) (٤٤).

لقد أعطى ﷺ رؤساء القبائل والعشائر ليتألفهم به وقومهم على الإسلام، ونلاحظ في هذا الإقطاع أنه باسم بلال بن الحارث المزني لكنه في الواقع يراد به كل أفراد القبيلة، وهذا العطاء يقوي الإسلام والمسلمين ويذل الكفار وحزبهم ويستجلب به ﷺ رؤساء القبائل والعشائر الذين إذا غضبوا غضب لغضبهم أتباعهم، وإذا أرضوا رضوا لرضاهم، فإذا أسلم هؤلاء لم يتخلف عنهم أحد من قومهم، فلله ما أعظم هذا العطاء، وما أجداه وأنفعه للإسلام وأهله.

مما سبق نلاحظ أنه ﷺ أقطع العديد من القبائل داخل المدينة وحولها وخارجها.

٣- إقطاع متعلق بأفراد ليسوا سكان المدينة، جزاءً لهم بما قاموا به من الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وهذا يعتبر إقراراً لحقوق كانت موجودة أصلاً، تم ذلك بعد غزوة بدر، وبني النضير، وخيبر إذ فتحت على المسلمين مصادر خير جديدة من تلك الأراضي، فوزعها ﷺ على المهاجرين بموافقة إخوانهم الأنصار، وبذلك أعادوا كل ما استقطعوا من إخوانهم الأنصار، من أراضٍ وحوائط النخل، والدور، وما إلى ذلك، وبذلك أقر الرسول ﷺ الأنصار كأفراد وجماعات على أرضهم وأملاكهم بالمدينة حيث أنهم أصبحوا أحراراً في أملاكهم.

كما أقطع ﷺ أرضاً مواتاً لأفراد من أجل استصلاحها واستثمارها، ومن أجل توفير السكن الكريم لهم، ومكافأتهم لزودهم عن الإسلام والمسلمين.

٤- كان رسول الله ﷺ قد خط الدور بالمدينة وخططها ووثائقها على أساس الانتماء

(٤٤) انظر البحث: ص ١٨٢ - ١٨٣ .

القبلي وقال ياقوت: ((لما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة أقطع الناس الدور والرباع، فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخرة المسجد، وكان لعبد الرحمن ابن عوف الحش المعروف به، ولعبد الله وعتبة ابني مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهما عند المسجد وما إلى ذلك من قطائع للدور، وكان ﷺ يقطع أصحابه هذه القطائع، فما كان من عفائن الأرض فإنه أقطعهم إياه، وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوه له فكان يقطع من ذلك ما شاء (٤٥)، وعلى الأساس القبلي السابق سار إقطاع الخطط والمنازل في العصر النبوي العظيم، ثم سار على نفس الخطط بناء المدن الإسلامية الجديدة، من التعمير والتنسيق كما حصل فيما بعد في مدن البصرة والكوفة والقيروان وبغداد وما إلى ذلك من مدن إسلامية جديدة، وهذا من أهم الأسس التي قام من أجلها الإقطاع النبوي.

٥- من الأسس التي بني عليها نظام الإقطاع النبوي كانت التأليف على الإسلام وتدعيم وترسيخ العقيدة في قلوب الذين دخلوا الإسلام، وهذا كان موقوفاً بتغلغل الإسلام في قلوبهم كما حصل في إقطاع فرات بن حيان. (٤٦).

٦- ومن تلك الأسس إقراره ﷺ لمن أظلهم الإسلام تحت ظله (من أهل الذمة) على أموالهم وعقائدهم ومقدساتهم الدينية بشرط أن يؤدوا ما عليهم من خراج وجزية، كما رأينا في كتابه لأساقفة نجران. (٤٧)

أما بالنسبة للأسس والعهود والمواثيق التي بني عليها الإقطاع الأوربي في العصور الوسطى، فقد كان الإقطاع بمثابة عقد سياسي واجتماعي واقتصادي يربط فيما بين الفلاح وسيده الإقطاعي.

(٤٥) السمهودي: وفاء الوفاء: المصدر السابق: جـ٢: ص ٧١٨.

(٤٦) انظر البحث: ص ١٥٥.

(٤٧) انظر البحث: ص ٢٠٤.

ويحدد هذا الإقطاع تملك الأرض بشروط مخالفة تماماً للإقطاع الإسلامي، ويسجل فيها الحقوق والواجبات الملقاة على عاتق الفلاح ليقوم بأدائها لسيده الإقطاعي ومن أركان العقد الإقطاعي الأوربي، يعتبر يمين الولاء (يمين الإخلاص) وهو يمين تعاقدي ينشأ من العقد الذي يربط بين التابع والسيد، ونجد واجبات كثيرة يجب على التابع أن يؤديها لسيده كالخدمة الحربية لأربعين يوماً، ومن لم يستطع تأدية ذلك يقدم لسيده بدلاً مالياً، وتوجد واجبات كثيرة. (٤٨) وفي هذا الركن يحضر التابع إلى سيده الذي يمنحه الإقطاع فيركع أمامه في حضرة حاشيته، ويضع يده بيده ويقسم قسم الولاء: ((أقسم بأن أكون مخلصاً موالياً، إخلاص، التابع وولائه لمتبوعه وأتعهد بالقيام بذلك ما دمت تابعاً لك مقيماً على إقطاع من أرضك)). (٤٩) ويرد عليه سيده بأن يقدم له: علماً وعكازاً ويحرر محضراً بالأرض، ويودع ذلك المحضر بمحفوظات محكمة للسيد وتقطع هذه الأرض نظير خدمات شتى منها الحربية، والزراعية. (٥٠) ويسترد السيد أرضه هذه حسبما يشاء ووقتما يريد، وهذه فروق شاسعة بين الإقطاع النبوي والإقطاع الأوربي، فهذا أرضه تنزع في أي وقت، أما في الإقطاع النبوي، فيكون إقطاعه ملكاً له ولورثته من بعده.

ومن ضمن أسس الإقطاع الأوربي يمين آخر هو يمين الطاعة والبيعة ويتم أداء هذه الإيمان بطريقة مذلة ومهينة للعبد، ومن ذلك يصبح الفلاح الرجل الخاص للسيد مدافعاً عنه وعن مصالحه ويأخذه من يده ويقبله، وتتم طريقة حلف الأيمان والإخلاص والولاء على الكتب المقدسة آنذاك.

ويحتم القانون الإقطاعي الأوربي على أن تكون الأرض ملكاً للسيد في أي وقت، وأن تكون ملكيات الأراضي بأسماء السادة الإقطاعيين، وبهذا يستملكون جميع الأراضي، وسادت قاعدة في ذلك الوقت تقول "لا أرض بدون سيد" ويوجد على

(٤٨) انظر البحث: ص ٢٤٢.

(٤٩) انظر البحث: ص ٢٤٢.

(٥٠) انظر البحث: ص ٢٤٢.

السيد واجبات رمزية منها أن يتعهد السيد بالإخلاص لتابعه مثلما يتعهد التابع بذلك لسيده، ويقوم السيد بالحماية الكاملة لفصله من أي اعتداءات أو مشاكل يتعرض لها (٥١).

مما سبق نلاحظ أن تلك الأيمان والعقود قد بنيت على أساس الحقوق والواجبات بين الطرفين، وفي الحقيقة إن السيد الإقطاعي قد خرج من هذه التعاقدات بنصيب الأسد، حيث إنه الطرف الأقوى، وصاحب النفوذ والسلطان، ورغم ذلك فالسيد مقيد بالتزامات وشروط خاصة، حيث الدفاع عن أفصاله بشتى الوسائل ورعايتهم، وتحقيق العدالة لهم، فقد ظهر في القرون الأخيرة من العصر الإقطاعي، أنه يحق للفصل أن يفسخ عقده وعلاقته مع سيده إذا ثبت أنه لم يستطع النهوض بمسئولياته تجاههم (٥٢).

ومن أوجه المقارنة نلاحظ أن الإقطاع النبوي كان مبنياً على الوثائق النبوية الصادقة والتي يكتبها أحد الصحابة ويختمها الرسول ﷺ بختمه، ويشهد عليها عددٌ من الصحابة الحاضرين، أما الإقطاع الأوربي فقد كان مبنياً على أساس العقد الشخصي بين السيد وفصله، ويحتفظ بالعقد في خزينة محكمة الإقطاعي الذي، يحق له نزع الإقطاع، وإتلاف العقد إذا ما أراد ذلك، فالفرق واضح بين الإقطاعين النبوي على الوثائق الإقطاعية، ويحفظ للشخص المقطع حقوقه وتتوارثه من بعده ذريته، فيصبح إقطاع تمليك ثابت، والإقطاع الأوربي الذي يحق للسيد نزع ملكية فصله بإتلافه للعقد أو الوثيقة إذا ما غضب عليه، وينزع منه الملكية إذا ما ارتأى ذلك.

وفي الوثائق يعتبر الإقطاع النبوي إقطاعاً مكتوباً بيد أحد الصحابة وأملاه الرسول ﷺ ولم يستطع أحد من المسلمين أن يتجاوز ذلك النص أو يخالفه، لأن

(٥١) كوبلاند وفنيو جرادوف: المرجع السابق: ص ٦٦-٦٨.

(٥٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق: جـ٢: ص٢٦٧.

مصدره من أعظم وأصدق إنسان على وجه الأرض، أيده الله سبحانه وتعالى في بعض أقواله وأفعاله، وهذا يتواءم مع نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

أما الإقطاع الأوربي فقد كان يخط ويكتب بيد رجل يسمى السيد، سيد نفسه بنفسه أو سَيّدته الأرض التي يملكها، ففي كتابته هذه يصدق ويكذب ويسجل فيه إقطاعاً للفلاح الذي التجأ إليه، ويعمل تحت إمرته وسيطرته.

ويراعى في الإقطاع النبوي العدالة التامة والمصلحة المستمرة، فكل إقطاع أو هبة أو منحة يجب ألا تتنافى مع المبادىء الأخلاقية، وألا تتصادم مع المصلحة الجماعية للمسلمين، والتي هي من أهم المقاصد الشرعية، وأي شيء يخالف ويعارض ذلك يعتبر محرماً وممنوعاً في نظر الشريعة الإسلامية عكس ذلك تماماً يكون الإقطاع الأوربي، فهو إقطاع وضعي لا تراعى فيه المبادىء الأخلاقية، والعدالة الإنسانية، وغالباً ما تتصادم مصالح السيد الإقطاعي مع فصله صاحب الإقطاع.

مما سبق لاحظنا الفرق بين الأسس والعهود والمواثيق التي بني عليها الإقطاع النبوي والإقطاع الأوربي، الدلائل تشير إلى أن الهدف من الإقطاع النبوي كان هدفاً عاماً وشاملاً، لصالح المجتمع الإسلامي، فيكون الإقطاع مفيداً لما يقدمه من خدمات مختلفة على مستوى الأفراد والمجتمع، وما يقدمه لمن جاهد في سبيل الله والدعوة، ولمن يقوم بعمل مجيد في سبيل رفعة شأن الدين، والإقطاع - أيضا" - يؤمن مصدر العيش الطيب للأفراد والجماعات، وكان أيضا" حاثاً على استجلاب القبائل وزعمائها وأفرادها، ومن تلك الأهداف الهامة العمل على استثمار واستصلاح الأراضي البور حيث نشأت نواة الاقتصاد الإسلامي، فعامل إحياء الأرض من أعظم أسس وأهداف الإقطاع النبوي، أضف إلى ذلك ما دخل بيت مال المسلمين من أموال، وكان ﷺ لا يقطع حق مسلم أو ذمي أو معاهد لأحد، وأيضا" كان لا يقطع الماء والكلأ والنار، لما في هذه من فوائد لعامة المسلمين وكان من أسس وأهداف الإقطاع النبوي

أيضا" تقوية وتجهيز جيوش المجاهدين المسلمين.

وعكس ذلك كان الإقطاع الأوربي، فهو خاص وفردي ليس فيه الشمولية، وتكون المصلحة العليا فقط للسيد الإقطاعي، أما الفصل فيحصل على ما تكفيه لسد رمقه في الحياة، وليس لديه الحرية في التصرف فيما أقطع، ويبقى ذليلاً تحت رحمة سيده، ومن الأسس التي أحدثها هذا النظام، التخاصم والحروب الإقطاعية التي كانت تنتشر بين الإقطاعيين ويدفع ثمنها الأفصال، وكان من تلك الأسس إصلاح أرض السيد الإقطاعي لفائدته الشخصية فقط دون أن يستفيد من ذلك المجتمع أو أفراده كما هو الحال في الإقطاع النبوي.

كان هذا الإقطاع الأوربي يختص بإقطاع الأرض فقط، أما الإقطاع النبوي فهو شامل لكل مجالات الإقطاع التي يكون فيها خير وفائدة لجميع المسلمين.

هذه بعض الفروق في الأسس والوثائق والعهود فيما بين الإقطاعين النبوي والأوربي فالأول هو إعلان الرحمة النبوية العظيمة لكافة الأمة، رحمة يتسع لها كل شيء، فريدة في نوعها، مساحتها تشتمل على كل زمان ومكان، مساحتها الزمنية تشمل جميع الأجيال، ومساحتها المكانية تتسع للعالم كله، فذلك للكون كله والبشرية كلها، جاءت هذه الرحمة النبوية الكريمة - والإقطاع أحد فروعها وأسسها - شاملة لكل شيء متسعة لكل زمان ومكان، وهكذا أتى ﷺ لإنقاذ البشرية من الهلاك والدمار، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٥٣).

وأما الثاني فكان إقطاعاً محدوداً مذلاً للفرد والجماعة تسوده المحلية، وكانت إقطاعاته كثيرة وفوائده قليلة، يستفيد منه أفراد معدودون، وشتان بين الإقطاعين النبوي والأوربي، وفي هذا الفصل نسأل الله سبحانه وتعالى أن نكون قد أعطينا كلاًحقه، والله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(٥٣) سورة الأنبياء: آية رقم (١٠٧).

الخاتمة

الحمد لله الذي أتم علينا نعمة الإسلام، وهدانا للصراط المستقيم، الحمد لله الذي وفقنا لإتمام صفحات هذا البحث، والذي أحتسبه قد اكتمل، ولكن الكمال لله وحده.

لقد تناول هذا البحث فترة زمنية هامة من حياة البشرية فقد كان الناس جميعاً عرباً وعجماً وخلافهم يعيشون حياة جاهلية، وصل فيها الضلال، والفسق والفجور، وعبادة الأصنام وعبادة غير الله إلى مداه، في جزيرة العرب وباقي أجزاء العالم أرسل الله سبحانه وتعالى، آخر الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، ليخرج البشرية، من الظلمات إلى النور.

وبدراستنا للإقطاع النبوي، ومقارنته مع الإقطاع الجاهلي والإقطاع الأوربي في العصور الوسطى، تبين لنا أن الإقطاع الجاهلي، كان يرتكز على مصالح شيخ القبيلة الشخصية، ولا ينظر لعامة أفراد قبيلته، لذلك كان إقطاعاً عقيماً فوائده محدودة، وحيث إن القبائل دائمة التنقل عديمة الاستقرار كثيرة التناحر والاقتتال فقد أدى ذلك إلى ضعف وشلل الاقتصاد الجاهلي الذي تديره القبائل.

كما اتضح لنا من دراستنا للإقطاع الأوربي في العصور الوسطى، أنه كان ظالماً لطبقة الأقنان، والفلاحين، وهؤلاء في أدنى سلم طبقات المجتمع الأوربي آنذاك، فالطبقات العليا تسعى لزيادة ممتلكاتها من الأرض ومن الأقنان، مما أدى إلى ظلم الطبقات لبعضها ، ومن هنا نجد أنه لا مقارنة بهذه السلبيات مع إيجابيات الإقطاع النبوي العظيم.

بدأ ﷺ بدعوة عشيرته الأقربين ليخرجهم من الظلمات إلى النور فعادوه بجاهليتهم، وقارعوه بأصنامهم، وحقدهم، ولم يتحقق له في مكة ما كان يريد، وأبى الله إلا أن يتم نوره، فأمر ﷺ بالهجرة إلى مدينة يثرب، فرحب به أهلها، وآزروه ونصروه، وبدأ بتكوين دولته، وأسسها على شريعة الحق، والمؤاخاة بين المهاجرين

والأنصار، وظهرت صورة التآخي جلية واضحة لم يشبهها صورة على صفحات التاريخ في العالم.

ولم تتحقق تلك الصورة إلا بعظمة وحكمة رسولنا الكريم ﷺ، وكتب ميثاق وصحيفة المدينة، ليربط بين المؤمنين، وبين المؤمنين وكل من المشركين واليهود.

كانت حالة المسلمين في المدينة، ضعيفة ولكنها أفضل مما كانت عليه في مكة فبدأ ﷺ ينظر إلى حال صحابته من المهاجرين، ودار في ذهنه العديد من الأسئلة كيف يصلح حالهم؟ بعد أن فقدوا المال والعقار بسبب هجرتهم !! فأخذ في تشريع نظام الإقطاع الإسلامي لهدف إصلاحي عام، وجاء من قبل الحكومة النبوية المركزية القوية، وأمره الله بقتال المشركين واليهود، فأرسل السرايا، وغزا الغزوات، واستولى على أرض يهود بني النضير وخيبر بعد غدرهم بالعهود والمواثيق معه ﷺ، وأقطع منها للمهاجرين الدور، والأراضي ليصلح من حالتهم، ويعوضهم ما فقدوه.

من نتائج هذا التشريع العظيم للنظام الإقطاعي النبوي، إصلاح حال المسلمين عامة، والمهاجرين خاصة، وتوحيد مسيرتهم، وجمع كلمتهم، ومن نتائجه أيضاً، أن النبي ﷺ، أخذ في حث زعماء القبائل بالدخول في الإسلام مقابل إقرارهم على ملكهم، فأقبل هؤلاء الزعماء وتبعهم أفراد قبائلهم فدخلوا في دين الله وأمنوا للمسلمين دروبهم في غزواتهم وسراياهم وساعدوهم وآزروهم، وهكذا بدأت شوكة الإسلام تقوى، وعددهم يزداد، كل ذلك من إيجابيات ذلك التشريع النبوي العظيم.

جاء الإقطاع النبوي ليكون حلاً عادلاً وشاملاً للمشاكل التي عانى منها المهاجرون، والمسلمون بشكل عام فقد أقطع ﷺ الأرض لمن يصلحها، والدور لمن هو في حاجة إليها.

واتضح لنا في هذا البحث بعد المسلمين - في هذه الأيام - عن الكثير من الشرائع

التي اختطها ﷺ ، ومن بينها الإقطاع، حتى أصبحت الأمة الإسلامية غائبة تماماً عن تلك الحقائق والشرائع النبوية.

وبذلك أصبحت الأجيال لا تدرك حقيقة الإقطاعات، والأسس والمبادئ العظيمة التي شُرِّعت من أجلها وظنت الأجيال - أيضاً - أن الإسلام لم يستطع مواكبة هذا العصر، وعلينا أن نعلم أن ديننا الحنيف ينظم العلاقة بين الإنسان وخالقه، وبين الأفراد بعضهم ببعض.

وتبين لنا أن الدراسة الشاملة للأصول الإقطاعية والاقتصادية التي وضعها الرسول ﷺ ، مترابطة ومتلازمة، إلا أنه بعد أن ابتعد عنها المسلمون سكنت وهدأت، وما أحوجنا اليوم للعودة لتلك المرحلة من صدر الإسلام، لإيضاح الطرق الاقتصادية السليمة والناجحة المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

إن هذا العمل - من الإقطاعات النبوية - يجب أن يسجل على أنصع صفحات التاريخ كي ينظر إليه بجدية تليق بمقامه ﷺ، لما فيه من خير لهذه الأمة، التي أصيبت بالضعف والوهن، فطمع فيها الطامعون من اليهود والنصارى والوثنيين.

وحسبنا في هذا البحث أن نكون قد جمعنا مادة علمية جديدة ضافية، وأن نكون قد أمددنا الأمة الإسلامية بأمور توقظها من غفلتها، لتنظيم أمورها وتهيئتها لقيادة العالم من جديد دينياً واقتصادياً واجتماعياً وعسكرياً، ونكون قد جمعنا أنفسنا من جديد وهيأنا أمتنا للنهوض.

وأخيراً، أرجو أن أكون مع من تشرفوا بخدمة التاريخ الإسلامي، وتشريع نبينا ﷺ ، وأكون قد أديت جزءاً من الواجب المفروض علي كمسلم.

فبعونه تعالى بدأت، وبعونه انتهيت ((وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)).

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم وتفاسيره:

١- القرآن الكريم: طبع مجمع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة: (١٤١١هـ/١٩٩٢م)

٢- **أبو بكر جابر الجزائري:** أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (خمسة مجلدات) - الطبعة الرابعة: جده: راسم للدعاية والاعلان: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٣- **سيد قطب:** في ظلال القرآن (ستة مجلدات): الطبعة السادسة عشر: القاهرة بيروت: دار الشروق: (١٤١٠هـ/١٩٩١م).

٤- **الشوكاني: محمد بن علي:** (ت ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: الطبعة الأولى: بيروت: دار المعرفة: بدون تاريخ.

ثانياً: كتب الأحاديث النبوية:

٥- **البخاري: محمد بن إسماعيل** (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) مختصر صحيح البخاري: ضبط وتحقيق، مصطفى ديب البغا الطبعة السادسة: دمشق: بيروت: اليمامة للطباعة والنشر: (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٦- **(ابن) حجر: أحمد بن علي العسقلاني** (ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (أربعة عشر جزءاً) شرح ومراجعة: محب الدين الخطيب محمد فؤاد عبد الباقي: قصي محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية القاهرة: دار الريان: (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٧- **(ابن) حنبل: أبو عبد الله أحمد:** (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) مختصر مسند الإمام أحمد، الطبعة الأولى: دمشق دار الحكمة للطباعة والنشر: (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٨- **(أبو) داود: سليمان بن الإشعث** (ت ٢٧٥هـ/٨٨٩م) مختصر سنن أبي داوود: ضبط وتحقيق، مصطفى ديب البغا الطبعة الأولى: دمشق: بيروت: (١٤١٧هـ/١٩٩٨م).

٩- **(ابن) ماجه: محمد بن يزيد القزويني** (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) مختصر سنن ابن ماجه: ضبط وتحقيق، مصطفى ديب البغا: الطبعة الأولى: دمشق: بيروت: اليمامة للطباعة والنشر: (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

١٠- **مسلم: أبو الحسن بن الحجاج النيسابوري:** (ت ٢٩١هـ/٨٧٤م) صحيح مسلم (خمسة مجلدات) الطبعة الأولى: نشر وتوزيع، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية: (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

١١- **مسلم: مختصر صحيح مسلم:** ضبط وتحقيق: مصطفى ديب البغا: الطبعة الثانية دمشق: بيروت: اليمامة للطباعة والنشر: (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

١٢- **النسائي: أحمد بن علي بن شعيب** (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م) مختصر سنن النسائي: ضبط وتحقيق: مصطفى ديب البغا: الطبعة الأولى: دمشق: بيروت: (١٤١٧هـ/١٩٩٨م).

ثالثاً: مصادر البحث:

١٣- **(ابن) الأثير: عز الدين أبو الحسن علي محمد الجزري:** (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) أسد الغابة في معرفة الصحابة: تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا (خمسة أجزاء) الطبعة الأولى: بيروت دار المعرفة: (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

١٤- **الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد** (ت ٢٥٠هـ/٨٦٥م) أخبار مكة

وما جاء فيها من الأثار: تحقيق رشدي الصالح ملحس (جزءان في مجلد) بيروت دار الأندلس: (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

١٥- **الأصبهاني: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله** (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (عشرة أجزاء) - الطبعة الأولى - القاهرة (١٣٥١هـ/١٩٣٢م).

١٦- **الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين** (ت ٣٥٦هـ/٩٦٩م)، كتاب الأغاني، بيروت، دار أحياء التراث العربي: (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

١٧- **الألوسي: محمود شكري**: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (ثلاثة أجزاء) شرح وتصحيح: محمد بهجه الأثري، الطبعة الأولى: بيروت: دار الكتب العلمية: (١٣١٤هـ/١٩٩٤م).

١٨- **البكري: عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي**: (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٧م) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، (أربعة أجزاء في مجلدين) تحقيق: مصطفى السقا: الطبعة الثالثة: بيروت، عالم الكتب: (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٩- **البلاذري: أحمد يحيى جابر**: (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢) أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار، ورياض زركلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى: (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

٢٠- **البلاذري: أحمد يحيى جابر**: (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢) فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان: بيروت: دار الكتب العلمية (١٤١٢هـ/١٩٩١م)

٢١- **الترمذي: محمد بن عيسى**: (ت ٢١٠هـ/٢٧٩م) الشمائل المحمدية: تحقيق: عبد المجيد طعمه حلبي: الطبعة الأولى: بيروت: دار المعرفة: (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

٢٢- **(ابن) الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب:** (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) زاد المعاد في هدى خير العباد: (ستة أجزاء) الطبعة الخامسة والعشرون: مؤسسة الرسالة: بيروت: مكتبة المنار الإسلامية الكويت: (١٤١٢هـ/١٩٩١م).

٢٣- **(ابن) الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن** (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، سيرومناقب عمر بن عبد العزيز، تحقيق: نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية (١٤٠٢هـ/١٩٨١م).

٢٤- **الجاحظ: عمرو بن بحر** (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي: (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

٢٥- **(ابن) حجر: أحمد بن علي العسقلاني:** (٨٥٢هـ/١٤٤٩م) الإصابة في تمييز الصحابة: (ثمانية أجزاء) دار الكتب العلمية: بيروت: الطبعة الأولى: (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٢٦- **(ابن) حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي:** (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م) جمهرة أنساب العرب: الطبعة الأولى: بيروت: دار الكتب العلمية: (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

٢٧- **الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:** بن عبد الله الرومي البغدادي: (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان: (ستة أجزاء) تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي: بيروت: دار الكتب العلمية (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٢٨- **(ابن) خلدون: عبد الرحمن بن محمد** (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، المقدمة، تحقيق: درويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الاولى: (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٢٩- **الدمشقي: محمد بن عبدالله الشبلي:** (ت ٧٩٦هـ/١٣٩٣م)، محاسن الوسائل في معرفة الأوائل، تحقيق: محمد التويخي، بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٠- **الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود:** (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م)، الاخبار الطوال، تحقيق: عمر فاروق الطباع، الطبعة الأولى، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٣١- **الذهبي: محمد بن أحمد:** (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م)، تاريخ الإسلام، القاهرة، مطبعة السعادة: (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م).

٣٢- **الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان:** نزهة الفضلاء في تهذيب سير أعلام النبلاء: (ثلاثة أجزاء) تحقيق: محمد حسن عقيل موسى: الطبعة الأولى: جده: (١٤١١هـ/١٩٩١م).

٣٣- **الرازي: الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر عبد القادر:** مختار الصحاح: بيروت مكتبة لبنان: (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

٣٤- **(ابن) رجب: الإمام الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي:** (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) الاستخراج لأحكام الخراج: صححه الاستاذ السيد عبد الله الصديق: بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر: بدون تاريخ.

٣٥- **الزهري: الإمام محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب:** (١٢٤هـ/٧٤١م) المغازي النبوية: حققه: سهيل زكار: دمشق: دار الفكر: (١٤٠١هـ/١٩٨٠م).

٣٦- **(ابن) سعد: عبد الله محمد بن سعد منيع القريشي الهاشمي:** (٢٣٠هـ/٨٤٥م) الطبقات الكبرى: (تسعة أجزاء) دار صادر: بيروت بدون تاريخ.

٣٧- **(ابن) سلام: أبو عبيد القاسم:** (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) كتاب الأموال: تحقيق وتعليق محمد خليل هراس: الطبعة الأولى: بيروت: دار الكتب العلمية: (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٣٨- **السمهودي: نور الدين علي بن عبد الله بن أحمد:** (ت ٩١١هـ/١٥٠٦م) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: (أربعة أجزاء في ثلاثة مجلدات) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد: بيروت: دار الكتب العلمية: (١٣٧٤هـ/١٩٥٥م).

٣٩- **السهلي: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله الخثعمي:** (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م) الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لإبن هشام (أربعة أجزاء) القاهرة، (١٣٩١هـ/١٩٧١م).

٤٠- **(ابن) سيد الناس: فتح الدين محمد بن عبد الله:** (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (جزءان) تحقيق: الشيخ ابراهيم رمضان: الطبعة الأولى: بيروت: دار القلم: (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٤١- **السيوطي: جلال الدين:** (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد علي بيضون، بيروت، دار الكتب العلمية: بدون تاريخ.

٤٢- **السيوطي: جلال الدين:** (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: أحمد ابراهيم، سعيد العيدروس، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٤٣- **الشوكاني: محمد بن علي بن محمد** (ت ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار: تحقيق: خليل مأمون شيحا، الطبعة الأولى، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

٤٤- **الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير:** (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) تاريخ الطبري: (تاريخ الأمم والملوك): (ستة أجزاء) بيروت: دار الكتب العلمية بدون تاريخ.

٤٥- **(ابن) عبد ربه: أحمد بن محمد:** (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م)، العقد الفريد، تحقيق: محمد العريان، بيروت، دار الفكر العربي: بدون تاريخ.

٤٦- **العسكري: أبو هلال حسن بن عبدالله:** (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، كتاب الأوائل، تحقيق: وليد قصاب المصري، الرياض، دار العلوم: (١٣٦٢هـ/١٩٨٠م).

٤٧- **الفيروز أبادي: مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب:** (ت٨١٨هـ/١٤١٥م) القاموس المحيط: بدون تاريخ.

٤٨- **(ابن) قتيبة: عبدالله بن مسلم:** (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، القاهرة، دار المعارف: (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

٤٩- **(ابن) قتيبة: عبدالله بن مسلم:** (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، عيون الأخبار، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب: (١٣٦٠هـ/١٩٧٣م).

٥٠- **القرشي: يحيى بن آدم:** (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) كتاب الخراج: صححه وشرحه: أحمد محمد شاكر: بيروت: دار المعرفة: بدون تاريخ.

٥١- **القزويني: الإمام زكريا بن محمد بن محمود:** (ت ١٢٠٣هـ/١٢٨٣م) أثار البلاد وأخبار العباد: بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر: (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٥٢- **القلقشندي:" أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله:** (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: بيروت: دار الكتب العلمية بدون تاريخ.

٥٣- **القلقشندي:" أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله:** (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

مآثر الإنافة، تحقيق: عبد الستار فراج، بيروت: دار الكتب العلمية.

٥٤- **(ابن) كثير: عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر القريشي:** (ت-٧٧٤هـ/١٣٧٣م) السيرة النبوية: (أربعة أجزاء) تحقيق: الأستاذ مصطفى عبد الواحد، بيروت: دار إحياء التراث العربي: (١٣٨٣هـ/١٩٦٤م).

٥٥- **الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي:** (ت٤٥٠هـ/١٠٥٧م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية: بيروت، دار الكتب العلمية: بدون تاريخ.

٥٦- **المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين:** (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م) مروج الذهب ومعادن الجوهر: (أربعة أجزاء): تحقيق وتعليق: الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي: الطبعة الأولى: بيروت: دار القلم: (١٤٠٨هـ/١٩٨٩م).

٥٧- **(ابن) منظور: جمال الدين محمد بن مكرم:** (ت ٧١١هـ/١٣١١م) لسان اللسان تهذيب لسان العرب: (جزءان): بيروت: دار الكتب العلمية: (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

٥٨- **(ابن) النديم: محمد بن اسحق (أبو الفتوح)** (ت ٩٩٠هـ/١٥٨٢م): كتاب الفهرست: تعليق الشيخ ابراهيم رمضان: الطبعة الأولى: بيروت: دار المعرفة: (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

٥٩- **(ابن) هشام: محمد عبد الملك المعافري الحميري:** (ت ٢١٨هـ/٨٣٢م) السيرة النبوية: (أربعة أجزاء في مجلدين): تحقيق الاستاذ: (مصطفى السقا ابراهيم الابياري: عبد الحفيظ شلبي): بيروت: بدون تاريخ.

٦٠- **الهمداني: الحسن بن أحمد بن يعقوب:** (ت ٣٣٤هـ/٩٤٦م) صفة جزيرة

العرب: تحقيق: محمد بن علي الأكوع: الرياض: (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).

٦١- **الواقدي: أبو عبدالله محمد بن عمر:** (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، مغازي رسول الله (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) - بيروت - دار المعرفة - بدون تاريخ.

٦٢- **أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم:** (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م): كتاب الخراج: بيروت، دار المعرفة: بدون تاريخ.

رابعاً: مراجع البحث:

٦٣- **أبو الحسن علي الحسيني الندوي:** السيرة النبوية: دار الشروق: جده الطبعة الثانية: (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٦٤- **السيد الباز العريني:** تاريخ أوربا العصور الوسطى: بيروت: دار النهضة العربية: بدون تاريخ.

٦٥- **السيد عبد العزيز سالم:** تاريخ العرب في عصر الجاهلية: بيروت: دار النهضة العربية: (١٣٩١هـ/١٩٧١م).

٦٦- **أبو بكر جابر الجزائري:** هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب: الطبعة الخامسة: مكتبة السوادي للتوزيع: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)

٦٧- **أبو بكر جابر الجزائري:** منهاج المسلم: دار الشروق: جده: الطبعة السابعة: (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٦٨- **أجاكوب ج كرامب:** تراث العصور الوسطى: مجموعة أبحاث: ترجمة مجموعة أساتذة بالجامعات المصرية: بالإشتراك مع محمد مصطفى زياد: مؤسسة سجل العرب: (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

٦٩- **أحمد بن الأمين الشنقيطي**: شرح المعلقات العشرة وأخبار شعرائها: بيروت، دار الكتب العلمية: (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٧٠- **أحمد أمين**: (ت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م): فجر الإسلام: الطبعة الخامسة عشر القاهرة: مكتبة النهضة المصرية: (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٧١- **أحمد ابراهيم الشريف**: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ: القاهرة: دار الفكر العربي: (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م).

٧٢- **أحمد ابراهيم الشريف**: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة: القاهرة: دار الفكر العربي: (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

٧٣- **أحمد ابراهيم الشريف**: دولة الرسول في المدينة: القاهرة: دار الفكر العربي: (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

٧٤- **أكرم ضياء العمري**: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة: الطبعة الأولى: الرياض: مركز الدراسات والاعلام: دار اشبيليا: (١٤١٧هـ١٩٩٧م).

٧٥- (ج.ج) **كولتون**: عالم العصور الوسطى النظم والحضارة: ترجمة عبد الحميد حمدي محمود - بدون تاريخ.

٧٦- **ج.د كوبلاند: وفينوجرادف**: الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا ترجمة: محمد مصطفى زياده: الطبعة الثالثة: القاهرة: مكتبة النهضة المصرية: (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م).

٧٧- **جرجي زيدان**: تاريخ التمدن الإسلامي (خمسة أجزاء)، القاهرة: (١٣٢٣هـ/١٩٠٦م).

٧٨- **جواد علي**: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (عشرة أجزاء) الطبعة

الثانية: دار العلم للملايين: بيروت: (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

٧٩- **جواد علي:** تاريخ العرب في الإسلام: الطبعة الثانية: بيروت: دار الحداثة: (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٨٠- **جوزيف نسيم يوسف:** تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها: بيروت، دار النهضة العربية: بدون تاريخ.

٨١- **ديفز: هـ.و (H.W.C.DAVIS)** أوربا في العصور الوسطى: ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود: الطبعة الأولى: الاسكندرية: (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م).

٨٢- **سعيد الأفغاني:** أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: الطبعة الثالثة: دار الآفاق العربية: دمشق: (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

٨٣- **سعيد عبد الفتاح عاشور:** أوروبا في العصور الوسطى النهضة والحضارة والنظم (الجزء الثاني): بدون تاريخ.

٨٤- **سمير عبد الرزاق القطب:** أنساب العرب: الطبعة الأولى: بيروت: دار مكتبة الحياة: (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

٨٥- **شكري فيصل:** حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول: دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية: الطبعة الأولى: بيروت: درا العلم للملايين: (١٣٧٢هـ/١٩٥٣م).

٨٦- **شوقي ضيف:** تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي: القاهرة: الطبعة التاسعة عشرة: دار المعارف: (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

٨٧- **صالح أحمد العلي:** الدولة في عهد الرسول ﷺ: المجلد الأول تكوين الدولة وتنظيمها: بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي: (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٨٨- **صالح العلي الصالح؛** وأمنيه الشيخ سليمان الأحمد: المعجم الصافي في اللغة العربية: الطبعة الأولى: الرياض: (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

٨٩- **صفي الرحمن المباركفوري؛** الرحيق المختوم: (بحث في السيرة النبوية) الطبعة الأولى: بيروت: المكتبة العصرية: (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

٩٠- **عارف عبد الغني؛** تاريخ الحيرة في الجاهلية والإسلام: دمشق: دار كنان: (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٩١- **عبد الباسط بدر؛** التاريخ الشامل للمدينة المنورة: الطبعة الأولى: الجزء الأول: (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٩٢- **عبد الحي بن شمس الآفاق أبو المكارم الإدريسي** (الكتاني) (ت ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية: جزءان: بيروت: دار الكتاب العربي: بدون تاريخ.

٩٣- **عبدالعزيز الدوري؛** مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، الطبعة الثانية، بيروت: (١٣٨١هـ/١٩٦١م).

٩٤- **عبد القدوس الأنصاري؛** أثار المدينة المنورة: الطبعة الرابعة: المدينة المنورة: المكتبة العلمية التجارية: (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٩٥- **عبد الله بن عبد الرحمن الرشيد؛** الأموال المباحة وأحكام تملكها في الشريعة الإسلامية (جزءان) رسالة لنيل درجة الدكتوراة بجامعة الأزهر الشريف بالقاهرة، الطبعة الأولى: (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) شركة الطباعة العربية، السعودية - الرياض.

٩٦- **عبد الله عبد العزيز ابن ادريس؛** مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ: رسالة

لنيل درجة الماجستير: جامعة الملك سعود: الرياض الطبعة الثانية: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٩٧- **عبد المنعم ماجد:** الدولة العربية: (عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين)، (جزآن)، الطبعة الرابعة، القاهرة: (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).

٩٨- **عبد الوهاب عزام:** مهد العرب: سلسلة أقرأ رقم (٤٠) القاهرة: دار المعارف بمصر: (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

٩٩- **علي ابراهيم حسن:** التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة، القاهرة: (١٣٩١هـ/١٩٧١م).

١٠٠- **علي حافظ:** فصول من تاريخ المدينة المنورة، الطبعة الثالثة، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر: (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

١٠١- **عمر رضا كحالة:** معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، خمسة أجزاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة: (١٤١٢هـ/١٩٩١م).

١٠٢- **عون الشريف قاسم:** نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ: الطبعة الثالثة، دار الجيل: بيروت: دار المأمون المحدودة: الخرطوم: (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

١٠٣- **غوستاف لوبون:** حضارة العرب ترجمة: عادل زعيتر: الطبعة الثالثة: بيروت، دار إحياء التراث العربي: (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

١٠٤- **فليب حتى:** تاريخ العرب: ترجمة وأضاف اليه: ادوارد جرجي، جبرائيل جبور: الطبعة الثامنة: دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت: (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

١٠٥- **كارل بروكلمان:** تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه فارس ومنير بعلبكي، بيروت، الطبعة الخامسة: (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

١٠٦- **لطفي عبد الوهاب يحيى:** العرب في العصور القديمة: الطبعة الثانية: القاهرة، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر: (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

١٠٧- **لويس المعلوف:** المنجد في اللغة والأداب والإعلام: الطبعة السادسة والثلاثون، بيروت: دار الشروق.

١٠٨- **محمد أبو الفضل وعلي محمد ابراهيم:** أيام العرب في الإسلام: الطبعة الرابعة: بيروت: المكتبة العصرية: (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).

١٠٩- **محمد أبو الفضل جاد المولى:** محمد أحمد علي أحمد: أيام العرب في الجاهلية بيروت: المكتبة العصرية: (١٣٦١هـ/١٩٤٢م).

١١٠- **محمد الخضري:** محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: (تاريخ الدولة الإسلامية حتى الأموية) بيروت: الطبعة الأولى: دار المعرفة (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

١١١- **محمد بيومي مهران:** دراسات في تاريخ العرب القديم: مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: الطبعة الثانية: الرياض (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

١١٢- **محمد جمال الدين سرور:** قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد ﷺ: القاهرة: دار الفكر العربي: (١٣٧١هـ/١٩٥٢م).

١١٣- **محمد حسين هيكل:** حياة محمد: الطبعة الثالثة عشر: القاهرة: مكتبة النهضة المصرية: مطبعة السنة المحمدية: ١٩٦٨م.

١١٤- **محمد حسين هيكل:** في منزل الوحي، القاهرة، الطبعة الرابعة: (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).

١١٥- **محمد حميد الله:** مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: الطبعة الخامسة: بيروت: دار النفائس: (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

١١٦- **محمد شوقي الفنجري:** ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية وأهمية الاقتصاد الإسلامي: الطبعة الثالثة: الرياض: دار ثقيف للنشر والتأليف: (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

١١٧- **محمد عثمان شبير:** أحكام الخراج في الفقه الإسلامي: الطبعة الأولى: الكويت، دار الأرقم: (١٤٠٦هـ/١٩٩٧م).

١١٨- **محمد لقمان الأعظمي الندوي:** مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ رسالة لنيل درجة الدكتوراة: جامعة القاهرة: كلية الآداب: (١٤٠٥هـ/١٩٨٨م): دار الإعتصام.

١١٩- **محمد بن محمد شهبه:** السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: (جزءان) الطبعة الثالثة: دمشق: دار القلم: (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

١٢٠- **محمد مصطفى الأعظمي:** كتاب النبي ﷺ: الطبعة الثالثة، بيروت: المكتب الإسلامي: (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

١٢١- **محمود سعيد عمران:** حضارة أوربا في العصور الوسطى: الطبعة الأولى، بيروت: دار النهضة العربية: بدون تاريخ.

١٢٢- **محمد شفيق غربال:** (وآخرون) الموسوعة العربية الميسرة: بدون تاريخ.

١٢٣- **محمود شاكر:** التاريخ الإسلامي: جـ٢ السيرة: الطبعة الأولى: المكتب الإسلامي: (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

١٢٤- **مصطفى الهمشري:** النظام الاقتصادي في الإسلام (من عهد بعثة الرسول ﷺ

إلى نهاية عصر بني أمية): القاهرة: دار العلوم الطبعة الأولى: (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

١٢٥- **مهدي أحمد رزق الله:** السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية الطبعة الأولى: الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

١٢٦- **نبيه عاقل:** تاريخ العرب القديم وعصر الرسول: دمشق: (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

١٢٧- **نور الدين حاطوم:** تاريخ العصور الوسطى في أوربا: الطبعة الأولى: دمشق دار الفكر: (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

خامسا: الدوريات و الرسائل:

١٢٨- **حمد الجاسر:** الإقطاع النبوي: مجلة العرب: الرياض: (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م). الجزء الأول: السنة السابعة: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر

١٢٩- **حياة ناصر الحجي:** ملاحظات حول نظام الإقطاع الأوربي في العصور الوسطى: المجلة العربية للعلوم الإنسانية: جامعة الكويت: (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م): العدد الثاني: المجلد الأول.

١٣٠- **الريح حمد النيل الليث:** الزراعة في عصر الرسول ﷺ ، رسالة دكتوراه، إشراف: بشير ابراهيم بشير، جامعة الخرطوم، كلية الآداب، قسم التاريخ: (١٤١٢هـ/١٩٩١م).

١٣١- **عائشة يوسف الترابي:** أثر الفرس في حياة العرب في صدر الإسلام، رسالة ماجستير، إشراف: بشير ابراهيم بشير، جامعة الخرطوم، كلية الآداب،

قسم التاريخ: (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

١٣٢- **عواطف أديب علي سلامه:** قريش ودروها السياسي والاقتصادي والديني قبل الإسلام: رسالة لنيل درجة الماجستير: جامعة الملك سعود، قسم التاريخ: كلية الآداب: (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

١٣٣- **محمد السيد غلاب:** التجارة في عصر ما قبل الإسلام دراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام: الرياض: مطابع جامعة الملك سعود: (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م): الطبعة الأولى: الكتاب الثاني.

١٣٤- **Gibbon the DECLINE and fall of the Roman Empire.London**

١٣٥- **Margali ou the (D.S):the early Developunen of Mohmmed Anism London**

١٣٦- **Watt-Montgomry - Muhammad - At Medina - Oxford- Univercity - Press - Amen House London- E-C-4 1955**

(الملاحق)

ملاحظة :

(١) أخذت جميع الرسائل النبوية التي في الملاحق من كتاب " مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة " للدكتور : محمد حميد الله ، موضحة بأرقامها ، ومن نفس المرجع أخذت الخريطة رقم (١) ص ٣٥٣.

(٢) أما الخرائط من (٢) إلى رقم (٦) فقد أخذت جميعها من كتاب " الأطلس الجغرافي التاريخي " للدكتور : محمد محمود الصياد وآخرين - وزارة المعارف - المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى - مطبعة داغر (١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م) الصفحات على الترتيب ٤٦ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ .

٤١

لقبيلة حدس من لخم

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لمن أسلم من حَدَس من لَخْم ، وأقام الصلاة وآتى الزكاةَ، وأعطى حظَّ الله وحظَّ الرسول ، وفارقَ المشركين ، فإنه آمِنٌ بِذمّة الله وذِمّة محمد . ومن رجع عن دينه، فإنَّ ذمّة الله وذمّةَ رسولِه منه بريئةٌ . ومَن شهد له مسلمٌ بإسلامه ، فإنه آمنٌ بِذِمّة محمد ، وإنه من المسلمين .

وكتب عبدالله بن زيد .



٤٢

إلى زياد بن جهور اللخمي

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى زياد بن جهور

أما بعد إنه بلغني أن بأرضك رجلاً يقال له عمرو بن الحارث . قد أفتنهم وأعان على فتنتهم . فانهه ما استطعتَ . أما بعد فليوضعنّ كل دين دانه الناس إلاّ الإسلام . فاعلم ذلك.

أما بعد فقد أتاني رسولك ولم يصب عندي شيئاً من الشهوات . ولن أعتذر من ذلك . أما بعد فإنه من أتى من عمم - قوم أبي الحسين ابن قانع : بطن من اليمن - فإنه آمن بأمان الله ومحمد رسول الله .

واتق الله ربك . وكتب .



الإقطاع للداريين وهم من لخم

وَفَد عليه صلى الله عليه وسلم الداريّون مرتّين ، مرةً قبلَ الهجرة ، ومرةً بعدها. وفي المرة الأولى ، سألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أرضاً ، فدعا بقطعةٍ من أدم ، وكتب كتاباً نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب ذُكر فيه ما وَهَب (محمد) رسولُ الله للدارييّن ،

إذا اعطاه الله الأرض ، وَهَب لهم بيت عيون ، وحبرون ، والمرطومَ

وبيت إبراهيم ، ومَن فيهم إلى الأبد .

شهد عبّاس بن عبدالمطلب ، وخُزيمة بن قَيس ، وشُرَحْبِيلُ ابن حَسَنة وكَتَب



٤٤

تجديد الكتاب السابق

فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، قدموا عليه ، وسألوه أن يجدِّد لهم الكتابَ فكتب ما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابُ من محمد رسول الله لتميم بن أوس الداريّ :

إنّ له قريةَ حّبرون ، وبيتَ عينون ، قريتهما كلهما ، وسهلهما وجبلهما ، وماءهما وحرثهما ، وأنباطهما وبقرهما ، ولعَقِبه مِن بعده ، لا يُحاقُّه فيهما أحد ، ولا يَلجهما عليهم أحدٌ بظلمٍ.



٤٥

رواية أخرى عن النص السابق

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أنطى محمد رسولُ الله لتميم الداريّ وإخوانه : حَبرون ، ومَرطوم : وبيتَ إبراهيم ، وما فيهن نَطِيّةَ بَتَّ بذِمّتهم . ونفّذتُ وسلّمت ذلك لهم ولأعقابهم . فَمن آذاهم آذاه الله ، ومن آذاهم لَعَنه الله . شهِد عتيقُ بن أو قُحافة ، وعمرُ بن الخطاب ، وعثمانُ بن عفان ، وكَتَب عليٌّ بن أبي طالب وشهِد.



قال النويري :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أنطا محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته : حيروم والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن نطية بت بذمتهم ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم . فمن آذاهم آذاه الله ، فمن آذاهم لعنه الله . شهد عتيق بن أبو قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وكتب علي بن أبو طالب وشهد.



٤٦

من أبي بكر الصديق للداريين أيضاً

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من أبي بكر ، أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم

الذي استُخْلِفَ في الأرض بعدَه ، كتبه للداريّين : أن لا يُفسَد عليهم سَبَدُهم ولَبَدُهم مِن قرية حَبرون وعَينون . فمن كان يَسمع ويُطيع الله ، فلا يُفسِد منهما شيئاً . وليَقُم عموديُّ الناس عليهما ، وليَمْنَعهما من المفسدين .



٨٩

لبني قُرة من بني نَهد

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى محمدٌ رسول الله بني قُرّة بن عبد الله بن أبي نَجيح النّهديّين : إنه أعطاهم المظلّة كلها ، أرضها ، وماءها ، وسهلها ، وجبلها ، حِمىً يَرعون فيه مَواشيهم .

وكتب معاوية بن أبي سفيان .



٤٧ / ألف

إن أبا ثعلبة الخشني قال : يا رسول الله ، اكتبْ لي بأرض كذا ، وكذا - أرض هي يومئذ بأيدي الروم - قال : فكأنه أعجبه الذي قال ، فقال : ألا تسمعون ما يقول ؟ قال : والذي بعثك بالحق ، لتفتحنّ عليك . قال : فكتب له بها .

ولم يرو نص الكتاب .



٤٧ / ب

كتاب عمرو بن العاص إلى النبي من بلاد بلىّ يستنجده

لما أسلم عمرو بن العاص في الهدنة بعد الحديبية ، وجّهه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام ، وأمره أن يدعو أموال أبيه ، العاصي ، من بلىّ إلى الإسلام ، ويستفزّهم (؟ يستنفرهم) إلى الجهاد (مع الروم) . فشخص عمرو إلى ذلك الوجه . ثم كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمدّه - ولم يرو نص الكتاب -

فأمده بجيش فيهم أبو بكر .



٤٨

لبني جُعيل من قبيلة بلى

إنهم رهط من قريش ، ثم من بني عبد مناف . لهم مثل الذي لهم وعليهم مثل الذي عليهم . وإنهم لا يُحشرون ولا يُعشرون .

وإنّ لهم ما أسلموا عليه من أموالهم . وإنّ لهم سِعايةَ نَصرٍ وسعد ابن بكر وثُمالةَ وهذيلٍ .

وبايع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على ذلك عاصِمُ بن أبي .

صيفيّ ، وعَمرو بن أبي صيفيّ ، والأعجم بن سفيان ، وعليّ ابن سعد .

وشهد على ذلك العبّاسُ بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ،

وعثمان بن عفان ، وأبو سفيان بن حرب .



إلى المقوقس عظيم القبط

بسم الله الرحمن الرحيم

مِن محمد عبدِ الله ورسوله ، إلى المُقَوقِس عظيم القِبط.

سلام على من اتّبع الهُدى ، أما بعدُ : فإني أدعوك بدِعايَة الإسلام ، أسلِم تسلَم ، يُوتِك الله أجرَكَ مرتين . فإن تولّيت ، فعليك إثم القبط . ((يا أهلَ الكتاب تَعالَوا إلى كلِمةٍ سَواءٍ بَيننا وبينَكم ، أن لا نَعبُدَ إلاّ الله ولا نُشرِك به شيئاً ، ولا يتّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دُونِ الله ، فإن تَوَلّوْا فقولوا اشْهَدُوا بأنّا مُسلِمون))



٥٠

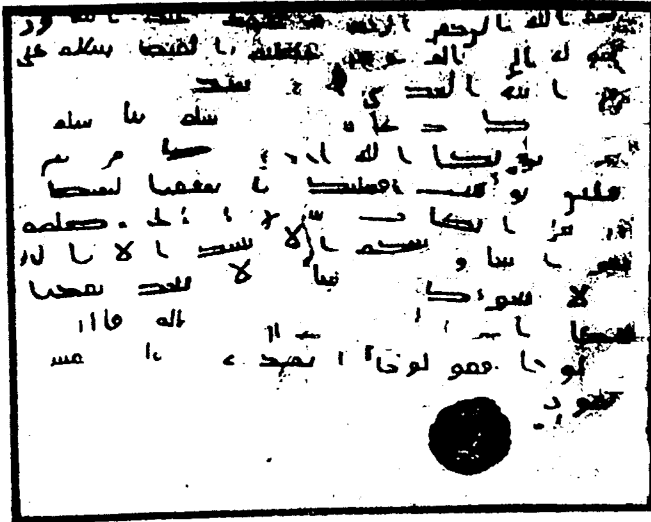
جواب المقوقس إلى النبي صلى الله عليه وسلم

لمحمد بن عبدالله من المُقَوقِس .

سلام، أما بعد: فقد قرأتُ كتابك ،وفهمت ما ذكرت وما تَدعوإليه .وقد علمتُ أنّ نبيّاً قد بَقيَ ،وقد كنتُ أظنّ أنه يَخرج بالشأم .وقد أكرمتُ رُسُلك ، وبعثتُ إليك بجاريَتَين لهما مكان في القِبط عظيم ،وبكسوةٍ ،وأهديتُ إليك بَغلةً لتركبها.

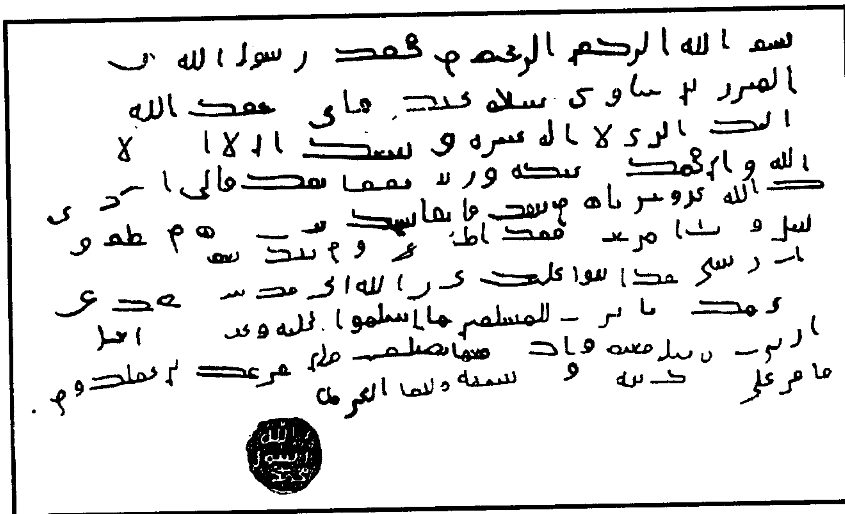
والسلام .





كتابه عليه السلام إلى المقوقس ، وثيقة (٤٩) .

(بإذن مدير متحف توب قابي باستنبول)



كتابة صلى الله وسلم المنذر بن ساوى، وثيقة (٥٧) .

(بإذن المجلة الألمانية(ZDMG)

إلى المنذر بن ساوى العبدي عامل كسرى على البحرين

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي بالبحرين ، فكتب المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسلام والتصديق.

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المُنذر بن ساوى

سلام على من اتّبع الهدى ، أما بعدُ : فإني أدعوك إلى الإسلام ، فأسلِمْ تسلَمْ يجعل الله لك ما تحتَ يديك . واعْلَمْ أن ديني سَيَظهر إلى مُنتهى الخُفّ والحافِر.



٥٧

مكتوب آخر إلى المنذر بن ساوى

بسم الله الرحمن الرحيم .

مِن محمدٍ رسولِ اللهِ إلى المنذر بن ساوي :

سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

أما بعدُ : فإني أُذَكِّرك الله عزَّ وجلَّ ، فإنه مَن يَنصَح فإنما يَنصَح لنفسه ، وإنه مَن يُطِع رُسُلي قد أثنوا عليك خيراً .

وإني قد شفعتُك في قومك ، فاترُك للمسلمين ما أسلموا عليه . وعفوتُ عن أهل الذنوب ، فاقبَل منهم . وإنك مهما تَصلَح فلن نَعزلك عن عملك . ومَن أقام على يهوديتّه أو مجوسيّته فعليه الجزية .



(٥٩ / ألف)

للعلاء بن الحضرمي في الزكاة

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم للعلاء كتاباً : فيه فرائض الصدقة في الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال يصدّقهم على ذلك . ، وأمره أن يأخذ من أغنيائهم ، فيردّها على فقرائهم.

ولم يرو نص الكتاب.

(٥٩ / ب)

إلى العلاء بن الحضرمي في طلب المندوبين

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب إلى العلاء بن الحضرمي :

أن يقدم عليه بعشرين رجلاً من عبدِ القيس ، فقدم عليه منهم بعشرين رجلاً ، رأسهم عبدالله بن عوف الأشجّ . واستخلف العلاء على البحرين المنذر بن ساوى.

ولم يرو نص الكتاب .

(٥٩ / ج - د)

مكاتبة بين العلاء بن الحضرمي والنبي عليه السلام

إن العلاء بن الحضرمي كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البحرين في الحائط يعني البستان يكون بين الأخوة ، فيسلم أحدهم؟ فأمره أن يأخذ العشر ممن أسلم ، والخراج (يعني ممن لم يسلم) .

وفي رواية إبن ماجة : عن العلاء بن الحضرمي قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البحرين أو إلى هجر ، فكنت آتي الحائط يكون بين الأخوة يسلم أحدهم فآخذ من المسلم العشر ، ومن المشرك الخراج .

(٦٠ / ٦٠ / ألف)

مكاتبة مع أهل هجر (البحرين ، وهو الأحساء اليوم)

نص الأول

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجوس هجر يدعوهم إلى الإسلام . فمن أقبل قُبل منه . ومن أبى ضُربتْ عليه الجزية في أن لا يؤكل لهم ذبيحة ، ولا تنكح لهم امرأة .

نص الثاني

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مِن محمدٍ النبي رسول اللّه إلى أهل هَجَر.

سلمٌ أنتم . فإني أحمد إليكم اللّه الذي لا إله إلاّ هو . أما بعدُ :

فإني أوصِيكم باللّه وبأنفسكم ، أن لا تضلّوا بعدَ إذ هُديتم، وأن لا تغووا بعدَ إذ رّشدتم .

أما بعدُ : فقد جاءني وفدكم ، فلم آت إليهم إلاّ ما سَرَّهم ، وإنّي لو جهدتُ حقّي فيكم كله أخرجتكم من هَجَر ، فشفعت غائبكم ، وأفضلتُ على شاهدكم ، فاذكروا نعمة اللّه عليكم.

أما بعدُ : فقد أتاني الذي صنعتهم وإنه مَن يُحسِن منكم لا يُحمل عليه ذَنبُ المُسيء . فإذا جاءكم أمرائي فأطيعوهم ، وانصُروهم على أمر اللّه وفي سبيله ، فإنه مَن يَعمل منكم عملاً صالحاً ، فلن يضلّ له عند اللّه ولا عندي .



(إلى المنذر بن ساوى :

أما بعدُ : فإنّ رُسُلي قد حمدوك ، وإنك مهما تصلح أصلح إليك ، وأُثبك على عملك ، وتنصح للّه ولرسوله . والسلام عليك) .



٦٧

إلى الهلال صاحب البحرين

سِلمٌ أنت . فإنّي احمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو ، لا شريك له ، وأدعوك إلى الله وحده ، تُومن بالله ، وتُطيع وتَدخُل في الجَماعَة فإنه خير لك .

والسلا على مَن اتّبع الهدى .



(٦٨ ـ ٦٨ / الف)

المكاتبة مع هوذة بن علي (شيخ اليمامة)

بسم الله الرحمن الرحيم

مِن محمد رسول الله إلى هوذة بن عليّ :

سلام على مَن اتّبع الهدى . واعلم أنّ ديني سيظهر إلى مُنتهى الُخفّ والحافر ، فأسلم تَسلَم ، وأجعل لك ما تحت يدَيك .



فَرَدَّ رَدّاً دون رَدًّ ، وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

ما أحسنَ ما تدعو إليه وأجملَه ، وأنا شاعر قومي وخطيبُهم ، والعرب تَهاب مكاني ، فاجعل لي بعضَ الأمر أتّبعك .

٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ كتبه محمدٌ رسولُ الله لِمُجاعة بن مُرارة بن سُلمى :

إنّي أقطعتُك الغورة وغُرابة والحُبَل ، فَمَن حاجّك فإليّ .



٧٠

له أيضـــاً

عن هلال بن سراج بن مجّاعة أن جده مجّاعة رضي الله عنه أتى النبي يطلب دية أخ له مشرك قتلته بنو سدوس ، من بني ذهل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو كنت جاعلاً لمشرك دية جعلت لأخيك ، ولكن سأعطيك من عقبة . فكتب له النبي صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي لمُجاعة بن مُرارة بن سُلمى:

إنّي أعطيتُه مائةً من الإبل من أوّل خمسٍ يَخرج مِن مُشرِكي

بني ذُهل عقبةً مِن أخيه.



٩٤

معاهدته صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمدٌ النبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأهل

نَجران : إذا كان عليهم حُكمُه في كل ثمرةٍ ، وفي كل صَفراءَ وبَيضاءَ ورقيقٍ ، فأفضلَ ذلك عليهم ، وتَرَكَ ذلك كلّه لهم ، على ألفي حُلّة من حُلَلِ الأواقي : في كل رَجَب ألف حُلّة أوقية من الفضة . فما زادتْ على الخراج ، أو نَقَصَتْ عن الأواقي فبالحساب . وما قَضَوا من دروعٍ ، أو خيلٍ ، أو ركابٍ ، أو عروضٍ أُخُذَ منهم

بالحساب . وعلى نَجران مؤنةَ رُسُلي ، ومتعتُهم ، ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولا تُحَبس رُسُلي فوق شهر.

وعليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فَرَساً ، وثلاثين بعيراً ، إذا كان كيد باليمن ومَعرَّة . وما هَلك مما أعارو رُسُلي من

دروع . أو خيلٍ ، أو ركابٍ ، أو عروضٍ ، فهو ضمين على رُسُلي ، حتى يؤدُّه إليهم.

ولنجران وحاشيتها، جِوار الله وذِمّة محمدٍ النبي رسولِ الله

على أموالهم وأنفسهم، وملّتهم، وغائبهم، وشاهدهم وعشيرتهم، وبيَعهم وكل ما تحت أيديهم مِن قليل أو كثير. لا يُغيّر أُسقُف من أسقفيّته ولا راهب من رهبانيّته ولا كاهن من كهانته. وليس عليهم رُبِّيّة،

ولا دمُ جاهلية. ولا يُحشرون، ولا يُعشَرون، ولا يطأ أرضهم جيشٌ. ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَصف غير ظالمين ولا مظلومين.

ومن أكل رِباً مِن ذي قَبَلٍ فذمِتي منه بريئة. ولا يؤخَذُ رجلٌ منهم بظلمِ آخر.

وعل ما في هذا الكتاب جوار الله، وذِمّة محمدٍ النبي رسول الله، حتى يأتي الله بأمره، ما نَصَحوا وأصلَحوا ما عليهم، غير مثقلين بظُلمٍ.

شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلانُ بن عمروٍ، ومالكُ بن عوفٍ من بني النّصر، والأقرع بن حابسٍ الحنظلي، والمغيرةُ بن شعبةَ.

وكتب لهم هذا الكتابَ عبدُ الله بن أبي بكر.



(وقال يحيى بن آدم: وقد رأيتُ كتاباً في أيدي النجرانيين، كانت نسختُه شبيهةً بهذه النسخة.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب النبي محمد رسول الله لأهل نجران:

إذا كان عليهم حكمة أن في كل سوداء وبيضاء وصفراء وثمرة ورقيق. وأفضل عليهم وترك لهم ألفي حلة. في كل صفر ألف حلة، وفي كل رجب ألف حلة.

كل حلّة أوقية . ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأوراق يحسب . وما قضوا من ركاب أو خيل أو درع أخذ منهم بحساب . و على نجران مثوى رسلي عشرين ليلة فما دونها .

وعليهم عارية ثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين درعاً غذا كان كيد باليمن دون معذرة . وما هلك مما أعاروا رسلي فهو ضمان على رسلي حتى يؤده إليهم .

ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم ، وبيعهم ، ورهبانيتهم ، وأساقفتهم ، وشاهدهم وغائبهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير على أن لا يغيّر أسقفاً من سقّيفاه ، ولا واقفاً من وقّيفاه ، ولا راهباً من رهبانيته . وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا ، ولا يطأ أرضهم جيش . ومن سأل منهم حقاً فالنصف بينهم بنجران .

وعلى أن لا يأكلوا الربا . فمن أكل الربا من ذي قَبل فذمتي منه بريئة . وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا ، مظلومين ولا معنوف عليهم .

شهد عثمان بن عثمان ، ومعيقيب وكتب .



٩٥

لأبي الحارث بن علقمة أسقف نجران

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمدٍ النبي ، إلى الأسقُف أبي الحارث ، وأساقفة نَجرانَ ، وكهنتهم ، ومن تبعهم ، ورهبانهم .

إنّ لهم ما تحتَ أيديهم ، مِن قليل وكثير من بِيَعهم ، وصلواتهم ، ورهبانيتهم ، وجوارَ الله ورسولِه . لا يُغيّر أُسقف من أُسقفيّته ،

ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته . ولا يغيّر حقٌّ من حقوقهم ولا سلطانهم ، ولا شيء مما كانوا عليه . (على ذلك جوار الله ورسوله أبداً) ، ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم ، غير مثقلين .

بظلم ولا ظالمين .

وكتب المغيرة .



١٣١

لربيعة بن ذي المرحب (من حضر موت)

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لربيعة بن ذي المَرحَب لحضرمي ، وإخوانه ، وأعمامه :

إنّ لهم أموالهم ونخلهم ورقيقهم وآبارهم وشجرهم ومياهم

وسواقيهم ونبتهم وشراجهم بحضرموت ، وكل مال لآل ذي مرحَب .

وإنَّ كل رهنٍ بأرضهم يُحسَب ثمره وسدره وقضبه من رهنه الذي هو فيه .
وإنَّ كل ما كان في ثمارهم من خير فإنه لا يسأله أحدٌ عنه ، والله ورسوله براء منه .

وإنَّ نَصر آل ذي مرحب على جماعة المسلمين . وإنَّ أرضهم بريئة من الجور .
وإنَّ أموالهم وأنفسهم وزافر حائط الملك الذي كان

يسيل إلى آل قيس ، وإنَّ الله ورسوله جارٌ على ذلك.



١٣٢

لوائل بن حجر الحضرمي

وقال : (أقطعة أرضا وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان (كاتب الرسالة)
وقال : أعطها إياه) بدون تصريح المحل ، ولا ذكر الإقطاع كتابة .

إنَّ وائل بن حُجْر لما أراد الشخوص إلى بلاده ، قال : يارسولَ الله ، اكتُبْ لي إلى قومي كتاباً . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

اكتُبْ له يا معاوية . فكتب ثلاثة كُتب ، كتاب خاص به فضَّله على قومه :

(الكتاب الأول)

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمدٍ رسول الله ، إلى المُهاجر بن أبي أميّة :

إنَّ وائلاً يَستسعي وَيترفّل على الأقيال حيث كانوا من حضرموت.



(١٣٢ / أ)

له أيضاً (الكتاب الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبي أمية

لأبناء معشر، وأبناء ضمعج أقوال شبوة، بما كان لهم فيها من ملك، أو مراهن، وعمران، وعرمان، وملح، ومحجر، وما كان لهم من مال أمرناه باليمن، وما كان لهم من مال بييعث، وما كان لهم من مال بحضرموت أعلاه وأسفلها، مني الذمة والجوار. الله لهم جار، والمؤمنون على ذلك أنصار، إن كانوا صادقين.



١٣٩

إلى قبيلة بكر بن وائل

(من محمد رسول الله) إلى بكر بن وائل : أسلِموا تسلَموا



وقال بس : فما وجدوا رجلاً يقرؤه حتى جاءهم رجل من بني ضبيعة بن ربيعة، فقراء، فهم يسمون بني الكاتب. وكان الذي أتاهم بكتاب رسول الله صلى عليه وسلم ظبيان من مرثد السدوسي. - وقال بحن : حديث مرثد بن ظبيان قال جاءنا كتاب رسول الله.

١٤١

لأحمر بن معاوية وافد تميم ويكنى بأبي شعبل

ختم الكتاب بخاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم))

إنّ أحمر بن معاوية وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان وافد تميم ، فكتب صلى الله عليه وسلم له ولابنه شِعبِل :

هذا كتاب لأحمر بن معاوية ، وشعبِل بن أحمر في رحالهم واموالهم . فمن آذاهم فذِمّة الله منه خليّة إن كانوا صادقين .

وكتب علي بن أبي طالب.



(١٤١ / أ ـ ب)

مكاتبة أكثم بن صيفي مع رسول الله

ذكر أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري أن أكثم بن صيفي سمع بذكر رسول الله صلى الله ل عليه وسلم ، فكتب إليه مع ابنه حبيش :

باسمك اللهم من العبد إلى العبد .

أما بعد فأبلغنا ما بلغك ، فقد أتانا عنك خبر لا ندري ما أصله . فإن كنت أريتَ فأرنا . وإن كنت علّمت فعلّمنا وأشرِكنا في خيرك.



والسلام .

وقيل إنه أراد أن يأتيه ، فمنعه قومه وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا وقد تجاوزت في

السن ونخشى عليك الطريق .

فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفي .

سلام الله . أحمد الله إليك . وإن الله يأمرني أن أقول لا إله إلا الله وحده لا شـريك له . و (أن) آمر الناس بقـولها . والخلق خلق الله . والأمر أمر الله . وكله إلى الله . والله خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم وإليه المصير .

آذانتكم بأذانة المرسلين . لتُسئلُنَّ عن النبأ العظيم . ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين .



١٤٢

لقبيلة بنت مخرمة التميمية

عن قيلة أنَّ حُريث بن حسّان الشيباني كاني وافِد بني بكر ابن وائل ، فبايعه صلى الله عليه وسلم على الإسلام عليه وعلى قومه .

ثم قال : يا رسول الله ، أكتب بيننا وبين بني تميم بالدَّهناء ، لا يجاوز إلينا منهم أحدٌ إلا مسافر أو مجاور فقال : أكتُب له يا غلام بالدَّهناء . قالت قيلةُ : فلما رأيتُه قد أمر له بها لشخص بي وهي وطني وداري ، فقلتُ : يا رسول الله ، إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك ، إنما هي هذه الدهناء مقيد الجمل ، ومرعى الغنم ، ونساءُ تميم وأبناؤها وراء ذلك .

فقال صلى الله عليه وسلم : أمسك يا غلام صدقت المسكينة . المسلمُ أخو

المسلم، يسعها الماء والشجر، ويتعاون على الفتان . . . وكتب لها

في قطعة من أديم أحمر:

لقيلة وللنسوة بنات قيلة:

أن لا يظلمن حقاً، ولا يُكرهن على منكح. وكلُّ مؤمن مسلم

لهنّ نصير . أحسِنْ ولا تسئنّ .

(١٤١ / ج)

لشيخ من بني تميم

حدثنا سالم بن أبي أُمية أبو النصر قال: جلس إليّ شيخ من بني تميم في مسجد البصرة، ومعه صحيفة له في يده . قال: وفي زمن الحجاج . فقال لي: يا عبدالله، أترى هذا الكتبا مغنياً عني شيئاً عند هذا السلطان؟ قال فقلتُ: وما هذا الكتاب؟ قال: هذا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه لنا:

أن لا يتعدّى علينا في صدقاتنا

... قال: قدمتُ المدينة مع أبي وأنا غلام شاب، بإبل لنا نبيعها . وكان أبي صديقاً لطلحة بن عبيد الله التيمي . فنزلنا عليه . . قال أبي لطلحة: خذ لنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً أن لا يتعدى علينا في صدقاتنا .

قال، فقال: هذا لكم ولكل مسلم . قال: على ذلك إني أحبّ أن يكون عندي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب . فخرج حتى جاء بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل من أهل البادية صديق لنا، وقد أحبّ أن تكتب له كتاباً لا يتعدى عليه في صدقته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا له ولكل مسلم . قال يا رسول الله إني قد أحبّ أن يكون عندي

منك كتاب على ذلك . قال فكتب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب.

١٦٣

إقطاع لبلال بن الحارث المزني

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطع بلال بن الحارث المُزنيّ معادن القبيلة - وهي ناحية الفرُع - فتلك المعادن لا يؤخذ منها الزكاة

إلى اليوم

بسم الله الرحمن

هذا ما أعطى محمدٌ رسولُ الله بلال بن الحارث المُزنيّ :

أعطاه معادن القبليّة جلسيّها وغوريّها ، وحيث يصلح الزرع من قَدَس .
ولم يعطِه حقَّ مُسلم . وكتب أبيّ بن كعب.



لقبيلة أسلم

لأسْلَم من خُزاعة :

لِمن آمن منهم ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وناصح في دين الله .

إن لهم النصر على من دهمهم بظلمٍ ، وعليهم نصر النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا دعاهم . ولأهل باديتهم ما لأهل حاضرتهم ، وإنهم مهاجرون حيث كانوا.

وكتب العلاء بن الحضرميّ وشهد .



رواية أخرى عن النص المذكور

وجاءه أسلم وهو بغدير الأشطاط ، جاء بهم بريدة بن الحصيب فقال : يا رسول الله هذه أسلمَ فهذه محالّها ، وقد هاجر إليك من هاجر منها ، وبقي قوم منهم في مواشيهم ومعاشهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم مهاجرون حيث كنتم . ودعا العلاء بن الحضرميَّ فأمره أن يكتب لهم :

هذا كتاب من محمد رسول الله لأسلم : لمن هاجر منهم بالله ، وشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فإنه آمن بالله ، وله ذمَّة الله

وذِمَة رسوله . وإنّ أمرنا وأمركم واحد على من دهمنا من الناس بظلم .

اليد واحدة والنصر واحد . ولأهل باديتهم مثل ما لأهل قرارهم . وهم مهاجرون حيث كانوا.

وكتب العلاء بن الحضرميّ .



١٦٧

للحصين بن أوس الأسلمي

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم للحُصين بن أوس الأسلميّ إنه أعطاه الفُرغين وذات أعشاش ، لا يُحاقه فيها أحد .

وكتب عليّ .

١٩٤

لعامر بن الأسود من طيء

(بسم الله الرحمن الرحيم)

هذا كتاب من محمد رسول الله) ، لعامرِ بن الأسود بن عامر بن

٣ إبن جُوَين الطائيّ : إنّ له ولقومه (من) طيء ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم ، ما أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة ، وفارقوا المشركين.

وكتب المغيرة .



١٩٥

لبني جُوين من طيء

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لبني جُوَين الطائيين :

لمن آمن منهم بالله ، وأقام الصلاةَ وآتى الزكاة ، وفارقَ المشركين ، وأطاع الله ورسوله ، وأعطى من المغانم خُمس الله وسهمَ النبي ، وأشهدَ على إسلامه ، فإنّ له أمان الله ومحمد بن عبد الله ، وإن لهم

أرضهم ومياهم وما أسلموا عليه . وغدوة الغنم من وراءها مبيتة.

وكتب المغيرة .



١٩٦

لبني جُوين من طيء

(بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) لبني مَعْن الطائيين :

إنّ لهم ما أسلموا عليه من بلادهم ومياهم ، وغدوة الغنم من وراءها مبيتة ، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأطاعوا الله ورسوله ، وفارقوا المشركين وأشهدوا على إسلامهم ، وأمّنوا السبيلَ .



لحرام بن عوف السلمي

لحرام بن عَوف من بني سُليم :

إنه أعطاه إذاماً وما كان له من شواق . لا يَحِلّ لأحد أن يظلمهم ولا يَظلِمون أحداً .

وكتب خالد بن سعيد .

٢١٥

إقطاعه موضع دار لعتبة بن فرقد السلمي

أعطاه موضع دارٍ بمكة يبنيها مما يَلي المروة . فلا يحاقّة فيها أحد . ومن حاقّة فإنه لا حقّ له وحقّه حق .

وكتب مُعاوية .

٢١٥ / ألف

إقطاع موضع دار للأزرق الغساني

لآل الازرق بن عمرو دار عند المروة بمكة . وهم يروون أن النبي صلى الله عليه وسلم دخلها على الأزرق بن عمرو عام الفتح ، وجاءه في حاجة قضاها له وكتب له كتاباً أن يتزوّج الأزرق في أي قبائل قريش شاء ، وولده . وذلك الكتاب مكتوب في أديم أحمر . فلم يزل ذلك الكتاب عندهم حتى دخل عليهم السيل في دارهم التي دخلت في المسجد الحرام سيل الجحاف في سنة ثمانين ، فذهب بمتاعهم . وذهب ذلك الكتاب السيل . وذلك أن الأزرق قال له : يا رسول الله بأبي أنت وأمي إني رجل لا عشيرة لي بكمة . وإنما قدمت من الشام وبها أصلي وعشيرتي . وقد اخترت المقام بمكة فكتب له ذلك الكتاب .

ولم يرو نص الكتاب .

لقبيلة عقيل بن كعب

عُقيل بن كعب . . . أسلموا وبايعوه على مَن وراءهم مِن قومهم ، فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم العقيق - عقيقَ بني عُقَيل - وهي أرض فيها عيون ونخل . وكتَبَ لهم بذلك كتاباً في أديم أحمر :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى محمدٌ رسول الله ربيعاً ومُطرِّفاً وأنَساً . أعطاهم العقيقَ ما أقاموا الصلاةَ ، وآتوا الزكاةَ ، وسَمِعوا وأطاعوا . ولم يُعطهم حقاً لمسلِم .

(فكان الكتاب في يد مُطرِّف)



٢١٧

لبني البكاء

(ربيعة بن عامر بن ربيعة وهم من مضر ، بين مكة وبَصرة على يومين من مكة).

هذا كتاب من محمد النبي : للفجيع ومَن تبِعه ومن أسلم ، وأقام الصلاة وآتى الزكاةَ ، وأطاع الله ورسوله ، وأعطى من المغانم خُمسَ الله ، ونَصَرَ النبيَّ وأصحابه ، وأشهد على إسلامه وفارق المشركين ، فإنه آمِنٌ بأمان الله وأمان محمد .



٢١٧ / ألف

إقطاع ماء لعبد الرحمن الأصم البكائي

وفد بنو البكاء من عامر بن صعصعة سنة تسع . . . وسمّي رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد عمرو الأصم ((عبدالرحمن)) ، وكتب له بمائة الذي أسلم عليه : ذي القَصّة . وكان عبد الرحمن من أصحاب الظلّة يعني الصفّة ، صُفّة المسجد النبوي .

٢٢٦

الرّقّاد بن عمرو بن ربيعة (من هوازن)

وَفَدَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرّقّاد بن عمرو بن رَبيعة ابن جَعدة بن كعب ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفَلَج ضَيعةً ، وكتب له كتاباً وهو عندهم .

ولم يرو نص الكتاب

٢٢٧

إقطاع لثور بن عروة القشيري (من هوازن)

وَفَدَعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من بني قُشَير ، فيهم أبو العُكير ثَوْر بن عُروة بن عبدالله بن سَلمة بن قُشَير ، فأسلم فأقطعه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قطيعة - يعني جَمام والسّدّ ، وهما من العَقيق - وكتب له كتاباً .

ولم يرو نص الكتاب

٢٢٨

إلى الضحك بن سفيان في امرأة أشيم الضباني

عن الضحاك بن سفيان ، عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن :

أورثٌ امرأةَ أشيم من دية زوجها

٢٢٩

إقطاع للزبير بن العوام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى محمد رسول الله الزبير ، أعطاه سَوارق كلّه أعلاه وأسفله ، ما بين مُورع القَرية ، إلى مُوقِت ، إلى حين الملحمة . لا يحاقّة فيها أحد .

وكتب عليّ



٢٣٠

إقطاع لجميل بن رزام العدوي

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى محمد النبي رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) جَميلَ ابنَ رزام العَدَوِيّ :

أعطاه الّرمداء لا يحاقّة فيها أحد .

وكتب عليّ.



٢٤٥

إلى ذي الكلاع الأصفر بن النعمان

وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم كتب إلى ذي الكلاع الأصفر بن النعمان : مع جرير بن عبداللّه ، فأعتق أربعة آلاف مملوك.

٢٤٦

إلى أملوك ردمان

كتب النبي - إلى أُملوك ردمان . والأملوك قوم من العرب من حمير.

ولم يرو نص الكتاب .

هذا كتاب من محمد رسول الله لأسلم : لمن هاجر منهم بالله ، وشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فإنه آمن بالله ، وله ذمَّة الله وذِمَة رسوله . وإنَّ أمرنا وأمركم واحد على من دهمنا من الناس بظلم . اليد واحدة والنصر واحد . ولأهل باديتهم مثل ما لأهل قرارهم . وهم مهاجرون حيث كانوا.

وكتب العلاء بن الحضرميّ .



١٦٧

للحصين بن أوس الأسلمي

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم للحُصين بن أوس الأسلميّ إنه أعطاه الفُرغين وذات أعشاش ، لا يُحاقه فيها أحد .

وكتب عليّ .

١٩٤

لعامر بن الأسود من طيء

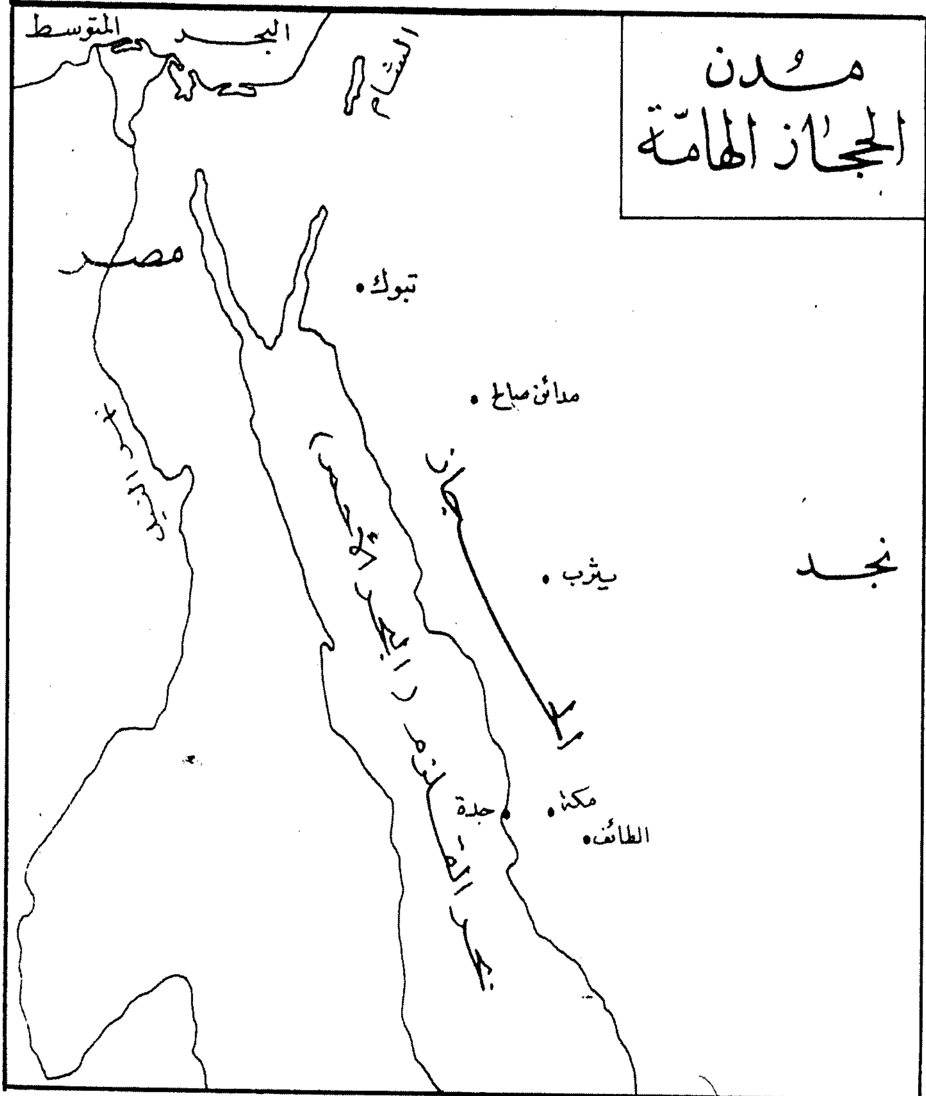
هذا كتاب من محمد رسول الله لأسلم : لمن هاجر منهم بالله ، وشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فإنه آمن بالله ، وله ذمَّة الله وذِمَة رسوله . وإنَّ أمرنا وأمركم واحد على من دهمنا من الناس بظلم . اليد واحدة والنصر واحد . ولأهل باديتهم مثل ما لأهل قرارهم . وهم مهاجرون حيث كانوا.

وكتب العلاء بن الحضرميّ .



جزيرة العرب على عهد النبيّ

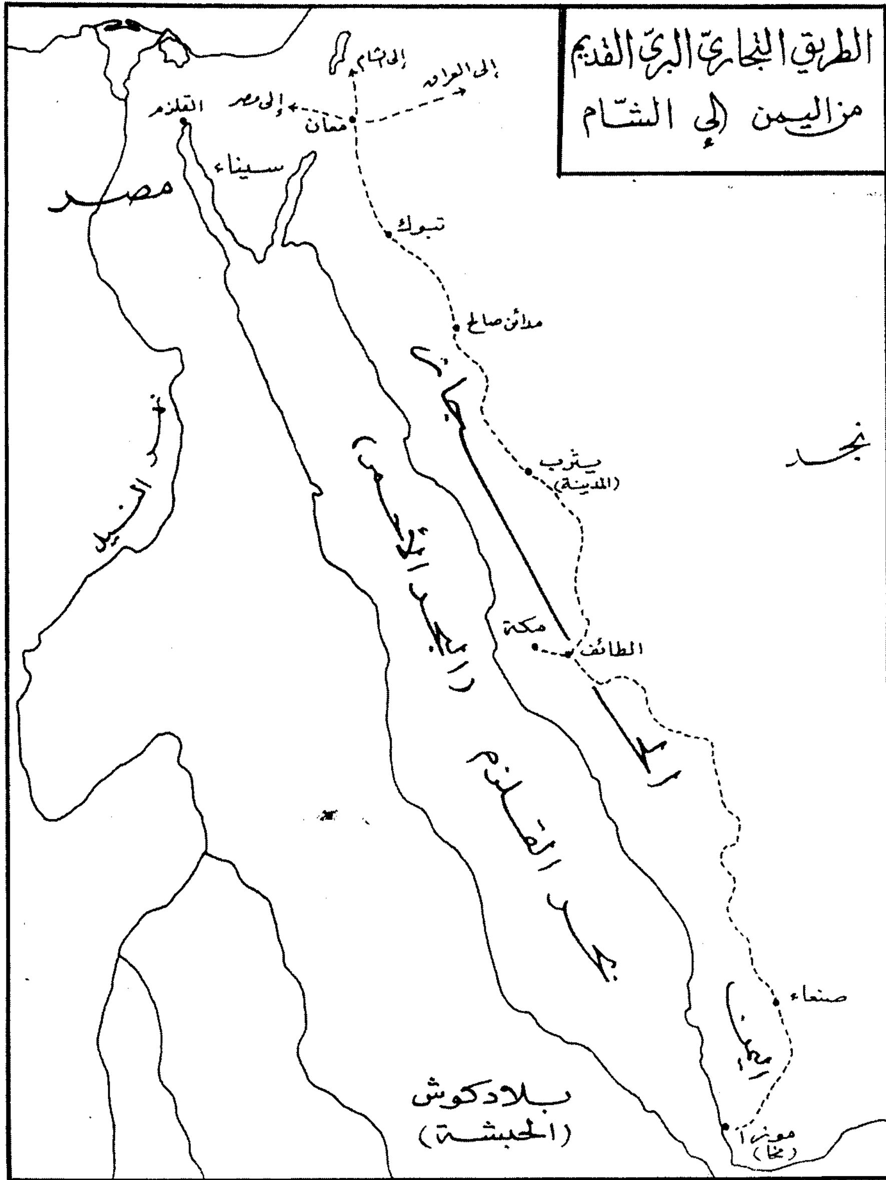
خريطة رقم (١)


مدن
الحجاز الهامة
البحر المتوسط
الشام
مصر
تبوك
مدائن صالح
يثرب
نجد
مكة
جدة
الطائف

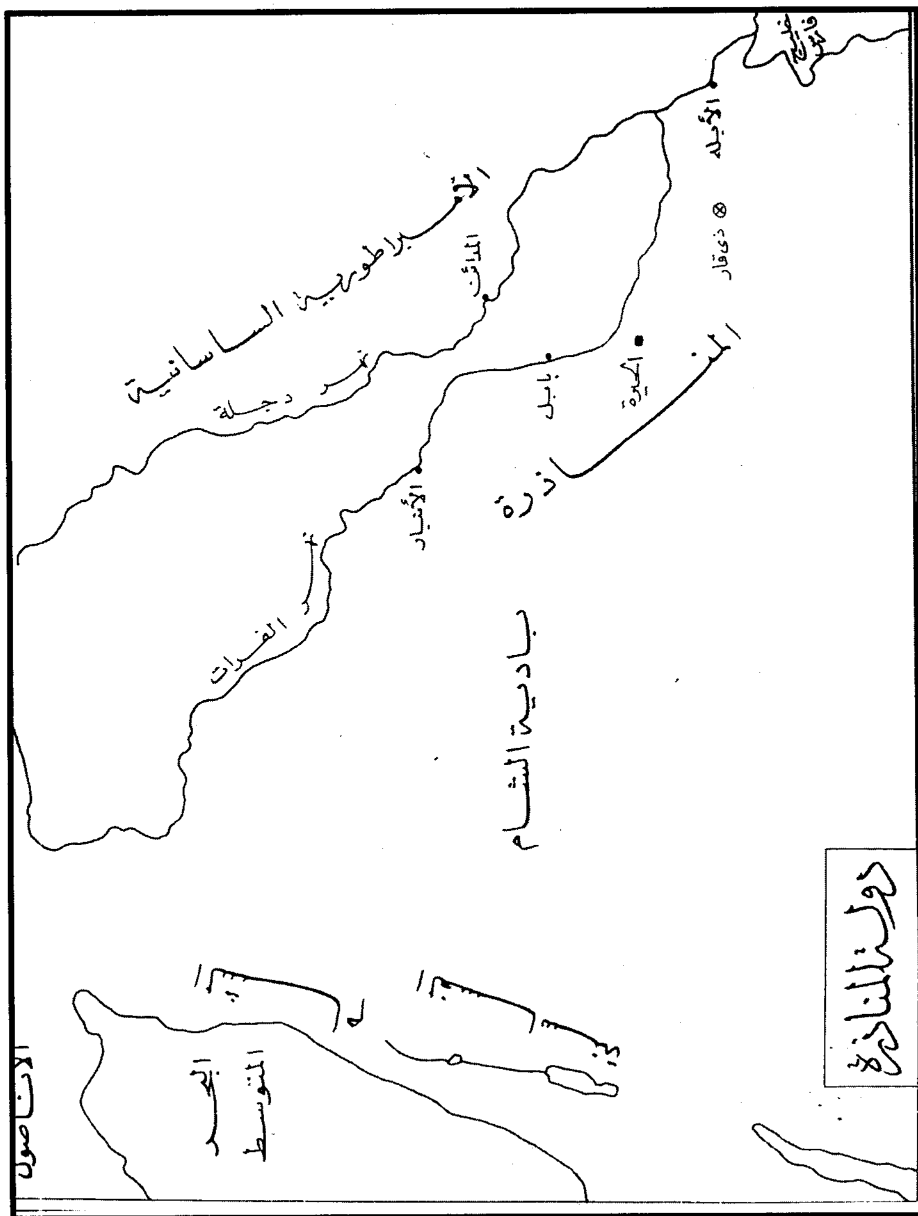
خريطة رقم (٢)

القبائل العربية قبل الإسلام
(العرب الباقية)

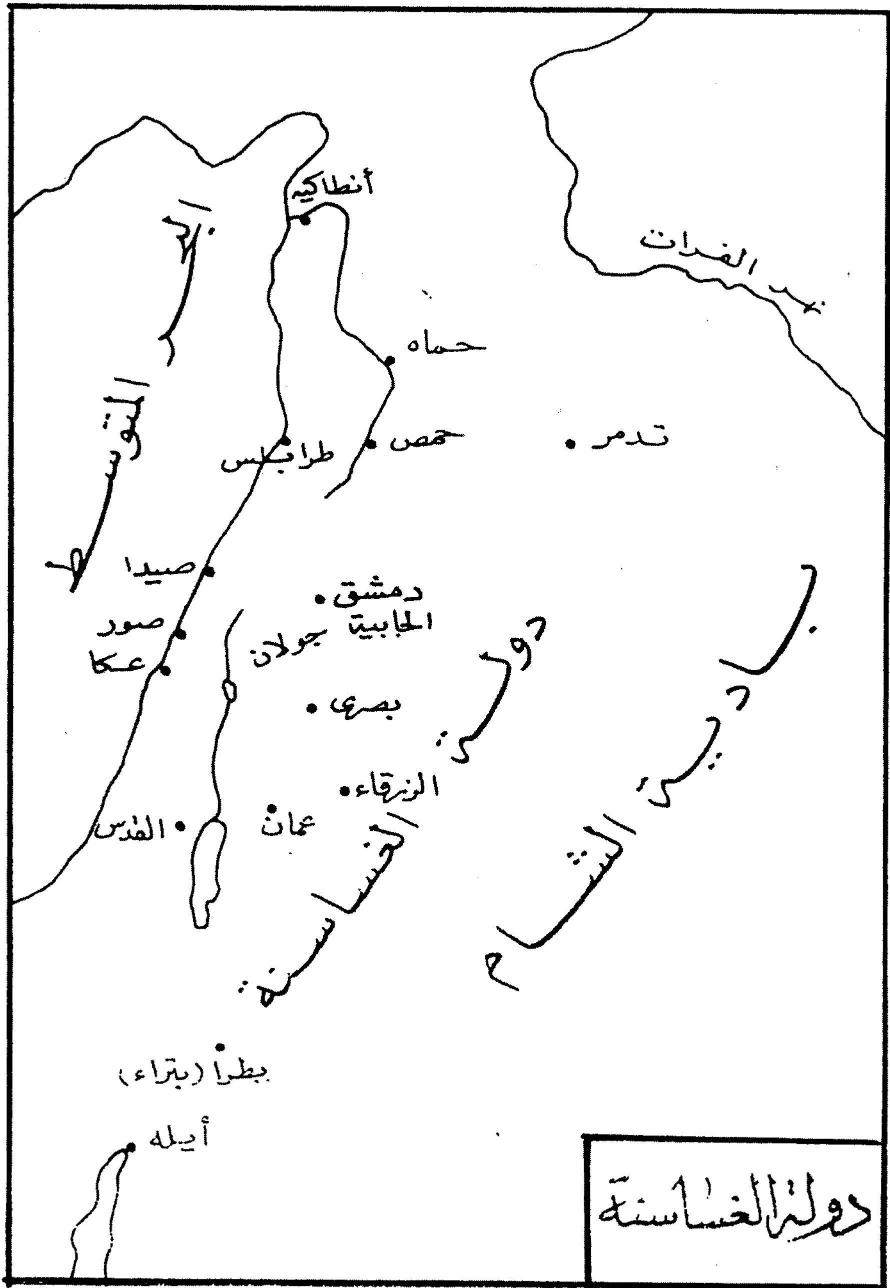
خريطة رقم (٣)


الطريق التجاري البري القديم
من اليمن إلى الشام
إلى الشام
إلى العراق
إلى مصر
معان
القلزم
سيناء
مصر
تبوك
مدائن صالح
الحجاز
يثرب
(المدينة)
نجد
نهر النيل
البحر الأحمر
مكة
الطائف
السراة
بحر القلزم
صنعاء
اليمن
بلاد كوش
(الحبشة)
موزا
(مخا)

خريطة رقم (٤)


الإمبراطورية الساسانية
نهر دجلة
نهر الفرات
المدائن
الأبلة
ذي قار
الحيرة
بابل
الأنبار
المناذرة
بادية الشام
البحر المتوسط
دولة المناذرة

خريطة رقم (٥)


أنطاكية
نهر الفرات
حماه
حمص
طرابلس
تدمر
البحر المتوسط
صيدا
صور
عكا
دمشق
الجابية
جولان
بصرى
الزرقاء
عمان
القدس
دولة الغساسنة
بادية الشام
بطرا (بتراء)
أيله
دولة الغساسنة

خريطة رقم (٦)

المؤلف في سطور

* الدكتور / مسعود يحيى اسعيّد الآغا.
* ولد في خان يونس - قطاع غزه - فلسطين عام (١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧م).
* حصل على درجة الليسانس العامـة في الآداب (قسـم التاريخ) من جامعـة قاريونس (بنغازي سابقاً) عام (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩).
* حـصل على درجة ماجسـتير الآداب في التاريخ الإسـلامي من كلية الدراسـات العليا جامعة الخرطوم - بالسودان عام (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
* حصل على درجة دكتوراه الفلسـفة في تاريخ الاقـتصاد الإسـلامي من كلية الدراسـات العليا جامعة النيلين بالسودان عام (١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م).

المؤلفـــات :-

١- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصر الخلفاء الراشدين (رسالة الدكتوراه) مطبوع.

٢- الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي - دراسة مقارنة مع كل من الإقطاعين الجاهلي والأوروبي في العصور الوسطى (رسالة الماجستير).

٣- البحرين تدخل الإسلام صلحاً وسلماً ، يُنشر بمجلة الجمعية التاريخية السعودية.

الجمعيات العلمية والأكاديمية:

١ - الجمعية التاريخية السعودية - رقم العضوية (٤٨٨).

٢- الجمعية السعودية للإدارة - رقم العضوية (٣٢٤٢).

عنوان المؤلف : الرياض ١١٤٩٢ ص.ب ٨٧٩١

جوال ٠٥٠٣١٩٥٣٠٩

قواعد النشر

١- يراعى في الدراسات التي تتصور ضمن هذه السلسلة، الأصالة والمنهجية العلمية وسلامة اللغة.

٢- يشترط في الدراسة المقدمة ألا يكون قد سبق نشرها.

٣- تقدم جميع الأصول مكتوبة على جهاز الحاسب، مع مراعاة أن يكون النسخ على وجه واحد (١٩×١٢،٥) . وأن تكون العناوين والنص والحواشي بخط واحد وببنط مختلف لكل منها وترقم الصفحات ترقيمًا متسلسلاً بما في ذلك الجداول والأشكال، ويراعى أن تقدم الأشكال مرسومة بالحبر الصيني على ورق كلك مقاس ١٩×١٢ سم.

٤- عدد صفحات البحث ما بين ٢٠٠-٥٠٠ صفحة بما في ذلك الأشكال والصور التوضيحية.

٥- يفضل طباعة البحث على الجهاز (I.B.M) على خط (Traditional Arabic) بنط (١٨) للمتن والحواشي بنط (١٢) .

٦- تكون الحواشي أسفل كل صفحة على حده وليس في نهاية البحث.

التوثيق : على الباحث أن يتبع النقاط التالية:

١- عدم استخدام الألقاب العلمية والألقاب المكتبية في البحث.

٢- يجب ذكر أسماء المجلات والدوريات المستخدمة في البحث بالكامل، إذ لا يجب استخدام الاختصارات وإذا كانت الدورية أو الحولية تحمل اسمًا مكونًا من كلمة واحدة فإنه يكتفي بذكر الاسم مثل اسم (دراسات).

٣- يجب أن تعطى الأشكال التوضيحية أرقامًا متسلسلة بصرف النظر عن العدد الذي يحتويه الشكل الواحد.

٤- يشار إلى الكتاب بذكر اسم مؤلفه كاملاً فعنوان الكتاب ثم مدينة النشر واسم الناشر وتاريخ النشر فرقم الصفحات.

٥- في حالة تكرار استخدام المرجع الواحد يذكر اسم العائلة أو الشهرة للمؤلف ومختصر اسم الكتاب.

٦- أما المقالات في الدوريات وغيرها فيذكر اسم مؤلف المقالة ثم عنوان المقالة (بين علامتي تنصيص) فعنوان الدورية فرقم العدد فسنة النشر (بين قوسين) ، فأرقام الصفحات المشار إليها.

٧- في حالة تكرار استخدام مقال أو بحث منشور في دورية أو مجلة فإن الإحالة تكون بذكر لقب الباحث ثم مختصر عنوان البحث فأرقام الصفحات المشار إليها.

٨- في حالة ظهور أسماء أكثر من ثلاثة مؤلفين لبحث أو عمل يقتصر في التوثيق إذا ورد ذكره لأكثر من مرة على ذكر اسم المؤلف الأول مع إضافة كلمة وآخرون.

٩- تأخذ الحواشي أرقامًا متسلسلة داخل النص على أن تكون ببنط مختلف عن النص ويكون موقعها أسفل كل صفحة.

١٠- المعلومات المفقودة : يجب استخدام الاختصارات التالية في حالة عدم توافر بعض معلومات التوثيق:

د . م - دون مكان للنشر . د . أ - دون اسم ناشر.

د . ت - دون تاريخ نشر . د . ص - دون أرقام صفحات.



2

Saudi Historical Society

A series of Refereed Scientific Works On History and culture

Feudal Muslim System in the time of the Prophet as compared with the Pre-Islamic and Medieval Feudal systems in Europe

Dr. Mas'ud Yahya Al-Agha

Ar-Riyadh

2nd Issue
1427 A.H / 2006 A.D